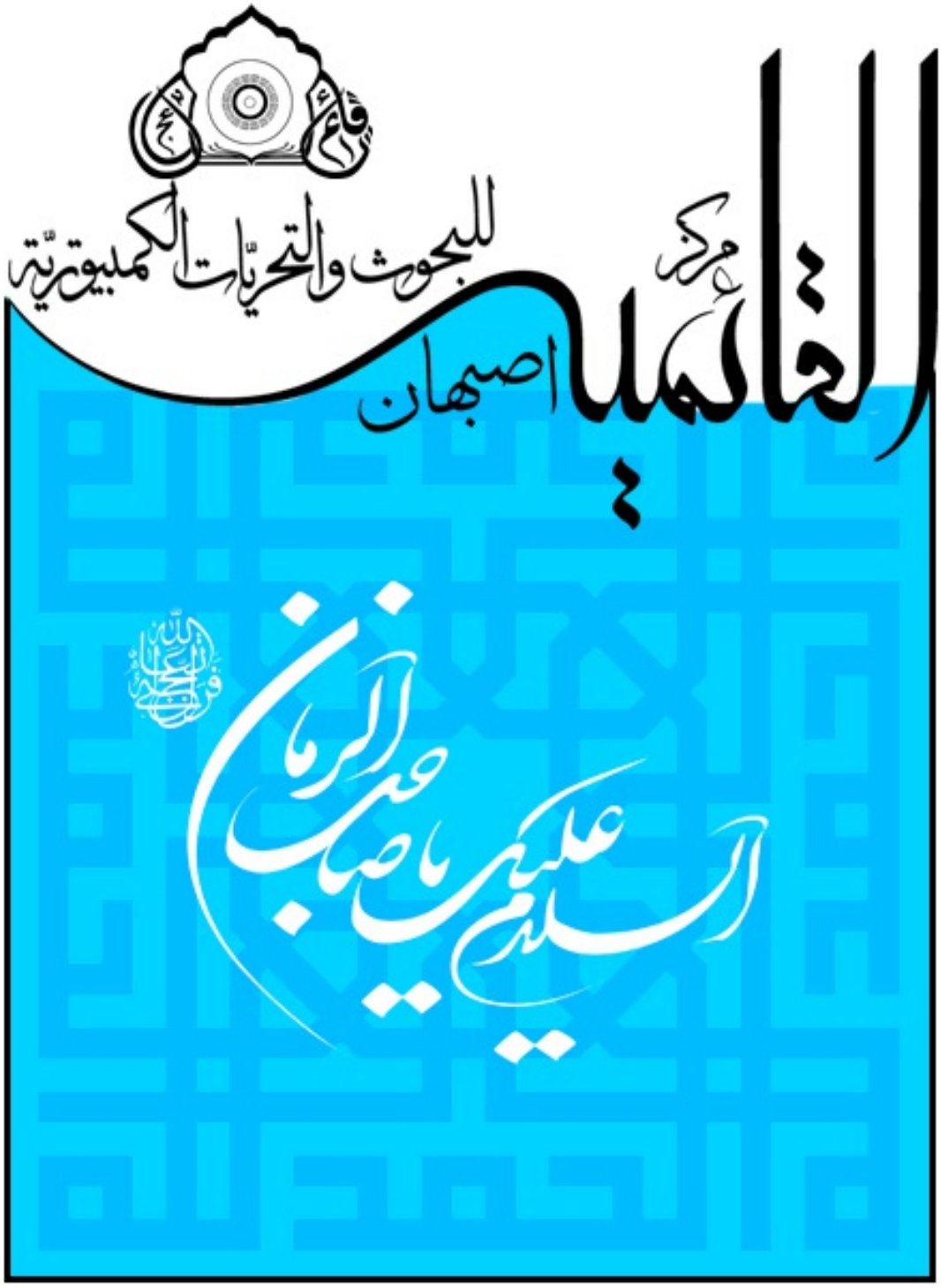


www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

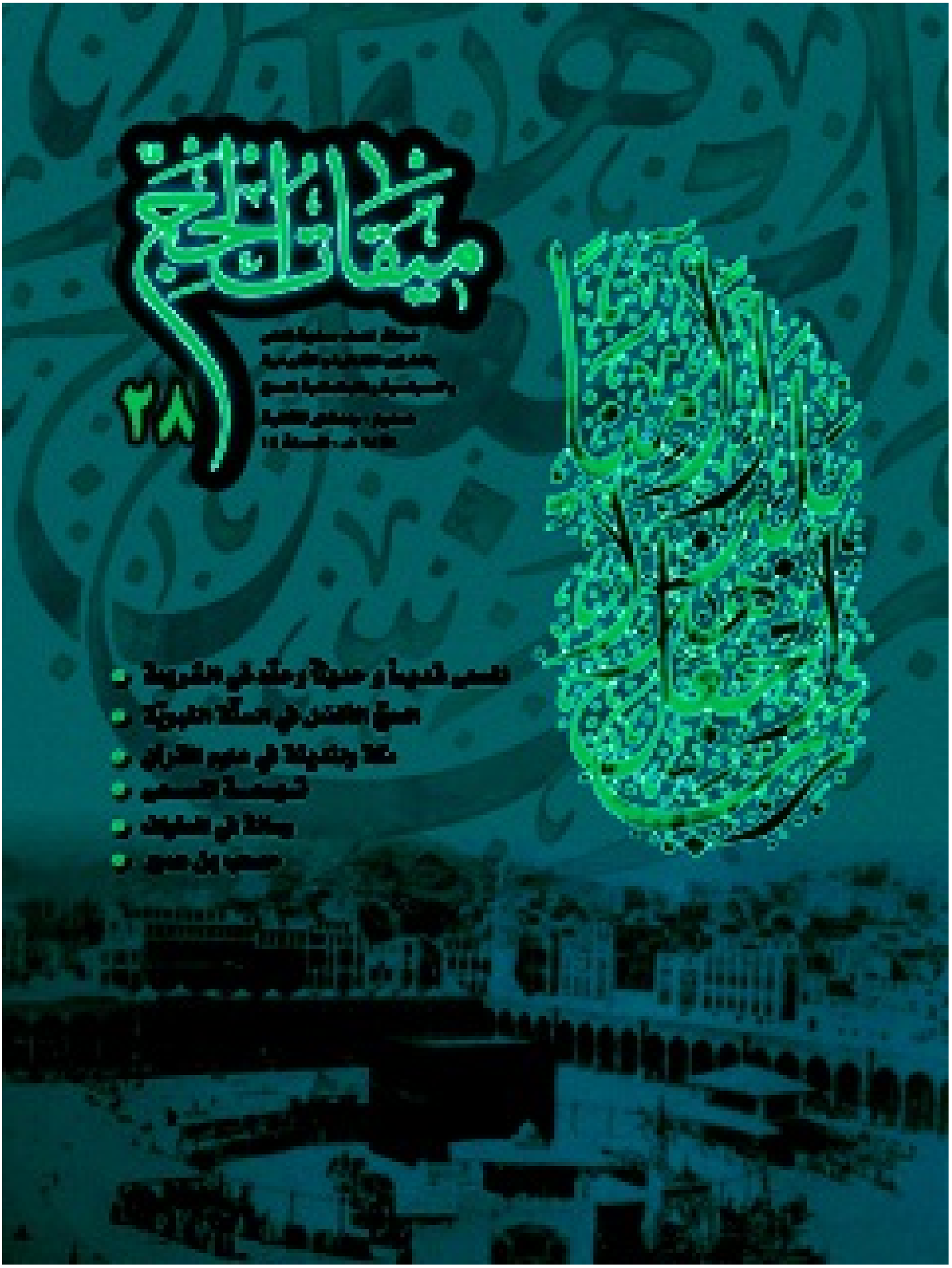

بسم الله الرحمن الرحيم

# دو فصلنامه « میقات الحج »


کاتب:

محمدی ری شهری



نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

# الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج-المجلد ۲۸ ----- ۶
اشارة ----- ۶
اشارة ----- ۶
الاتّحاد والانسجام الإسلامی ----- ۱۰
نص کلمة ممثل الإمام الخامنئی فی الحج ----- ۱۱
الاتحاد الوطنی والانسجام الإسلامی ----- ۱۵
تجلیات الأمّة الواحدة فی مشاهد الحج ----- ۳۶
المشروع الوحدوی .. رواداً ومواقف ----- ۷۸
المبادئ القرآنیة للعلاقات الإسلامیة- الإسلامیة، مطالعة تفسیریة فقهیة ----- ۱۰۰
الوحدة، قواعد ومعالم ----- ۱۳۱
شیء مما قرأته عن الحج ----- ۱۴۳
الحج رحلة حضاریة وحدویة طیبة! ----- ۱۶۹
تعریف مرکز ----- ۱۸۷

# میقات الحج-المجلد ۲۸

## اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

## اشارة

ص: ۲

ص: ۳

ص: ۴

## الاتّحاد والانسجام الإسلامی

ص: ۵

فی کلام قائد الثورة الإسلامیة الإیرانیة

الأمر المهم الذی أودّ التأکید علیه هو مسألة: الانسجام الإسلامی، حیث ذکرنا أنّ الانسجام الإسلامی یعنی عدم إثارة العصبیات الدینیة بین المذاهب الإسلامیة، فعلیکم الابتعاد عن کل ما یحرک عصبیات المسلمین من غیر الشیعة ضدکم، وفی المقابل فإنّ علی أولئک أیضاً أن لا یقوموا بأیّ عمل من شأنه أن یحرّک عصبیّاتکم ضدّهم، لأنّ ذلک هو ما یتمنّاه أعداؤنا، أنظروا إلی النزاع القائم بین فریقین کبیرین فی فلسطین .. أیّ شیء أفضل لإسرائیل من هذا؟! فالبندقیة الفلسطینیة بدلًا من أن تتوجّه إلی العدوّ الإسرائیلی باتت تستخدم فی صراع داخلی .. هذا الأمر مناسب جدّاً للإسرائیلیین وهم مستعدّون لإنفاق المبالغ الطائلة فی سبیل حصول وضع کهذا.

ولنفترض أنّ هذا الأمر تکرّر فی لبنان أیضاً بحیث وجد فریق لبنانی یتبنّی إشعال حرب داخلیة مع فریق لبنانی آخر ..

أیّ نعمة ستکون أکبر من هذه بالنسبة لإسرائیل وأمریکا؟ وهل هذا أفضل لهم أن یتقدم فریق مثل (حزب الله) ویسیر الجمیع خلفه- البعض عن اعتقادٍ وإیمان والبعض الآخر خوفاً من الرأی العام- لیکسر شوکة إسرائیل ویلحق بها الهزیمة؟ لاشک أنّ النزاع والفرقة هی الوضع الذی یناسبهم.

وهذه هی مشکلة العالم الإسلامی الیوم، فنحن بین خیارین: أحدهما أن تتضامن الشعوب الإسلامیة، ومعنی ذلک أن تخرج الشعوب المسلمة، فی مصر والأردن والهند وباکستان، تأییداً للجمهوریة الإسلامیة- مثلًا- فی قضیة من القضایا المحقة. والآخر أن تموت حالة التضامن وتسکت هذه الشعوب عندما ترفع صرخة حقٍّ من الجمهوریة الإسلامیة الإیرانیة، بل وربما یتبنی البعض فیها موقف العدوّ نفسه، ولاشک أنّ أمریکا تسعی وراء تحقیق الخیار الثانی.

ولکن کیف لهم أن یصلوا إلی ذلک؟ .. الأمر سهل جدّاً، فما علیهم إلّا أن یحیوا الفتن والعصبیات بین السنّة والشیعة، لیقولوا للسنة: إنّ الشیعة یسبّون الصحابة وأنهم یسیئون إلی مقدساتکم، کلّ ذلک بهدف بثّ روح الفرقة بین المسلمین.

لقد أخذ دعاة الوحدة بین الشیعة والسنة، هذه السیاسة بعین الاعتبار منذ بدایتها الأولی، فلماذا لایرید أن یفهم البعض ذلک؟!

إمامنا الخمینی الکبیر ۱ کان من دعاة الوحدة الإسلامیة، وکانت ولایته واعتقاده وتعلقه وحبّه للأئمّة: أکثر من کلّ أولئک المدّعین.

هل الإمام الخمینی/ یفهم معنی ولایة أهل البیت: بشکل أفضل، أم أولئک العوام الذین یرتکبون المخالفات ویتحدثون بشکل غیر مسؤول فی المجالس العامة والخاصة باسم الولایة؟

حافظوا علی الوحدة بین المسلمین، وإذا رأیتم فی المجتمع من یعمل علی خلاف ذلک، فاعزلوهم، وأعلنوا مخالفتکم لهم، لأنهم أناس مضرّون، یسیئون إلی الإسلام، ویسیئون إلی التشیع، ویسیئون إلی المجتمع الإسلامی ...

الوحدة الإسلامیة الیوم هی لمصلحة النظام الإسلامی، ولمصلحة الجمهوریة الإسلامیة، والتحرک ضد هذا التوجه هو لمصلحة أمریکا ولمصلحة الصهاینة، ولمصلحة أولئک النفعیین الذین یملأون جیوبهم من أموال النفط، ولا یرغبون بوجود عنصر کالجمهوریة الإسلامیة الإیرانیة، وکالمجتمع الإسلامی فی إیران.

ص: ۶

## نص كلمة ممثل الإمام الخامنئى فى الحج

فى ندوة «أهل‌البيت: وانسجام الأمة الإسلامية»/ مكة المكرمة- ذى‌الحجة ۱۴۲۸

بسم الله الرحمن الرحيم

«عن مولانا أبى الحسن الرضا ۷ أنه قال: رحم الله عبداً أحيا أمرنا»

أرحب بالعلماء والمفكرين والمثقفين من أتباع مدرسة أهل البيت: فى هذه الندوة المباركة التى تعقد سنوياً بجوار بيت الله الحرام؛ لإحياء أمر أهل‌البيت:، وأسأل الله تعالى أن يشملكم وإيانا بدعاء ثامن الحجج:.

موضوع هام ينبغى أن نتداوله فى هذه الندوة وهو: ما المراد من أمر أهل البيت؟ وماذا يعنى إحياؤه؟ وكيف يتم ذلك فى العصر الحاضر؟

وللإجابة على هذه التساؤلات أقول: إن أمر أهل البيت هو تحكيم قيم الدين الحنيف بقيادة آل بيت الرسالة، كما ورد فى قوله تعالى: أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ.

إذن، فالمراد من إحياء أمرهم- سلام الله عليهم- فى عصر إمامة كل منهم هو التمهيد ثقافياً واجتماعياً لتحقق إمامتهم وقيادتهم. فإحياء أمر أهل‌البيت: فى العصر الحاضر، يعنى- بناء على ذلك- التمهيد للحكم الإسلامى العالمى بقيادة المهدى من آل محمد ۹.

من جهة أخرى، إن التشتت والاختلاف بين المسلمين يشكّل أهم عائق يحول دون حاكمية القيم الإسلامية فى العالم، ويعرقل عملية التمهيد الثقافى لحكومة إمام العصر والزمان [العالمية. ولذلك بذلت أجهزة الاستخبارات العالمية منذ أمد طويل جهداً كبيراً لزرع بذور الشقاق فى صفوف المسلمين وصعّدت مؤامراتها بعد انتصار الثورة الإسلامية فى إيران وانتشار مدّها فى العراق ولبنان وأفغانستان، حيث أصبحت هذه المؤامرات

ص: ۷

فى الآونة الأخيرة أكثر تعقيداً ووصلت إلى ذروتها، مما دعا قائد الثورة الإسلامية سماحة آيةالله الخامنئى أن يسمّى العام الحالى عاماً للوحدة الوطنية والانسجام الإسلامى؛ وذلك لمواجهة مؤامرات الاستكبار العالمى.

ولكن، يبقى السؤال: كيف يمكن فى هذا العصر إحياء أمر أهل‌البيت: والتمهيد للحكم الإسلامى العالمى بقيادة الإمام المهدى [؟

إن ما نقل عن الإمام الرضا ۷ فى مطلع الحديث يتضمن الإجابة على هذا السؤال، فالراوى يسأل الإمام ۷: وكيف يحيى أمركم؟ فيردّ الإمام ۷ قائلًا: يتعلّم علومنا ويعلمها النّاس؛ فإن النّاس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا.

وبما أن معارف أهل البيت: تتطابق مع العقل والفطرة الإنسانية، فإن قول الإمام ۷ يدلّ على أن التعرف على هذه المعارف يمهّد الطريق أمام الناس لاتّباع أهل‌البيت: وتحقيق حكومتهم العالمية.

ومن أبرز معارفهم ما يرتبط بتوحيد كلمة الأمة الإسلامية والتحذير من خطر التفرقة.

وها هو أبو الأئمة أميرالمؤمنين على ۷ يقول فى كتابه الذى أرسله إلى أبى موسى الأشعرى فى قضية التحكيم: وليس رجل- فاعلم- أحرص على جماعة أمة محمد وألفتها منى.

وهنا أشير إلى ثلاثة من جهود الإمام على ۷ فى تحقيق الوحدة الإسلامية لتشكل رسالة من هذه الندوة المباركة نوجهها إلى جميع أتباعه ومحبّيه من جوار بيت التوحيد فى هذا العام وهو عام الانسجام الاسلامى:

۱- جهوده فى الدعوة

إستثمر الإمام على ۷ كل فرصة لبيان سلبيات التفرقة وخطرها على أساس الحكومة الإسلامية. وجاء فى ما روى عنه أنه خاطب المسلمين من معاصريه قائلًا: وأيم الله، ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلّا ظهر أهل باطلها على أهل حقها.

فالإمام يرى أن الباطل ينتصر باتحاد أهله والحق يهزم بتفرق أتباعه، حيث ورد فى الخطبة الخامسة والعشرين من نهج‌البلاغة قوله:

والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم.

كما وينقل الإمام ۷ للمسلمين فى خطبة القاصعة تفاصيل تجربتين تاريختين مهمتين ليلقنهم عبر التاريخ ودروسه:

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال. فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم. فإذا تفكرتم فى تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة، والتحاضّ عليها والتواصى بها.

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم ... فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق وبنى إسرائيل. فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال.

تأملوا أمرهم فى حال تشتتهم وتفرقهم ليالى كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح، ومهافى الريح، ونكد المعاش.

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولًا فعقد بملته طاعتهم وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ...

فهم حكام على العالمين، وملوك فى أطراف الأرضين. يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم. ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم. لا تغمز لهم قناة، ولا تقرع لهم صفاة ... فإن الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التى ينتقلون فى ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة؛ لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر».

وبعد ذلك يحذّر الإمام من أن الوحدة تهدّدت وتعرّضت أواصرها للخطر فى عصره.

۲- جهوده قبل خلافته

رغم إيمانه بأن الخلافة بعد رسول‌الله ۹ من حقه، إلّا أن الإمام علياً ۷ كان يرى الخطر فى تشتت صفوف المجتمع الإسلامى أكبر من خطر تركه للساحة السياسية. ولذلك قال ۷:

وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين وأن يعود الكفر ويبور الدين لكنّا على غير ما كنا لهم عليه.

وقال ۷ أيضاً:

ص: ۸

قد جرت أمور صبرنا عليها وفى أعيننا القذى تسليماً لأمرالله تعالى فيما امتحننا به ورجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم.

۳- جهوده بعد خلافته

ولقد بذل الإمام على ۷ بعد خلافته كل الجهود لصيانة وحدة الأمة الإسلامية. وممّا يثير الانتباه فى هذا المجال أن الإمام ۷ فصل بين الإصلاحات الإدارية والاقتصادية وبين الإصلاحات الثقافية التى أجل قسماً هاماً منها حفاظاً على وحدة الأمة. وقال ۷:

لو قد استوت قدماى من هذه المداحض لغيرت أشياء.

وحول اهتمامه بتوحيد الكلمة بين أبناء الأمة الإسلامية يقول شريح القاضى:

بعث إلىّ علىّ أن اقض بما كنت تقضى حتى يجتمع أمر الناس.

وهناك الكثير ممّا ينبغى قوله فى هذا المجال، وهذا ما أوردناه بتفصيل فى موسوعة الإمام على ۷ عند ذكر سياساته ۷.

إن سيرة هذا الإمام العظيم وسائر أئمة أهل البيت: من قول وفعل، ينبغى أن تكون النبراس لحركة أتباعهم فى العصر الراهن وللعمل على التقريب بين أبناء الأمة الاسلامية تمهيداً للحكومة الإسلامية العالمية بقيادة إمام العصر [.

اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ص: ۹

## الاتحاد الوطنى والانسجام الإسلامى

الشيخ جعفر السبحانى

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس وجعل الحج موسماً للعبادة وفرصة للقاء بين المسلمين من كل صقع وصوب ليتعارفوا ويطلعوا على أحوال بعضهم بعضاً وهذا ما يشير إليه سبحانه بقوله: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) وأى منفعة بعد العبادة أكبر من أن يلتقى الأخوة فى الله فى مكان واحد بعيداً عن جميع الاعتبارات الشخصية والاجتماعية والحواجز القومية والاقليمية والعرقية تغمرهم مشاعر المحبة والمودة وتجمعهم روح الأخوة الصادقة الصافية.

وأى مسألة أهم من أن يتعرف المسلمون على الأخطار والمشاكل المحدقة بهم ويتدارسوا حلولها المناسبة ويعملوا معاً بيد واحدة وعزيمة صارمة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ قمنا بإلقاء كلمة حول الاتحاد الوطنى والانسجام الإسلامى شرحنا فيها ما للاتحاد والوحدة من المنافع وما للفرقة والاختلاف من المضار وأتينا بدلائل على التلاحم الموجود بين السنة والشيعة فى الأزمنة السابقة.

الحديث عن الاتحاد والوحدة لايحتاج إلى برهنة واستدلال، فكلّ إنسان- وإن كان يتمتع بمعلومات محدودة حول القضايا الاجتماعية- يعرف أن تلاحم أمّةٍ ما وتضامنها سبب للكثير من الفوائد والخيرات، كما أنّه يعلم أنّ الاختلاف والانشطار لا ينتجان سوى الإخفاقات المتزايدة.

إن ضرورة وحدة الأمّة- أىّ أمة- من القضايا التى قياساتها معها حسب الاصطلاح المنطقى، أى أنها ادّعاءٌ يحمل دليله معه، ومن ثم لا يحتاج إلى برهان أو دليل.

ص: ۱۰

المقطع الأول من مقطعى العنوان أعلاه عبارة عن «الاتحاد الوطنى»، ومن الواضح أنّ الوحدة القومية والوطنية تختلف عن النزعة القومية، فالقومية مرفوضة فى الإسلام، وقد ذمّ القرآن بشكل واضح هذه النزعة، فقد جاء فيه قوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ). (۱)

وتحمل النزعة القومية معها معطيات مرفوضة وسلبية، إنها تعنى أفضلية قومٍ على آخرين؛ للغتهم أو دمهم أو أرضهم أو قوميتهم، إنهم يفتخرون بذلك، ويمارسون الإذلال والتحقير بحق الشعوب الأخرى.

إن هذا اللون من التفكير مذموم من جانبى العقل والشريعة الإسلامية المقدسة، فهو يمثل نوعاً من التفكير اليهودى الذى يرى بنى إسرائيل أمةً مختارةً، ولهذا فهم ينسبون إلى الله أشياء لطالما ردّها القرآن، منها- على سبيل المثال-: (وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى) (۲)، و (قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ) (۳) و (قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ) (۴).

إن هذه القومية نوع من عبادة العِرق، ومع الأسف فقد تفشت هذه النزعة فى العالم فى القرنين الأخيرين وأفضت إلى نزاعات واضطرابات وحروب عدّة، بينما نرى أن منطق الإسلام لا يعطى للقومية والعِرقية أىّ قيمة ولا يعيرها أىّ اهتمام.

والنتيجة أن النزعة القومية مرفوضة قرآنياً وعقلياً؛ لما تحمله من مضمون سلبى.

أما الاتحاد القومى والوطنى، فهو مفهوم إيجابى لا يحمل فى طيّاته أىّ آثار سلبية، إنّه يعنى أن الأمة التى تعيش على أرضٍ واحدة وتشرب من مياه واحدة، تستفيد منها طوال سنين، فإن لهذه الأرض حقاً عليهم، وهذا الحق يتمثل فى أن يتحد البشر الساكنين على سطحها ويضعوا يدهم بيد بعضهم بعضاً، يرفعون بذلك نقائص حياتهم، ويتغلبون على المشاكل والأزمات، دون أن يمارسوا تحقيراً للشعوب الأخرى أو يقوموا بأذيتها والإضرار بها، إن الاتحاد القومى والوطنى بهذا المعنى الآنف الذكر فكرٌ فطرى؛ فكل إنسان تربطه بوطنه علاقة عاطفية.

عندما هاجر النبى الأكرم ۹ من مكة، وقعت هذه المدينة فى ذاكرته وهو فى وسط الطريق عند «الجحفة»، فلم يتمكّن من إخفاء مشاعره وحبّه لمسقط رأسه، فامتلأت عيناه بالدموع، وهنا نزل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ) (۵)

كذلك وعندما فتح النبى ۹ مكة بعد عشر سنوات من البُعد عنها ومفارقتها، وطهّر بيت التوحيد من لوث عبادة الأصنام، نزل لدى دخوله إليها نقطةً مرتفعة فيها تسمّى «أذاخر» وعندما وقعت عيناه على الكعبة كما ورد فى كتب التاريخ: اجتاحت قلبه عاصفة من الهم والحزن، وقال: «إنى أحبك ولولا أنّى هُجّرتُ لما تركتك».

يتبين من هذا أنّ بين الاتحاد الوطنى والقومى والنزعة القومية فاصلة كبيرة، بل لا يمكن- من الأساس- الجمع والمقارنة بينهما.

مدح القرآن للاتحاد وذمّه للانشطار والتشظى

كلّما وصل القرآن الكريم إلى الحديث عن الوحدة والاتحاد أردفه بمدحهما، وكلّما مرّ بالحديث عن الاختلاف والانقسام ذمّهما، يقول فى الاتحاد: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)، (۶) ولتحقيق هذا الاتحاد اعتبر القرآن المؤمنين إخوةً فيما بينهم، فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۷)، وفى الحقيقة فإنّ أقرب علاقة بين شخصين من مستوى واحد هى علاقة الأخوة، لهذا اعتبر المؤمنون إخوة، فعلاقة الأبوة والبنوة رغم كونها أقوى من علاقة الأخوة إلا أنّ طرفى هذه العلاقة ليسا بمستوى واحد، لهذا لم يوظف القرآن هذه العلاقة، وإنما استعاض عنها بعلاقة الأخوة.

أما لدى حديثه عن الفرقة والانقسام، فنجده يقول: (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (۸)؛ فقد عرضت هذه الآية المباركة ثلاثة أنواع من العذاب هى:

۱- العذاب من فوق، كحجارة السماء أو الصاعقة التى تحرق مدينةً كاملة.

۲- العذاب من أسفل، كالزلزلة المدمرة والبراكين.

۳- عـذاب الأمـة الواحـدة التى تتشـتت إلى فرق مختلفـة تعزف كل واحدةٍ منها على منوال خاصّ بها، وهذا العذاب أسوأ من العذابين السابقين، بشهادة أنه بعد ذكر العذاب الثالث المشؤوم يذكر نتيجته ألا وهى تعذيب كل واحدٍ بالآخر.

وأُنهى هـذا القسم من الموضوع بتحليل آيـة الاعتصام، حيث أن القرآن دعا إلى الوحدة والتمسّك بالحبل الواحد؛ فبدلًا من أن يقول: تمسّكوا بالقرآن والإسـلام، نراه يقول: تمسّكوا بحبل الله، وكأن الهدف من ذكر (الحبل) الإشارة إلى أن الإنسان عندما يكون فى قعر البئر فإن سبيل نجاته الوحيد هو أن يُلقى إليه حبل إلى داخل البئر ليتمسك به ويصعد عليه، وإلا فإن موته فى الداخل يغدو محتماً، إن الأمـة المضـطربة التى يعزف كل واحـدٍ فيها على منواله تشـبه ذاك الـذى سـقط فى البئر، ذلك أن موتها قطعى ونهايتها محتومـة، فما أروع أن نعمل على أن تتوحّد هذه الإيقاعات ونمسك خير إمساك بحبل الوحدة كى نحظى بالنجاة وننعم بالخلاص.

كانت هذه كلمات موجزة وإجمالية حول المقطع الأول من العنوان (الاتحاد الوطنى)، ولننتقل الآن إلى شرح المقطع الثانى.

---

۱- الحجرات: ۱۳.

۲- البقره: ۱۱۱.

۳- البقرة، ۱۱۳.

۴- البقرة، ۹۴.

۵- القصص: ۸۵.

۶- آل‌عمران: ۱۰۳.

۷- الحجرات: ۱۰.

۸- الأنعام: ۶۵.

ص: ۱۱

الانسجام والتضامن الإسلامى

تعنى كلمة الانسجام النظم والانضباط، وهو أحد المحسّنات البديعية فى البلاغة، فذاك الكلام الذى تتسم مفرداته بالجمالية وتخلو من التعقيد يطلق عليه اسم الكلام المنسجم. والانسجام الإسلامى يختلف عن وحدة المذاهب، وهو معادل- بمعنى من المعانى- للتقريب بين المذاهب، فوحدة المذاهب أمر غيرممكن التحقق؛ ذلك أن الاختلافات التى مضى عليها أربعة عشر قرناً لا يمكن بأسبوع واحد أو شهر واحد أو سنوات عدة أن تزول أو تتلاشى، إلا أنه فى الوقت عينه الذى تختلف فيه المذاهب يمكنها استخراج مجموعة من المشتركات الكثيرة فيما بينها لتنطلق منها فى تعاون ضرورى وتحصل من خلال ذلك على نتائج مبهرة، دون أن تمتنع فى الوقت عينه عن تداول القضايا الخلافية فى المحافل العلمية- لا فى مقبرة البقيع (۱)- عبر حوارات مثمرة لتحلّ العالق منها أو تجعل الأفكار متقاربة.

الانسجام الإسلامى فى ظلال المذاكرة والحوار

من المناسب أن أنقل هنا قصّةً تتصل بموضوعنا، فقبل سبعة وعشرين عاماً انطلق مجلس الخبراء من هذه النقطة بالذات، والتقى نيّف وسبعون شخصاً هنا، وكنت أنا آنذاك فى لجنة (الأحوال الشخصية)، التى تشكّل الفصل الأول من الدستور.

وقد كان فى لجنتنا المولوى عبدالعزيز؛ فسألنى: هل تقولون- أنتم الشيعة- بالبداء؟ فأجبت: نعم، قال: والبداء بمعنى الظهور بعد الخفاء، لا يمكن نسبته إلى الله فلا يقال: بدا لله؟

فأجبت: البداء كلمة تستخدم فى موردين:

۱- البداء فى مقام الثبوت.

۲- البداء فى مقام الإثبات.

أما الذى فى مقام الثبوت فيعنى أن كل إنسان يتمكن من تغيير مصيره بأعماله الصالحة والطالحة، وأن لا يظن بأنه ليس له سوى مصير واحد، وإنما يرى أن له مصائر عدّة، كى يعرف كيف يحوّل مصيره عبر العمل، فمثلًا هناك عمر محدود للإنسان فى لوح المحو والإثبات، إلا أن هذا المصير غير حتمى، إذ بإمكانه تغييره عبر ممارسة صلة الأرحام، فيتمكن من زيادة عمره أو الإنقاص منه بالأعمال التى يقوم بها. وقد يُكتب فى مصير الإنسان بلاء أو مرض إلا أنه لايكون حتمياً، إذ يمكنه أن يرفع هذا البلاء عنه بالصدقة.

وهناك عدة آيات وروايات تدلّ على هذا النوع من البداء ذى البُعد الثبوتى، كما أن الآية الكريمة: (يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ) (۲) ناظرة إلى هذا الأمر. وقد أورد جلال الدين السيوطى فى تفسير «الدر المنثور» عدداً من الروايات بهذا المضمون.

إنّ أكبر أثر للاعتقاد بالبداء متصل بعالم الثبوت، فى مقابل اليهود الذين يعتقدون بعدم إمكان تغيير المصير البشرى حتى بالنسبة لله تعالى، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) (۳)

أما البداء فى مقام الإثبات، فيحمل معنى آخر، وهو أن يُخبر نبىّ أو ولى من أولياء الله بخبرٍ ما، غير أنه لا يتحقق، وهنا لابد أن نعرف أن هذا المخبر الإلهى لم يكن كاذباً فى خبره، فقد كان مطلعاً على المقتضيات التى تدفع إلى تحقق الظاهرة أو الحدث، دون أن يكون مطلعاً على المانع اللابث فى البَيْن، وفى هذا المورد يقال: بدا لله، تماماً كما فى قصة قوم يونس، حيث أخبر بنزول العذاب، وبدت آثاره، وعبر ذلك ثبت قول هذا النبى، غير أن قوم يونس سلكوا سبيل التوبة بإرشاد من أحد العباد الزاهدين، وتمكنوا بذلك من إبعاد شبح العذاب الإلهى عنهم، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: (فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ) (۴)

وللبداء فى مقام الإثبات موارد معدودة، أحدها ما جرى لقوم يونس، أما أنه لماذا يقولون: بدا لله، فيما كان سبحانه وتعالى مطلعاً على تمام زوايا الحدث وأطرافه، أى أنه كان يعلم بتكذيب قوم يونس وبلعنة يونس عليهم وتهديد مظاهر العذاب لحياتهم وعمرانهم .. كما

أنه سبحانه يعلم بأنهم يسلكون سبيل التوبة، وتنزل الرحمة الإلهية عليهم، وفى هذه الحالة لماذا يقال: بدا لله؟ فيما يفترض أن نقول: أبدى الله ما أخفاه؟ فالجواب: هو أن البشر يتحدثون عما يرونه، فحيث كان هذا الواقع بنظرهم ظهوراً بعد الخفاء، فإن الاستنتاج الأولى لهم يصوغونه فى جملة: بدا لله، وإلا لابد من القول- انطلاقاً من العقائد والأصول المسلّمة-: بدا من الله.

إن هذا النوع من الاستعمالات كثير فى القرآن الكريم، ونذكر هنا مورداً واحداً؛ حيث يتحدث القرآن عن المنافقين، فيقول: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ) (۵)؛ فمن المسلّم أن عمل المشركين كان حيلةً، فيما لا يكون عمل الله حيلة والعياذ بالله، وإنما يبطل سبحانه حيلهم، لكن حيث جرى التعبير عن عملهم بالمكر، بيّن فعل الله باستخدام الكلمة نفسها، كى يكون هناك نوع من التناغم والتناسق فى الحوار والمجادلة، وهذا ما يسمّى فى الاصطلاح البلاغى بالمشاكلة التى تعطى الكلام جماله ورونقه.

ومن هذا المنطلق، عندما تحدث رسول الله ۹ عن الأشخاص الثلاثة من بنى إسرائيل الذين كانوا يتعذبون: واحد بالقرع وآخر بالعمى، وثالث بالبرص، وأن الله رفع عن كل واحد منهم بلاءه؛ فأعطى الأول شعراً جميلًا، والثانى عيوناً ناظرة مبصرة، والثالث جلداً نابضاً نضراً، وعندما لم يشكر بعضهم هذه النعمة الإلهية أخذها الله منه؛ لأنه لم يكن ليقوم بواجباته ومسؤولياته مقابل هذه النعم الربانية، فى هذه القصة نجد رسول الله ۹ يعبّر: «بدا لله فى الأقرع والأبرص ...» (۶)، والعلّة فى هذا التعبير هو ما قلناه قبل قليل.

---

۱- إشارة إلى دعايات الوهابيين التى تطرح من قبل البعض فى مقبرة البقيع، على أسماع حجاج بيت الله الحرام و زائرى قبر رسول الله ۹ و أهل بيته:.

۲- الرعد: ۳۹.

۳- المائدة: ۶۴.

۴- يونس: ۹۸.

۵- الأنفال: ۳۰.

۶- صحيح البخارى ۲۰۸: ۴، كتاب الأنبياء، الباب ۵۱.

ص: ۱۲

... عندما سمع عبدالعزيز هذا البيان كلّه قال: آتنى بكتاب من قدماء الإمامية يفسّر البداء بهذا الشكل الذى ذكرته الآن، وفى تلك الأيام، أتيته بكتاب «أوائل المقالات» مع «تصحيح الاعتقاد» للشيخ المفيد، وذلك عاريةً من مكتبة مسجد چهل ستون (الأربعون عموداً)، فى طهران، وقدّمته له، وبعد ستة أيام أرجع الكتاب لى، وقال: إنّ البداء بهذا المعنى الذى يقوله (المفيد) متفق عليه بين علماء أهل السنة كافة.

استنتج من هذا كلّه، أن الحوارات الحميمة الصادقة التى تحكمها الصداقة يمكنها أن تقلّص المسافات وترفع الكثير من الستر التى تحجب رؤية الحقيقة.

تعاون علماء الفريقين فى العصور السابقة

إن هذا البُعد والقطيعة الموجودين اليوم بين علماء الشيعة والسنّة كانا أقلّ حجماً فى الماضى، وقد ضاعفت العناصر الخارجة عن الأجواء العلمية منها، ووسعت من الانشطار والتشظى، ونمرّ هنا على تاريخ هذا التعاون بين علماء الفريقين:

عصر الصادقين ۸ المنير والانسجام الإسلامى

يعدّ عصر الإمامين: الباقر والصادق ۸ عصر الصراع والتصادم بين الدولتين: الأموية والعباسية، فحينما كان رجال السياسة مشغولين ببعضهم، كان الجو العلمى مفتوحاً أمام التعاون المعرفى، وقد استفاد منهما ۸ عدد كبير من أعظم شخصيّات فقهاء ذلك العصر، نذكر بعضاً منها:

۱- أبوحنيفة (۱۵۰ ه-) إمام الحنفية، فقد كان ملازماً للإمام الصادق ۷ لعامين كاملين فى المدينة المنورة، وهو بنفسه يتحدث عن تأثير هذين العامين عليه، حيث يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان» (۱)

۲- مالك بن أنس (۱۷۹ ه-) فقيه المالكية، حيث يقول عن الإمام الصادق ۷: لقد رأيت جعفر بن محمد، وكانت الابتسامة على شفتيه، كان عندما يذكر اسم رسول الله ۹ يتغير لونه ويصفر، ولم ينقل حديثاً عن رسول الله ۹ إلا وكان على وضوء، لقد كنت لمدة أكرر الذهاب عنده والتردد عليه، فلم أره إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلّياً وإما صائماً وإمّا يقرأ القرآن، وكان من العبّاد الزهاد الذين يخشون الله تعالى (۲).

۳- سفيان الثورى (۱۶۱ ه-) صاحب مذهب فقهى يُنسب إليه، وقد استمرّ مذهبه قائماً حتى القرن الرابع الهجرى، وقد نقل الكثير من الروايات عن الإمام الصادق ۷.

۴- سفيان بن عيينة (۱۹۸ ه-) أحد رؤساء المذاهب التى انقرض أنصارها، وكان ينقل روايات عن الإمام الصادق ۷.

كانت هذه نماذج لما أردنا ذكره، وكتب الرجال والتراجم حافلة بالمزيد (۳).

ولم تكن هذه العلاقة لتربط الفقهاء المعاصرين للإمام الصادق والباقر ۸ وتجعلهم يحملون رواياته وأحاديثه، وإنما امتدّت لتشمل الفقهاء الكبار فى علاقتهم بتلامذة هذين الإمامين، حيث كانت بين الطرفين علاقات علمية وفكرية، فابن أبى ليلى قصد محمد بن مسلم كى يطلع من خلاله على فتاوى وآراء الإمام الصادق ۷، ليتمكّن عبر ذلك من حلّ مشكلاته الفقهية (۴).

وفى سفره من المدينة إلى مرو، كان على مسير نيسابور آلاف المحدّثين ينتظرون الإمام الثامن ۷ وفى أيديهم القلم والكاغذ، وهناك بالذات سمعوا حديث السلسلة الذهبية حيث ألقاه الإمام الرضا ۷ عليهم.

ويشير الإمام الفخر الرازى فى تفسيره لسورة الكوثر إلى نسل السيدة الزهراء ۳، ويقول: فى أىّ أسرة نجد علماء كبار مثل الباقر والصادق والكاظم والرضا؟! وفى المجلّد الأول من تفسيره، ولدى بحثه عن جزئية البسملة من كل سورة ولزوم الجهر بها، ينقل الفخر الرازى رأى الإمام على بن أبى‌طالب ۷ ويقول: «كل من اقتدى فى دينه بعلى بن أبى‌طالب فقد اهتدى»، ودليله على ذلك قول رسول الله ۹: «اللهم أدر الحق معه حيثما دار» (۵).

أکتفی هنا بهذا المقدار للتدلیل علی التعاون المعرفی الذی کان قائماً بین المذاهب فی عصر الأئمة الأربعة، وأسعی- لاحقاً- لبیان هذا التعاون بین علماء الفریقین فی عصر الغیبة، منذ عام ۲۶۰ ه- فما بعد.

۱- الکلینی فی طرابلس

محمد بن یعقوب الکلینی، أحد المحدّثین الشیعة البارزین، ولد حوالی عام ۲۵۵ ه- وتوفی عام ۳۲۹ ه-، وقد کتب «الکافی» فی حوالی عشرین سنة، وأخذ عنه القمیّون الحدیث، ثم عزم السفر إلی بغداد، لیعرض هناک کتابه علی المحدثین.

فی تلک الأیام، کانت بغداد والکوفة مرکز التشیع، ومع ذلک لم یکتف الکلینی بما فعل، بل واصل سیره نحو دمشق وبعلبک، وهناک فی بعلبک بالذات نقل الحدیث عن أستاذین هما: أبوالحسن محمد بن علی السمرقندی، ومحمد بن أحمد الخفاف النیسابوری.

یکتب ابن‌عساکر فی تاریخه أن مشایخه ضبطوا الحدیث عن الکلینی، ویعمد من ثم إلی نقل حدیث عنه بسنده إلی أمیرالمؤمنین ۷: «إعجاب المرء بنفسه دلیل علی ضعف عقله» (۶).

---

۱- التحفة الاثنا عشریة: ۸.

۲- ابن شمسیة، التوسل والوسیلة: ۵۲.

۳- لمزید من الاطلاع انظر کتاب: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ۷۱: ۱- ۷۳.

۴- وسائل الشیعة، ج ۱۲، أبواب أحکام العیوب، الباب ۱، الحدیث ۱.

۵- التفسیر الکبیر، للفخر الرازی، ۲۰۴: ۱.

۶- تاریخ ابن عساکر ۲۹۸: ۵۶.

ص: ۱۳

لقـد کان الجو فی بعلبک منفتحاً إلی حـدّ أن محدّثی الفریقین کانوا یتبادلون الحدیث فیما بینهم، وقد أخذوا الحدیث من هذا الشـیخ الجلیل، دون أن یروا أن تشیّعه مانع من أخذ الحدیث عنه.

۲- الشیخ الصدوق فی بلاد ما وراء النهر

یمّم الشـیخ محمـد بن علی بن بابویه (۳۰۶- ۳۸۱ ه-) المعروف بالشـیخ الصدوق، شـطره- لأخذ الحدیث- ناحیة المشـرق الإسلامی، وأقام لسـنوات عدة فی بلخ وبخاری، ونقل الحدیث عن ۲۶۰ شـیخاً من شیوخ الحدیث، وقد کان بعضهم من محدثی أهل السنّة، مثل أبی نصر أحمد بن الحسین الضبّی المروانی (۱)، کما نقل عددٌ من محدّثی أهل السـنّة عنه الأحادیث، وقد کان بعض مشایخ الخطیب البغـدادی، مثل محمد بن طلحة النعّالی من تلامذة الشـیخ الصدوق، لیس هذا الرجل فحسب، بل هناک آخرون من أهل السـنّة أخذوا الحدیث عنه (۲).

۳- الشیخ المفید فی بغداد

محمـد بن محمـد بن النعمان العکبری المعروف بالشـیخ المفید (۳۳۶- ۴۱۳ ه-) أحـد العلماء المشـهورین فی بغداد، لقد کان مشـعلًا یضیئ علی المحیطین به، وقد استفادت الفرق عامتها منه، یقول ابن‌الجوزی عن درسه: «کان له مجلس بداره بدرب رباح یحضره کثیر من العلماء من سائر الطوائف» (۳)؛ وما یرشد إلی عمق العلاقة التی کانت تربط الفرق کافة- من الشیعة والسنّة- به وحبهم له، ما یقوله عنه کل من الشـیخین: الطوسی والنجاشی، وهما من تلامذته، یقول النجاشی: «وکان یوم وفاته مشهوراً، وصلی علیه الشریف المرتضی بمیدان الإشـنان، وضاق علی الناس مع کبره» (۴). ویصف الشـیخ الطوسـی یوم وفـاته فیقول: «کان یوم وفاته یوماً لم یُرَ أعظم منه من کثرة الناس للصلاة علیه، وکثرة البکاء من المخالف والمؤالف» (۵)

لقد کان الشـیخ المفید وکافة علماء بغداد من الفرق المختلفة یکرّمون العلم رغم اختلافهم فیما بینهم. وکانت تربطهم علاقات وطیدة، فذرف شخص سنّی الدموع علی موت عالم شیعی کاشف عن عمق العلاقة والارتباط الروحیین.

۴- الشریف المرتضی زعیم أهل العراق

یعدّ الشریف المرتضی، علی بن الحسین (۳۵۵- ۴۳۱ ه-) من أرکان العلم فی العراق، وقد اعترف الجمیع له بالإمامة فی الکلام والفقه والتفسیر والأدب، فابن بسام الأندلسـی یمتدحه فی أواخر کتاب (الذخیرة) فیقول: «کان هذا الشـریفُ إمام أئمة العراق بین الاختلاف والاتفاق، إلیه فزع علماؤها، وعنه أخذ عظماؤها» (۶).

۵- الشیخ الطوسی وکرسیّ التدریس

ومما أنتجته یراع الأستاذین البارزین: المفید والمرتضی، الشیخ محمد بن الحسن المعروف بالشیخ الطوسی (۳۸۵- ۴۶۰ ه-)، إننا نجده ینقل فی أسانیده عن عالمین سنیین أخذ عنهما الروایة، وهما: أبوعلی بن شاذان، وأبو منصور السکّری (۷).

ویصف الذهبی بیته بمعقل السبّاقین إلی العلم، ویکفینا للإشارة إلی عظمته العلمیة أن أعطاه الخلیفة العباسـی (القائم بأمر الله) کرسـی الکلام الإسلامی (۸).

۶- ابن‌إدریس الحلّی والتعاون مع الفقیه الشافعی

یخبرنا محمـد بن منصور الحلی، المعروف بابن إدریس (۵۴۳- ۵۹۸ ه-)- وهو عالم بارز مرموق صاحب رأی ومدرسـة فی الفقه- فی کتابه القیّم (السـرائر) عن علاقته وتعاونه مع أحد فقهاء الشافعیة: «کتب إلیّ بعضُ فقهاء الشافعیة، وکان بینی وبینه مؤانسة ومکاتبة: هل یقعُ الطلاق الثلاثُ عندکم؟ وما القول فی ذلک عند فقهاء أهل البیت؟ فأجبته ...».

لقـد عاش ابن‌إدریس فی مدینـة الحلّـة فیما کان مسـکن هـذا الفقیه الشافعی هو بغداد أو شـمال العراق، إلا أنّ بُعد المسافة لم یشـکل مانعاً من استفادة هذین الفقیهین من بعضهما، لیرجّحا المشترکات علی نقاط الخلاف.

۷- الشیخ منتجب الدین الرازی ومدیح الرافعی القزوینی

منتجب الـدین أحـد علماء القرن السادس، وقـد کتب تکملـةً علی فهرست الشـیخ الطوسـی، وفی الحقیقـة فقـد أکمل فهرست الشـیخ الطوسی شخصان فی وقتٍ واحد: منتجب الدین فی الری، وابن‌شهر آشوب فی بغداد أو دمشق.

یعـدّ الرافعی القزوینی- صاحب کتاب (التـدوین)- من المحـدّثین الرفیعین لأهل السـنّة، ومن مؤرخی القرن السادس، وقد لازم الشـیخ منتجب الـدین وظل فی خدمته فترة طویلة، وأخذ عنه الحدیث والعلم، ومن المناسب هنا أن نطالع مکانة هذا العالم الشـیعی علی لسان تلمیذه، إنه یعرّف أسـتاذه فی کتاب (التدوین) کما یلی: «شیخ ریّان من علم الحدیث سماعاً وضبطاً، یکتب ما یجد ویسمع ممن یجد، ویقلّ من یدانیه فی هذه الأعصار فی کثرة الجمع والسـماع والشـیوخ الذین سـمع منهم وأجاز لهم، وله کتاب الأربعین، وقد قرأته علیه بالریّ سنة ۵۸۴ ه-» (۹).

۸- فخر المحققین ومدیح صاحب القاموس

---

۱- انظر: علل الشرائع.۷

۲- الصدوق، کمال الدین: ۱۷۰.

۳- المنتظم ۱۵۷: ۱۵.

۴- رجال النجاشی، الرقم: ۱۰۶۷.

۵- الفهرست للشیخ الطوسی، الرقم: ۷۱۱.

۶- وفیات الأعیان ۳۱۳: ۳، الرقم: ۴۴۳، نقلًا عن ابن بسام.

۷- مقدّمة التبیان: ۷.

۸- سیر أعلام النبلاء، للذهبی ۳۳۴: ۱۸.

۹- التدوین فی أخبار قزوین ۳۷۲: ۳.

ص: ۱۴

فخر المحققين محمد بن الحسن بن يوسف، أحد فقهاء القرن الثامن الكبار، إنه ابن الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلّى، وقد كان هذا الولد عزيزاً ومحترماً جداً عند والده، لهذا كتب الوالدُ جملةً من مؤلفاته بناء على طلبٍ منه ورغبة، وفى آخر كتاب (قواعد الأحكام) سجّل وصيّته لولده وهى وصية تحوز على قدر عالٍ من الأهمية من الناحية الاجتماعية والأخلاقية.

هذا من جانب و من جانب آخر، يصنّف الفيروزآبادى، صاحب كتاب (القاموس المحيط) من الأدباء اللامعين فى القرن الثامن الهجرى، ويصنّف كتابه هذا مرجعاً لكتّاب القواميس اللغوية الذين جاؤوا بعده.

أجاز الفيروزآبادى لأحد تلامذته- المعروف باسم ابن‌الحلوانى- نقل كتاب (التكملة)، ويخبره بأنه أخذ هذا الكتاب عن أستاذه ورواه عنه، ذاكراً سنده لمؤلّف التكملة.

وفى هذه الحال، يصف الفيروزآبادى فخر المحققين بالقول: «بحر العلوم وطودُ العلى، فخر الدين محمد بن الشيخ الإمام الأعظم برهان علماء الأمم، جمال الدين أبى منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر بحقّ روايته عن والده».

هل هناك تبادلًا علمياً وتعاوناً معرفياً أكثر من هذا؟ وهل يمكن أن يكون هناك أوضح من هذا فى واقعية تقييم الآخرين؟

۹- الخواجه نصير الدين الطوسى ونجاة العلماء

نفذ المغول من المشرق إلى داخل البلاد الإسلامية، وشرعوا بحملتهم عام ۶۰۶ ه-، واحتلوا بغداد عام ۶۵۶ ه-، ومنذ بداية الحرب خربوا المدن والقرى التى مرّوا بها وارتكبوا فيها المجازر الجماعية، وعلى امتداد مسيرهم أبادوا مظاهر الحضارة الإسلامية، ولذا اختفى الكثير من العلماء والمفكرين ولجأوا إلى أماكن ونقاط بعيدة قاصية، وعندما وصل المغول إلى بغداد لم يرحموا الصغير ولا الكبير ولا السنى ولا الشيعى، ولم تمض أيام إلا وغرقت المنطقة فى مسلسل إعدامات واسع النطاق، ورموا بكتب علماء الإسلام فى نهر دجلة حتى غدا ماؤه أسود.

وفى هذه الفترة كان نصير الدين الطوسى أسيراً فى يد الإسماعيليين عند فتح قلعة أَلَموُتْ، وسقط أسيراً فى يد المغول، وحيث بلغهم علمه بالنجوم والرياضيات، وكانت هذه العلوم مرغوبة لدى هولاكو، حفظوه تحت أيديهم فى بغداد، وقدّموا له الاحترام، وقد تمكّن بخبرته ودرايته من دعوة الكثير من العلماء من أماكن اختبائهم، وأعاد بناء الحضارة الإسلامية بتأسيسه مرصداً فى مراغة.

لم يكن نصيرالدين يعرف فى العلاقات العلمية والفكرية سنياً ولا- شيعياً، لأنه كان لا يميّز بينهما، فقد أخذ العلم من أستاذٍ سنّى المذهب اسمه: كمال الدين بن موسى، كما تعلّم العديد من علماء أهل السنّة على يديه فبلغوا مكانةً مرموقة فى سماء المعرفة، ويكفينا أن نعرف أن قطب الدين الشيرازى، وشهاب الدين الكازرونى، وأبا الحسن على بن عمر الكاتبى القزوينى- مؤلّف كتاب الشمسية- من خريجى مدرسة الطوسى.

وقد حظى كتابه «تجريد الاعتقاد» باهتمام مختصّى علم الكلام الإسلامى، وبعد العلامة الحلى الذى يعدّ أوّل شارحٍ لهذا الكتاب، قام عدد من العلماء السنّة بشرحه أيضاً، مثل شمس الدين البيهقى، وشمس الدين الإصفهانى، وعلاء الدين القوشجى.

ويكتب ثالث هؤلاء الشراح فى مقدّمة شرحه يحدّثنا عن هذا الكتاب بشكل مثير للدهشة، مما يجدر بطلاب المعرفة والراغبين مراجعته، وهذه بعض كلماته.

يقول: «تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم وجيز النظم، لكنه كثير العلم، عظيم الاسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بمثله الفضلاء فى القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هى الأمهات، مشحون بتنبيهات على مباحث هى المهمات، مملوّ بالجواهر كلّها كالفصوص، ومحتوٍ على كلمات يجرى أكثرها مجرى النصوص، متضمّن لبيانات معجزة فى عبارات موجزة ...» (۱).

۱۰- العلامة الحلى ومختصر ابن‌الحاجب

یصنّف ابن‌الحاجب (۶۴۶ ه-) من أدباء القرن السابع ومن أصولیی عصره، وقد غدت ثلاثة من کتبه محاور للتدریس والشرح، وهی:

۱- الشافیة، فی الصرف.

۲- الکافیة، فی النحو.

۳- مختصر الأصول، فی علم أصول الفقه.

وقد شرح الکتابین الأولین رضی الدین الاسترآبادی، وکان شرحاه لامعین فی سماء اللغة والأدب، یقول جلال الدین السیوطی: بعد الرضی کل من جاء کان یعتاش علی فتاته.

أما الکتاب الثالث لابن‌الحاجب فقد ظل کتاباً دراسیاً فی الحوزات الشیعیة، وقد درّسه المغفور له المحقق الأردبیلی لتلمیذیه: صاحب المدارک، وصاحب المعالم، ووقع الکتاب موقع القبول والترغیب من جانب علماء أصول أهل السنّة، وتعدّت شروحاته الأربعین شرحاً. ومن الوسط الشیعی

---

۱- علاء الدین القوشجی، شرح التجرید: ۱.

ص: ۱۵

كانت للعلامة الحلى مساهمة علمية كريمة، فقد كتب شرحاً علمياً تحقيقياً عليه، يقول فيه ابن‌حجر: «فى غاية الحسن فى حلّ ألفاظه، وتقريب معانيه ...» (۱).

إلى هنا، نكون قد مررنا سريعاً على بعض جوانب التعاون العلمى بين الفريقين، حتى القرن السابع، وقد كان هذا التعاون على مستوى العلماء والمفكرين، رغم أنه على مستويات أخرى ثمة من أوقد نار الفتنة فأوجد المشكلات للعلماء أنفسهم.

ونكون بما عرضناه قد عرضنا جانباً من مشهد التعاون بين علماء السنّة والشيعة، إلا أن شرح حال هذه العلاقة المتبادلة فى القرون اللاحقة يطيل بنا المقام ويزيد فى الكلام، لهذا نصرف- فعلًا- النظر عنه؛ لنطلّ على هذا التعاون المعرفى بين الفريقين القرن الرابع عشر الهجرى، وبشكل موجز.

شرف الدين العاملى والشيخ سليم البشرى

من مظاهر التعاون على مستويات عالية بين الفريقين ... اللقاءات والحوارات العلمية بين زعيمين: شيعى وسنّى، فالمرحوم عبدالحسين شرف الدين العاملى (۱۲۹۰- ۱۳۷۷ ه-)، سافر إلى مصر أواخر عام ۱۳۲۹ ه-، وكانت رئاسة الأزهر فى ذلك الزمان بيد الشيخ سليم البشرى، وبعد تعارف وتذاكر خاص، قرّرا القيام بسلسلة من الحوارات المنتجة والأساسية، وذلك كى تتحدّد للزعيم السنّى مكانة الشيعة من وجهة نظر الكتاب والسنّة، وقد جمعت حصيلة الحوارات التى وقعت بين الزعيمين الدينيين فى ۱۱۰ مراجعة، ليقرّ الشيخ البشرى الجليل باتباع الإمامية لمذهب أهل البيت:، وهذه المكاتبات برمتها تشكل مادة كتاب (المراجعات).

دار التقريب ودورها فى تقارب المذاهب

وفى القرن الرابع عشر، برزت بشكل واضح مظاهر هذا التعاون، وفكّر الفريقان: السنى والشيعى منذ عام ۱۳۲۵ ه-/ ۱۹۴۶ م بمسألة التقريب، وهذا ما أبرز مقولة الانسجام الإسلامى، وكان أعمدة هذا المشروع كل من المرحوم آيةالله الشيخ محمدحسين كاشف الغطاء فى العراق (۱۲۹۴- ۱۳۷۳ ه-)، والمرحوم آيةالله البروجردى (۱۲۹۲- ۱۳۸۰ ه-) فى إيران، من الطرف الشيعى، وأما من الطرف السنى فكان الشيخ عبدالمجيد سليم، شيخ الأزهر، والشيخ محمود شلتوت، لقد رفع هؤلاء الأساطين فى المعرفة شعار التقريب، وكانوا من رجال الإصلاح، ودعوا عبر تأسيس «دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية» العلماء والكتّاب إلى التمسّك بالمشتركات، وقد كرر هؤلاء الرواد أنه ليس هدفهم توحيد المذاهب أو دمجها، وإنما التقريب بينها فى الرؤى ووجهات النظر، وقد أدى رجال العلم هؤلاء رسالتهم بإخلاص تام وخطوا خطوات كبيرة فى مجال التقريب، إلى أن طبع ونشر فى القاهرة كتاب «مجمع البيان» بتصحيح قليل النظير، وكذلك كتاب «المختصر النافع» للمحقق الحلى، حتى أن الكتاب الثانى قد نفد من الأسواق خلال شهرين.

لقد خطت دارالتقريب فى القاهرة خطوات كبيرة على طريق تقريب المذاهب من بعضها، كانت من إفرازاتها الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر فيما يخصّ الفقه الجعفرى، وأنّ هذا الفقه معتبرٌ ورسمى وشرعى كسائر المذاهب الفقهية.

وهذا هو نصّ الفتوى الشهيرة:

«قيل لفضيلته: إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم- لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح- أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مثلًا؟ فأجاب فضيلته:

۱- إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتّباع مذهب معين، بل يقول: إنّ لكل مسلم الحق فى أن يقلّد بادى ذى بدء أىّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلًا صحيحاً والمدوّنة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره- أىّ مذهب كان- ولا حرج عليه فى شىء من ذلك.

۲- إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة.

فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، ويجوز لمن ليس أهلًا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّرونه فى فقههم، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات» (۲).

وقام المغفور له آية الله البروجردى، بطبع كتاب (الخلاف) للشيخ الطوسى، وأثبت عبر ذلك أنّ ۹۹ من المسائل الفقهية يوافق فيها الرأى الشيعى رأى أحد المذاهب الفقهية السنّية، وليست سوى مسائل معدودة تلك التى تفرّد الشيعة بها، تماماً كما هو الحال فى كل مذهب حيث له متفرّداته.

وما زلت أذكر عندما وردت إلى مدينة قم هيئة من علماء مصر، أذعنوا بأن ما نقله الشيخ الطوسى فى هذا الكتاب عن علماء المذاهب كان صحيحاً تماماً.

ومن النتائج ذات البركة التى أفرزتها دارالتقريب أن الفقه الشيعى أثرّ فى وضع بعض القوانين فى مصر ممّا يرجع إلى الأحوال الشخصية، كما أثر فى الآراء الفقهية لبعض المفتين، كما هو الحال فى المسائل التالية:

---

۱- الدرر الكامنة ۷۱: ۲.

۲- مجلّة رسالة الإسلام، السنة الحادية عشرة، العدد الثالث.

ص: ۱۶

۱- إن الطلاق المتعدد فى مجلس واحد ولو بلغ الثلاث يكون فى حكم طلاق واحد.

۲- عدم صحّة الطلاق الذى يقع فى طهر قارب الزوج زوجته فيه، كما أن الطلاق فى حال الحيض غيرصحيح.

۳- لزوم وجود شاهدين عند إجراء صيغة الطلاق.

نعم، من الممكن أن تكون السياسات اللاحقة قد تلاعبت فى هذه القوانين فأخرجتها عن حالتها السابقة.

وفى الوقت الذى كان فيه المرحوم آيةالله البروجردى يمسك بزعامة الشيعة كان الشيخ عبدالمجيد سليم رئيساً للأزهر، وعندما اطلع الأخير على مرض البروجردى أرسل إليه رسالة مليئة بالأدب ممهورةً بالإخلاص والصدق، وهذا نصّ ما جاء فى هذه الرسالة:

حضرة صاحب السماحة آية الله الحاج آقا حسين بروجردى:

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد: فقد بلغنا- عن طريق المذياع- أن صحتكم الغالية قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلك أشد الأسف لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخلاص للحق، وإنا لنسأل الله جلت قدرته أن يعجل بشفائكم، ويلبسكم لباس العافية، حتّى تتمكنوا من العود الحميد إلى نشاطكم المعهود فى خدمة الإسلام والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا أيضاً فى هذه الفترة مريضاً معتكفاً فى بيتى أحمل همّين ممّضين: همّ نفسى وهمّ قومى، وأطيل التفكير خالياً فى حال أمتنا العزيزة، فيأخذنى من القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو أن تسألوا الله لى العافية كما أسأله لكم، والله يتولانا جميعاً برحمته.

إن الأمة الإسلامية الآن أحوج ما تكون إلى رجال صادقى العزم، راجحى الوزن، يجاهدون فى الله حق جهاده، ليدرءوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألبت قوى الشر، وتجمعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون فى كل قطر من أقطارهم زلزالًا شديداً، وكأن قد أتى الزمان الذى أنبأ الصادق الأمين:- صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه- أن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، وإنما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية أو حصون منيعة ألقاها الله فى الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة أو جهالة، أو كنجوم ثاقبة فى ليل داج، ترشد السارين، وتهدى الحائرين. فادع الله معى أن يحفظ هؤلاء ويكثر فى الأمة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيد بهم الحق والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين، إنّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

۱۴ من شعبان سنة ۱۳۷۰ ه-

وقد تأثر صاحب السماحة العلامة الأكبر بهذا الكتاب الذى يدل على ما تنطوى عليه نفس فضيلة الأُستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وكبير علماء السنة من عواطف كريمة نحو إخوانه المؤمنين، وحرصٍ على نهوض الأُمة الإسلامية نهضة تعيد إليها سابق مجدها وعزها، فأجاب بهذا الكتاب:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر- دامت إفاضاته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد- قد بلغنا كتابكم الكريم الحاوى للعواطف الإسلامية السامية، يحكى لنا أنّه لما بلغكم عن طريق المذياع أن صحة هذا العبد قد ألمَّ بها طارىء من المرض، أسفتم لذلك، ودعوتم الله تعالى أن يعيد له الصحة.

فأشكركم على ذلك، وأسأل الله تعالى أن يبدّل التعارف والتعاطف بين المسلمين، مما كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع، إنّه على ما يشاء قدير.

ويحكى كتابكم أيضاً، أنّه قد ألم بصحتكم الغالية طارىء من المرض، كما ألم بى، فاعتكفتم فى البيت حاملين لهمين ممضين: همّ نفسكم، وهمّ قومكم، وأن إطالة التفكير فى حالة الأمة، توجب لكم من القلق والحزن، ما الله به عليم.

هكذا ينبغى أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت بالمسلمين زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عز سلطانه، أن يلبسكم لباس العافية، ويوفقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة فى مثل هذا الزمان، من أمثال جنابكم الذى وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادى المفسدين والملحدين عنها. إنّه قريب مجيب.

إنّ هنا أموراً كنت أحب إبداءها لكم، لكن حالى لا تساعدنى على ذلك.

والسلام عليكم وعلى من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

ص: ۱۷

۱۷ من رمضان سنة ۱۳۷۰ ه-

رسالة العلامة الآلوسى إلى الشيخ الزنجانى

إنّ السيد محمود الآلوسى هو أحد أعلام عصره فى بغداد وهو حفيد مؤلّف «روح المعانى» فى تفسير القرآن الكريم، وقد كتب رسالة إلى العلامة الشيخ أبى عبدالله الزنجانى مؤلف «تاريخ القرآن الكريم» المطبوع بمصر، والذى قدّم له الدكتور أحمد أمين. وهذه الرسالة تعرب عن مدى العلقة الأخوية بين العلمين فى عصرهما، وإليك نصّ الرسالة.

إلى فخر العلماء وعمدة الفضلاء حضرة الشيخ أبى عبدالله الزنجانى

أمدّه الله بفيض لطفه الربّانى

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد فقد شرّفنا كتابكم، وسرّنا خطابُكم، وحمدنا الله على بشرى سلامتكم وكمال صحتكم، لازلتم كذلك على الدوام موفورى الآلاء والانعام، وقد ابهجنى ما أخبرتم عنه من فحصكم عن كتاب النبات، ووعدكم بتبشيرنا بالعثور عليه، حقق الله تعالى ذلك بمساعيكم المشكورة وهممكم المذكورة.

وقد سرنى أيضاً ما تفضلتم به من أسماء نوادر الكتب والمصنفات السلفية التى هى من تحف الزمان ونوادره وفى الحقيقة أنّه لا غنى لطلاب العلم عن جميعها غير أنّها مما لا يلقاها إلّا ذو حظ عظيم ونحن نكتفى منها إذا أمكن باستكتاب مقاييس اللغة فقط بواسطة كاتب مجيد على شرط أن نقدم ما يصرف عليه من الأجرة وإن كان فى ذلك كلفة على ذلك الجناب وإتعاب لفكركم.

وأمّا ما أخبرتم به أنّكم بذلتم السعى لإلقاء محاضرات فى شؤون القرآن العظيم وإنكار التحريف، فجزاكم الله عن ذلك خير الجزاء وأمدّكم بالتوفيقات الإلهية عسى أن يكون فى مجاهدتكم هذه جبران لما تركه كتاب «فصل الخطاب» فإنّه أضحى مدار مطاعن أعداء الإسلام من البروتستان وغيرهم، فإنّ جمعيتهم التى فى مصر نشرت كتاباً فى المطاعن مستندة إليه، وسمعت أنّ بعض أفاضل النجف ردّ عليه أيضاً.

وكتاب الجمعية المصرية قد ردّ عليه بعض أفاضل مصر بكتاب سمّاه «تنزيه القرآن الرشيف عن التغيير والتحريف» وقد عثرت على نسخة منه، وها هى مقدّمة إليكم صحبة الكتاب مع الفائدة السادسة من الفوائد التى فى مقدمة تفسير روح المعانى، ورأيت المجلد الثانى من كتاب تاريخ أدب العرب لأبى السامى مصطفى صادق الرافعى، مشتملًا على شؤون القرآن من أوّله إلى آخره، والكتاب مطبوع فى مصر يمكنكم أن تستجلبوا منه نسخة فإنّ نسخه التى وردت إلى بغداد نفدت، ولو كنت عثرت على نسخة منه لاشتريتها وقدّمتها إليكم وهو ممّا يلزم احضاره بين يديكم.

وأختم الكلام بتقديم وافر الاحترام، وعليكم منا التحيّة والسلام.

۶ جمادى الآخرة سنة ۱۳۴۱

محمود شكرى الآلوسى

وبهذا نكون قد أطللنا إطلالة سريعة وواضحة على تعاون زعماء الطائفتين، وهو ما يمكنه أن يشكّل أنموذجاً واضحاً لما أشرنا إليه، ويستطيع الباحث أن يعثر على الكثير من النماذج الأخرى.

إلا أن الشىء الذى نئنّ منه اليوم هو ذاك النوع من الإفراط المسمى بالسلفية، والذى تجلّى فى «الوهابية»، وهو اتجاه خدش صورة السلف من جهة وعذّب الخلف من الناحية الأخرى.

السلفية الوهابية

رسم أحمد بن تيمية فى القرن الثامن الإسلامى مدرسةً فى أرض العلم والمعرفة، أرض الشام، كانت نتيجتها تقليص مقامات الأنبياء

والأولياء، وإفناء الآثار الباقيـة عن المسـلمين السابقين، وقد دفنت هذه المدرسة بموت مؤسّسـها عام (۷۲۸ ه-) فی مسـقط رأسه، حيث شنّ علماء الشام ومصـر الكبار من الـذين كانوا يتمتعون بمكانـة رفيعة فی الحديث والكلام والتفسـير ... شـنّوا عليه هجوماً نقدياً جاداً، ووقف الجميع على اشتباهاته وأخطائه.

لكن، ومرةً أخرى، جدّدت هذه المدرسة بعد عدة قرون، عام ۱۱۶۰ ه- على يد محمد بن عبدالوهاب، وتمكنت من بسط نفوذها على قطرٍ معين من أقطار المسـلمين، والسـرّ فی هذا الأمر حرمان مسـقط رأسه عن حواضـر العلم والمعرفة، فقد كان سـكان منطقته من أبناء الصحراء وأهل البادية، لذا وقعوا فی خداع كلماته التی كانت تبدو فی ظاهرها جميلة رشيقة، فأعلنوه حاملًا للواء التوحيد.

فی هذه الأثناء، كتبت ضدّه ردود مفصّـلة فی بلاد نجد والحجاز وسوريا والعراق، وقلّصت من نفوذه وتناميه، لكن مدرسـته اسـتطاعت بعـد الحرب العالميـة الأولی- بالتعاون والاتفاق مع الامبرياليـة العالميـة- أن تطيـح بحكومة الأشـراف فی مكة والمدينة، وهی حكومة اسـتمرّت قرابـة الألف عام، ليتسـلط أنصاره على الحرمين الشـريفين، وفی هذه الفترة شـهدت سياسـته صـعوداً وهبوطاً، فكانوا يظهرون الرفق والعاطفة حيناً وأخرى يردون الميدان بالخشونة والعنف.

ص: ۱۸

وفی السنتین الأخیرتین، بلغت خشونة الوهابیة حدّها الأعلی، فأهانت الزوار، فحوّلت المقبرة التی یفترض بها أن تکون محیطاً هادئاً لقراءة الفاتحة والقرآن وزیارة أولیاء الله الإلهیین وأنصار رسول الله ۹ وأصحابه، إلی مرکز للدعوة إلی الوهابیة، دعوة من طرف واحد بحیث لو أجاب أحد أو ناقش یجازی ویعتقل ویضرب ویشتم، أفهل یتّبع هؤلاء السلفَ وسیرتهم؟! حاشا أن یکون السلف کذلک؟ فأحمد بن حنبل (۱۸۶ - ۲۴۱ ه-) غسل قمیص الشافعی (۲۰۴ ه-) عندما مات وأخذ یتبرّک بمائه، أفهل یتبرّک إمامهم بقمیص الشافعی وهم لا یتبرکون بضریح النبی ۹ بل یرون ذلک ممنوعاً ومحظوراً؟!

إن زوّار بیت‌الله یدخلون السعودیة بتأشیرة دخول رسمیة ویفترض أن یکونوا محل احترام الدولة الحاکمة، إلا أن أغلب هؤلاء الزوار یخشون علی أنفسهم وأموالهم، ویقومون بالواجبات والمستحبات بقلق واضطراب وخوف، بل یتعرّض أکثرهم لإهانة رجال الشرطة الدینیة.

إن الحرمین الشریفین حرم آمن لله تعالی، فکل الطوائف الإسلامیة من حقها أن تقوم بأعمالها فی حریةٍ تامة فی الوقت عینه الذی تکون فیه الأمور التنظیمیة والإداریة بید الدولة. فالنظم والانضباط مسألة، وإرغام الجمیع علی اتباع مذهبٍ واحد ظهر فی القرن الثامن الهجری، واتهام الناس- عبر ذلک- بالکفر والشرک .. ذلک کلّه أمرٌ آخر.

إن أعمال العنف التی یقوم بها هذا الفریق سبّبت عرض الإسلام فی الغرب بشکل دین العنف، وأعاق مجال التبلیغ لدی الطبقة الشابة عند هؤلاء أنفسهم.

من الجید أن تستفید هذه الشریحة من الملک السعودی الثانی (سعود بن عبدالعزیز)، ذلک أنه استضیف فی إیران عام ۱۳۳۴، وقد أهدی- احتراماً- عدة نسخ من القرآن الکریم وبعض القطع من ستائر الکعبة، وعدد آخر من الهدایا عبر السید یوسف أبوعلی للسید آیةالله البروجردی. وقد قبل السید البروجردی القرآن وقطعة ستار الکعبة وأهدی بقیة الهدایا إلی حاملها له، وقد کتب رسالة أشار فیها: الیوم والحج فی ید جناب الملک أرسل إلیکم حدیثاً حول حج رسول الله، ونقله البخاری فی صحیحه وأبو داوود فی سننه، فاسعوا أن یطابق الحج مفادَ هذه الروایة (۱).

من المؤسف جداً أن تباد بالجرافات تمام الآثار الإسلامیة التی هی علائم علی أصالتنا وجذورنا، عبر حدیث واحد لایدل أبداً علی مقصودهم، والیوم غدت مکة والمدینة مدینتان غربیّتان لا مظاهر تعرّف بهما مدینتان شرقیتان، أما ذاک الحدیث وکیف دلّ علی مقصودهم فنوضح أمره باختصار، حیث روی مسلم فی صحیحه عن أبی الهیاج الأسدی عن علی ۷ أنه قال له: «ألا أبعثک علی ما بعثنی علیه رسول الله ۹: أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّیته» (۲).

لا نتحدّث فعلًا عن سند هذا الحدیث، حیث لا یخلو بعض رواته من الإشکال والخدشة؛ إنما المهم هو إیضاح مدلوله، ولا بد من التذکیر أن فعل «سوّی» فعلٌ متعدٍّ، ویتطلّب مفعولًا واحداً فقط، تماماً کما فی قوله تعالی: (فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ) (۳). إلا أنها قد تأخذ أحیاناً مفعولین اثنین، فتحتاج فی هذه الحال إلی حرف جر، تماماً کما یقول تعالی: (إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ) (۴)، وکلّما أخذت مفعولًا واحداً تکون التسویة صفة لذلک الشیء، تماماً کما جاء فی الآیة بمعنی: عندما أکمل خلق الإنسان، لکن عندما تأخذ مفعولین وینال المفعول الثانی حرف الجر، فلا تکون التسویة صفةً للشیء نفسه، بل صفةً قیاساً وإضافةً إلی شیء آخر، تماماً کما جاء فی الآیة الثانیة: إننا نعدّکم- أیّتها الأصنام- شیئاً واحداً مع الله.

وانطلاقاً من هذا المبدأ لابد أن نری أن فعل «سوّیت» فی الحدیث له مفعول واحد أم مفعولان؟ الوارد فی تعبیر الإمام علی ۷- علی تقدیر صحة الحدیث-: «ولا قبراً مشرفاً إلا سویّته»، وفی هذه الحال تکون التسویة صفة للقبر نفسه، لا صفةً له بالنسبة إلی شیء آخر، وإذا کانت صفةً للقبر نفسه فالمقصود منها جعل القبر مسطحاً غیر مسنّم، وإلا فإذا کان المراد تخریب القبور کان لا بد من مفعول ثانٍ بحرف الجر، إذ یقول: «إلا سویته بالأرض».

والنتيجة أنه لابد فى متن الحديث من إعمال الدقة لمعرفة هل هذه التسوية صفة للقبر نفسه أو صفة له بالنسبة إلى شىء آخر؟ ونص الحديث يعطى شهادة على كون التسوية صفةً للقبر نفسه، بمعنى إخراج القبر من حالة الإعوجاج وعدم الانتظام أو التسنيم أو الانحناء، لا أن المراد تخريب القبر وتسويته بالأرض.

كيف يمكن أن يكون المعنى الثانى صحيحاً والحال أن تمام فقهاء الإسلام يفتون باستحباب أن يرتفع القبر عن الأرض بمقدار أربعة أصابع؟! ومن حسن الحظ أن شرّاح صحيح مسلم فسروا الحديث المذكور بالمعنى الذى ذكرناه (۵).

إننا نصرف النظر عن تمام هذه الأمور ونفترض تماميةَ دلالةَ الحديث إلا أنه يقول: سوّوا القبور بالأرض، لكنه لا يتحدّث عن حرمة البناء على القبر ورفع القباب عليه وتدمير الصروح المشادة عليه، فبورك هذا الاجتهاد الذى لا يقوم لا على كتاب ولا على حديث ولا على اتفاق العلماء!!

وأوضح شاهد على جواز البناء على القبور هو قبر الرسول الأكرم ۹، فمنذ اليوم الأول دفن ۹ فى بيته، وللبيت بناء، وقد حفظ هذا البناء عبر القرون كلّها إلى يومنا هذا.

حفظ الأصالة

إن حفظ التراث والأصالة من الوظائف الإسلامية الملقاة على عاتقنا، والمقصود منها الأشياء التى تحكى عن واقع الإسلام واستمراره عبر العصور. فالدين الإسلامى دينٌ عالمى، وسيظل إلى يوم القيامة أكمل الأديان السماوية، حيث من الممكن أن تفصلنا عن القيامة آلاف السنين، فنحن ملزمون بحفظ ما يدلّ على أصالة الإسلام من غدر الزمان وتخريبه، لنحفظه سالماً إلى الأجيال اللاحقة.

---

۱- رسالة الإسلام، السنة الثامنة، العدد الأول.

۲- صحيح مسلم ۶۱: ۳، كتاب الجنائز؛ وسنن الترمذى ۲۵۶: ۲، باب ما جاء فى تسوية القبور؛ و سنن النسائى ۸۸: ۴، باب تسوية القبر.

۳- الحجر: ۲۹.

۴- الشعراء: ۹۸.

۵- شرح النووى على صحيح مسلم ۳۶: ۷، الطبعة الثالثة، طبعة دار إحياء التراث العربى.

ص: ۱۹

إن وجود المسيح وديانته أمرٌ قطعى اليوم عند المسلمين وفى نظرهم، إلا أن ذلك بدأت تغلب عليه الحالة الأسطورية فى رؤية الشباب الغربى، إذ لا يوجد أثر ملموس للمسيح ۷ بين أيديهم، فكتابه طالته التحريفات، ولم يبق لديهم شىء عنه ولا من أثر لأمه ولا لحواريّيه، لهذا يقلص مرور الزمان من قطعية هذا الدين ويذره فى هالة من الإبهام والترديد. وهكذا فإن وجود الآثار والمآثر الإسلامية التى منها مرقد النبى ۹ حاكية عن واقعية وجوده وأصالة مدرسته، كما أن تدمير الآثار يعرّض أصالة الإسلام واعتباره وقادته وأئمته لخطر الضياع أيضاً.

من هنا، ولكى يحول المسلمون دون هذا الخطر الكبير، لابد لهم من حفظ كل الآثار المتصلة بالرسالة، والتذكير بها دوماً، كما يجب عليهم زيارة مراقد هؤلاء المعصومين حفاظاً عليها من الفناء التدريجى، وفى هذه الحال لا يمكن التغاضى عن هذه المزية الكبيرة، وإقفال باب اللقاء الروحى والمعنوى مع هؤلاء العظماء أمام المسلمين.

نعم، الحديث عن موضوع هدم الآثار كبير وطويل، لكننا نكتفى بهذا المختصر ونحيل التفصيل إلى فرصةٍ أخرى.

ص: ۲۰

ص: ۲۱

## تجليات الأمّة الواحدة فى مشاهد الحج

الشيخ محمّدمهدى الآصفى

واحـد من أعظم منافع الحج لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (الحج: ۲۸) ولا نعرف مشهداً للأمّة الواحدة أعظم وأروع من مشاهد الحج.

هنالك يشهد المسلم الأمة الواحدة بكل تجلياتها.

من إسقاط الفوارق وملأ الفواصل والفجوات والوقوف جميعاً فى موقف واحد وفى وقت واحد.

وهذه المشاهد التى تكرر كلّ سـنة ويحضـرها نخبة من المسـلمين من كلّ فجّ عميق ... تعتبر أفضل تجسـيد للأمة الواحدة، التى تضـيع أحياناً وتختفى بسبب تراكم الخلافات المذهبية والوطنية.

وأوّل ما يتجلّى هـذا المشـهد التوحيـدى والوحـدوى العظيم فى (الميقات) حيث ينتزعهم الميقات من أزيائهم الوطنيـة ويلبسـهم لباسـاً موحـداً فى غايـة البساطـة، وبعيـداً عن مظـاهر الترف، ثمّ يوحّـد الميقـات خطـابهم الربانى: «لبّيك اللهم لبّيك، لبيك لا شـريك لك لبّيك». وهذا هو الخطاب التوحيدى والوحدوى الذى يرفعه الحجاج جميعاً فى الميقات ...

ص: ۲۲

يوحّد الميقات خطابهم الذى هو جوهر هذه العبادة وهى (التوحيد) ويوحّد مظهرهم، وينتزعهم من حالة التشتت فى الخطاب، وتمايز المظاهر والأزياء، فيكون مثل الميقات مثل جداول متمايزة من أقاليم شتى، تدخل فى الميقات على شكل نهر عظيم من الحجاج، يقبلون على الله بمظهر واحد وخطاب واحد وغاية واحدة حتّى يَصُبّ هذا النهر فى بحر عظيم من البشر بجوار بيت الله الحرام لا تكاد تميز فيه العراقى عن اليمانى واليمانى عن الحاج الجزائرى والحاج الجزائرى عن الإيرانى والتركى.

ثم يأتى دور الكعبة الشريفة فى توحيد هذه الأمة وإخراجها إخراجاً واحداً.

وللكعبة المعظمة دوران فى توحيد هذه الأمة: (القبلة والطواف)، وكلّ واحد من هذين الدورين يوحّد وجهة هذه الأمة العظيمة، المتفرقة فى بلاد شتّى من القارّات الخمس.

(القبلة) توحّد جهة حركة المسلمين فى كلّ مناطق الأرض (الطواف)، يوحّد حركة الحجّاج إلى الله حول الكعبة، وكأنّ الطواف حول الكعبة يرمز إلى حركة التوحيد فى التاريخ والمجتمع حول مركز واحد منه يتحرك الإنسان وينطلق فى آفاق الحياة، وإليه يعود مرة أخرى إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ وتبقى هذه النقطة هى مركز كلّ نشاط الإنسان وحركاته وخطابه ومواقفه وجهده فى الحياة قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَ نُسُكِى وَ مَحْيايَ وَ مَماتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. ليس فقط فى صلاته ونسكه، وإنّما فى محياه ومماته أيضاً ...

والأثر الآخر للطواف توحيد مسيرة الحجاج فى هذه الدائرة التوحيدية الكبرى ... كل من الحجاج يأخذ نفس المسير وينطلق من الحجر الأسود كرمه الله، وينتهى إليه فى حركة منظمة رائعة، من أروع مشاهد توحيد الأمّة الواحدة فى مسار الحركة إلى الله.

ثم ينطلق الحاج من الطواف إلى السعى فى حركة مستقيمة واحدة غادياً ورائحاً من الصفا إلى المروة، وبالعكس.

وهكذا تتصل تجليات الأمة الواحدة فى مشاهد الحج الكبرى من الميقات إلى الطواف، ومن الطواف إلى السعى، ومن البيت الحرام إلى عرفة حيث يجتمع ملايين المسلمين فى وادى عرفة، توحدهم عرفة، وتوجههم إلى الله تعالى بالدعاء والصلاة، وتصفيهم من كلّ ذنوبهم، بلا استثناء إلا الشرك والقتل وحقوق الناس، والبدعة فى دين الله فإنّها لا تغتفر.

ويفيض الحجاج من عرفة إلى المشعر الحرام وقد تركوا وراءهم ركام ذنوبهم ومعاصيهم فى هذا الوادى الشريف.

ثم مشهد المشعر الحرام ومشاهد رمى الجمرات فى وادى منى، وهو يرمز إلى جهد جمعى من جانب الحجاج كلهم لإقصاء الشيطان عن حياتهم ورجمه وإبعاده منهم.

ثمّ يأتى فى نهاية هذه الجولة الصعبة من الميقات إلى منى العيد الأكبر الذى يحتفل به الحجاج جميعاً فى منى وفى رحاب بيت الله، وهو عيد الأضحى المبارك.

يوحّد فرحتهم بنجاحهم فى إقامة هذه الفريضة الصعبة فى هذا البلد القفر الذى اختاره الله لبيته الحرام.

إن أبرز شىء فى الحركة العظيمة من الميقات إلى منى أمران: (توحيد) الله تعالى بالعبادة و (توحيد) حركة الأمة على خط توحيد الله.

ولا يحسّ الإنسان بهذه الأمة المباركة العظيمة، كما يحسّ بها فى مشاهد الحج العظيمة، وكما يوحّد الحج خطاب هذه الأمة وحركتها ومظهرها ومضمونها، كذلك يوحّد جهد هذه الأمة فى مكافحة العوامل المعيقة لوحدة الأمة، والفتن الطائفية التى تجعل من هذه الأمة الواحدة، أمماً شتى متقاطعة ومتنافرة، على خلاف ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين.

الإضاءات الثلاث فى طريق وحدة الأمة

إن مكافحة الفتن الطائفية والسعى إلى التقريب والتفاهم والتضامن والتعاون بين المسلمين من ثوابتنا السياسية والحضارية والاقتصادية.

وتدخل فى تكوين الأمة الإسلامية الواحدة. ومن دونها لا تتحقّق الأمة الواحدة التى جعلها الله أمة وسطاً، وشاهدة على سائر الأمم.

ويتوقف عليها انتصارنا فى المعترك السياسى والحضارى والثقافى والعسكرى ومن دونها لا يتحقق النصر الذى نسعى إليه فى مسيرتنا السياسية والثقافية.

وتتوقف عليها حركتنا الثقافية والعلمية .. فإن التقاطع الطائفى والعزلة والانكفاء على الذات يؤدى بالضرورة إلى الضمور الثقافى والعلمى، وبعكس ذلك التواصل واللقاء والحوار الإيجابى يؤدى إلى التكامل العلمى والثقافى فى حوزاتنا وجامعاتنا العلمية.

إنّ هناك ثلاث قضايا رئيسية، لابد فيها من الوعى والوضوح:

ولابد من السعى لنشر وعى سياسى- ثقافى، تجاه هذه النقاط فى أوساط الجمهور.

وهذه النقاط هى:

ص: ۲۳

۱- وعى الأمة الواحدة.

۲- الصراع الحضارى الذى تخوضه هذه الأمة.

۳- وعى ضرورة الترافد الثقافى والعلمى فى حياة هذه الأمة.

واليك إيضاحاً سريعاً لهذه النقاط الثلاث:

۱- الأمة الواحدة

هذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى.

وقد ورد هذا المعنى بصراحة فى آيتين من القرآن يقول تعالى:

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۱).

وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۲).

وليس معنى وحدة الأمة التطابق الكامل فى الرأى والاجتهاد، فإن ذلك مما لا يكون .. وإنما معنى ذلك الاتفاق والتفاهم على الأصول والانسجام والتفاهم والتعاون على المواقف السياسية، وتوحيد الولاء والبراءة والطاعة والنصرة.

۲- الصراع الحضارى

سواءًا أردنا أم لم نرد، نحن ندخل اليوم فى صراع حضارى عسير ... والمواجهة العسكرية شكل من أشكال التعبير عن هذا الصراع.

وهذا الصراع صراع شرس .. وخصومنا فى هذا الصراع جبهة واحدة، مهما تعددت توجهاتهم.

وليس من الصدفة أن تتفق أمريكا والاتحاد الأوروبى على دعم إسرائيل فى كل أعمالها العدوانية تجاه المسلمين، وأن تقف إلى جانبها من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلى المسلمين وعلاقاتها الاقتصادية الواسعة بالعالم الإسلامى.

نحن نواجه اليوم صراعاً حضارياً، سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً، من أشرس ما يكون الصراع، وإذا خسرنا الحرب فى هذه المعركة المصيرية، فسوف نعود مرة أخرى إلى دورة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب التى طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم.

والانتصار والهزيمة فى هذا الصراع- فى كل أبعاده- قضية مصيرية فى حضارتنا وتاريخنا. ولا نشك أننا نكسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمة واحدة، وصفاً واحداً، وموقفاً واحداً، وذلك أن يد الله تعالى مع الجماعة وعلى الجماعة، وإذا كانت يد الله معنا فلا يتخطانا النصر بإذن الله.

ولا نشك أنّا إذا واجهنا خصومنا مقتسمين على أنفسنا، متقاطعين فى مواقفنا وإرادتنا، متخالفين فى توجهاتنا، فلا نكسب هذا المعترك الحضارى الصعب.

۳- الترافد الثقافى

الترافد الثقافى من نتائج التقريب بين المذاهب الإسلامية ومن عوامله فى نفس الوقت ...

وقد كان علماء المسلمين وطلبة العلم يتوافدون على مدارس فقهية من مذاهب واتجاهات مختلفة، وكانوا يتبادلون الإجازات فى رواية الحديث. فكان طلبة العلم من العراق- ومعظمهم من الشيعة- يفدون إلى الحجاز ومصر والشام ومعظمهم من أهل السُنة، وكان يفد إلى العراق، على مدرسة الحلة، وهى حوزة شيعية عريقة طلبة من الحجاز ومصر والشام والمغرب العربى للدراسة، كما كان لعلماء المسلمين زيارات للأقاليم الإسلامية وكان طلبة العلوم الدينية يلتمسون منهم أن يلقوا عليهم دروساً فى الفقه والأصولَين: (أصول الفقه وأصول العقائد).

واليوم تحتضن الحوزة العلمية فى قم، وهى حوزة علمية عريقة تابعة لمدرسة أهل البيت طلبة العلوم الدينية من أكثر من مائة قطر فى

العالم من القارات الخمس، وجملة من هؤلاء الطلبة الوافدين إلى هذه الجامعة من أهل السنّة، ولا يجدون حرجاً فى الدراسة فى حوزة شيعية، كما لا تجد هذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبة من المدارس والاتجاهات الفقهية الأخرى، وتجرى دراسة فقه المذاهب الإسلامية الأربعة فى هذه الحوزة كما تجرى دراسة الفقه الإمامى.

ولهذا الترافد الثقافى والعلمى أثر بالغ فى التكامل العلمى والثقافى فى المراكز العلمية الإسلامية.

---

۱- الأنبياء: ۹۲.

۲- المؤمنون: ۵۲.

ص: ۲۴

فإن الجهود العلميـة والثقافيـة المختلفـة عنـدما تلتقى مع بعض على صـعيد موضوعى علمى، غير متشـنّج، يكون هذا اللقاء سـبباً للإثراء والتكامل العلمى والثقافى لكل من هـذه الروافـد العلميـة والثقافيـة. ويؤدى هـذا الترافد إلى التقارب والتعارف بين المذاهب المختلفة، كما أن التقارب والتعارف بين هذه المذاهب يؤدى بالضرورة إلى الترافد العلمى والثقافى.

إن ظاهرة الترافـد تؤدى إلى مكافحة وإبطال الفتن الطائفية .. والعكس أيضاً صـحيح، فإن الفتن الطائفية تقلل من فرص الترافد الثقافى، وتحوّل الثقافة والعلم إلى دوائر مغلقة غير مترابطة، وهذه الحالة من أسباب ضمور العلم والمعرفة دائماً.

وعلى كل حال، ظاهرة الترافـد الثقافى ظاهرة مباركـة فى حياة هـذه الأمـة يجب أن نسـتعيدها ونجـدّدها ونشـجعها وندعمها، وهى من أفضل وسائل علاج الفتنة.

وفيما يلى سوف نتحدث إن شاء الله عن أبرز النقاط التى تساهم فى علاج الفتنة الطائفية وإخمادها. وهذه النقاط الثلاث هى:

۱- الوعى والخطاب.

۲- اللقاء والحوار.

۳- العمل المشترك.

وإليك تفصيل هذه النقاط:

أولًا: الوعى والخطاب

الفتنـة الطائفية، كأية فتنة أخرى، تنشأ وتنمو فى غياهب الجهل والجهالة .. والفتن فى حياة الناس كثيرة، وكلها تتكون وتظهر وتنمو فى ظلمات الجهل.

وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هو المعرفة والوعى، فإن النور يكسح الظلمة، والمعرفة والوعى نور يزيل ما يعترضه من الظلمات، والفتن تراكم من الظلمات بعضها فوق بعض.

الوعى والتقوى

إن تحصـين المجتمع من الفتن يتم بعـاملين اثنين مع بعض، وهمـا: عامـل التقوى والمعرفـة، فـإذا اجتمعتا فإنهما يحصّنان المجتمع من أمثال هذه الفتن.

ومهما واجهنا فتنـة من هـذه الفتن التى تمحق دين الناس، وتثير الشـغب والفوضـى، وتحرق الأخضـر واليابس فلابد أن يكون من وراء هذه الفتنة عجز فى (التقوى) أو (الوعى) أو فيهما معاً.

فهما يحصّنان المجتمع من كل فتنة، ويمنحان صاحبهما بصيرة وفرقاناً، إذا ادلهمت الخطوب والظلمات على الناس.

الوعى السياسى

ومن أهم وجوه الوعى اليوم الوعى السياسـى، فـإن عامل الاسـتكبار العالمى والمخابرات والمنظمات الجاسوسـية العالميـة تكمن خلف هذه الفتن.

والمؤسـسات الإعلاميـة (الصـحف والفضائيـات ودور النشـر) تبـثّ هـذه الفتـن بين النـاس، وتقـوم بتأجيـج حرائـق الفتنـة الطائفيـة بين المسلمين.

وتجـد أنظمـة الاسـتكبار العالمى فى هذه الفتن الطائفية فرصة ذهبية لبسط نفوذها فى العالم الإسـلامى، وتمكّنها من أسواق المسـلمين ومصادر الثروة النفطية والمعدنية والمائية والزراعية فى العالم الإسلامى ... وسوف نبسط الحديث فى هذا الجانب إن شاء الله.

والأداة المفضّلة لمواجهـة هـذه الفتن هى الوعى السياسـى الـذى يمكّن الناس من معرفـة خلفيات هـذه الفتن وجـذورها، والمنظمات الجاسوسية التى تخطط لها هناك فى الغرب عبر المحيطات.

ومن واجب العلماء والخطباء والمثقفين الإسلاميين نشر الوعى السياسى بين الناس، وتمكين الناس من اختراق الغطاء الإعلامى وتمكينهم من الدرك الصحيح لما يحصل فى الساحة العالمية من فنون اللعبة السياسية، وتحذير الناس من أن يكونوا ضحايا هذه اللعب والخطط التى تنتجها باستمرار العقلية الغربية تجاه العالم الإسلامى.

وعى الجمهور

ص: ۲۵

ولست أعنى ب- (الوعى السياسى) هنا وعى النخبة، ولست أنفى ضرورة الوعى السياسى عند النخبة، وأهميتها، ولكن وعى النخبة لا يغنى عن وعى الجمهور، وإذا حلّ الوعى فى الشارع الذى يتحرك فيه الجمهور وتسلّح الجمهور بالوعى، لم تعد هذه اللعب السياسية والفضائيات المضللة قادرة على تضليل الناس، وتفجير الفتن فى وسط الناس، كالذى يحصل اليوم فى العراق وفى بعض الأقطار الإسلامية.

فإن الوعى عندما ينزل إلى مستوى الشارع ويثقف الجمهور يحصّنه من أمثال هذه الفتن ... والجمهور الذى يمتلك درجة عالية من الوعى السياسى يمتلك درجة عالية من الحصانة تجاه العوامل الإعلامية والسياسية المضللة، ولا تحتوشه الفتن.

والجمهور غير الموجّه، وغير الراشد، هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن. وعن طريق التوعية والتثقيف السياسى يمكننا أن نحافظ على سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور كما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء، كذلك هو وعاء صالح للوعى والعقل والسداد والتقوى .. ويمتلك أعماقاً سليمة من الفطرة لم ينفذ إليها الفساد، والقادة الحقيقيون هم الذين يدركون هذا العمق الفطرى السليم للجمهور، ويقودون الجمهور إلى صراط الله المستقيم والتقوى، ويحذرونه من مغبّة الوقوع فى أمثال هذه الفتن، ويفلحون فى ذلك.

إن الثقة بالجمهور، وكفاءاته الكثيرة، وسلامة فطرته، هو رأس مال أولئك القادة الذين يعرفون كيف يخاطبون الجمهور، وكيف يكسبونه .. بعد الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاطمئنان إلى وعده بالنصر وتأييده للقلّة المؤمنة فى مواجهة أمثال هذه الفتن والتحديات.

الوعى والخطاب

ولابد للوعى من خطاب، كما أن للتضليل السياسى خطاب، ولإثارة الفتنة بين الناس خطاب، ولتغرير الناس وتجهيلهم خطاب، كذلك للوعى خطاب.

ولغة هذا الخطاب لغة العقل، وهى اللغة المفضّلة فى خطاب الوعى ... إن العاطفة جزء ضرورى من خطاب الجمهور لاشك فى ذلك، ولكن من الخطأ الاقتصار على العاطفة فى خطاب الجمهور .. ولابد من استخدام لغة العقل فى خطاب الناس، إلى جانب لغة العاطفة، ولابد أن تكون لغة العقل هى الحاكمة وهى الأصل، ولغة العاطفة تأتى فى امتداد لغة العقل، ولإسناد العقل عندئذ يكون الخطاب العاطفى خطاباً صالحاً للجمهور ... وأمّا عندما يتمحّض خطاب الجمهور فى الخطاب العاطفى فلا يكون مثل هذا الخطاب خطاباً راشداً أميناً غالباً، ولا يكون قادراً على توجيه الجمهور إلى الوجهة الصحيحة ...

إن مشكلة الخطاب الإسلامى المعاصر لدى أصحاب التوجهات الطائفية المعاصرة هى الحالة العاطفية الطاغية على هذا الخطاب والحالة الشعارية، ورفض لغة العقل، وحالة الانغلاق على الرأى الآخر، ورفض الطرف الآخر، رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير واستباحة الدماء التى حرّمها الله تعالى إلا بحقها، وقد يكون استجابة الجمهور أحياناً إلى الخطاب الشعارى والعاطفى أسرع من استجابتهم للخطاب العقلانى الرافض للعاطفة .. ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحصراً فى خطاب الجمهور- خيانة للجمهور مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين فى خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، وإن واجهه الجمهور أحياناً بالرفض.

وعلى علماء المسلمين أن يتقوا الله فى الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس فى ذلك، فقد يكون فى الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقد يكون الخطاب العاطفى والشعارى أسرع قبولًا فى وسط الجمهور .. ولكنه على كل حال خيانة يجب أن يحذرها العلماء الراشدون.

والجمهور الذى يتثقف من خلال الخطاب العقلانى اكثر ثباتاً وصلابة فى الموقف، والجمهور الذى يتلقى الخطاب العاطفى الشعارى

جمهور متقلب فى الرأى، لا يثبت على موقف ورأى، ومسؤولية هذه الحالة المتقلّبة على عهدة الخطاب العاطفى والشعارى الذى يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفى المتشنّج.

مصدر الخطاب

وكما يجب الاهتمام بلغة الخطاب فى حياتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، كذلك يجب الاهتمام بمصدر الخطاب ... هناك خطابات سياسية وثقافية كثيرة معاصرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وهى ولاءات منتحلة كاذبة فى مقابل الولاء لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وللمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذى جاء به الوحى من عند الله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (۱) ... وهذا هو الولاء الحق الذى جاء به رسول الله ۹ من عند الله، وهو الولاء الذى يوحّد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة فى صف مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضاء على هذا الولاء بادر أعداء هذا الدين إلى طرح ولاءات أخرى فى مقابل الولاء لله ولرسوله ولأولياء الأمور وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالًا طائلة لتثبيت هذه الولاءات فى ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفينيقية .. إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية ووطنية .. مقابل الولاء لله ولرسوله.

---

۱- المائدة: ۵۵.

ص: ۲۶

ونحن عندما نتحدث عن الخطاب السياسى الذى يجب أن نلقيه إلى جمهورنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مصدر هذا الخطاب ... هذا الخطاب يجب أن يكون صادراً عن الولاء لله ولرسوله فى قوله تعالى:

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا (۱)

وقوله تعالى: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۲).

وقوله تعالى: وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۳).

وقوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۴).

وقوله تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ (۵).

وقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ (۶).

وقوله تعالى: وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (۷).

وقوله تعالى: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ (۸).

وقوله تعالى: وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ (۹).

أمّة واحدة، وطاعة واحدة، وولاء واحد.

إن لكل ولاء خطاب، وخطاب كل ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين وليس للوطن والقوم والعشيرة .. ولهذا الولاء خطاب يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلا أن هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاء، والولاء يحكم الانتماء .. فقد حارب المسلمون صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة فى الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا- فى السراء والضراء- يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذى يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة فى القلوب، ويؤسس التفاهم والتعاون فى الأفكار والأعمال.

الصدق والنصح فى الخطاب

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً ناصحاً .. وفى خطابنا المذهبى الطائفى المعاصر الكثير من الكذب والافتراء .. ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة، ويصرحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.

ولو أنك سبرت بلاد المسلمين فى كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه الناس ويتعبدون به فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة الافتراءات فيما بينهم من غير هدى ولا بيّنة.

ولا تختصّ هذه الافتراءات بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة أنفسهم، والسنة أنفسهم بما لا يقلّ عما يجرى بين الشيعة والسنة ... وهذا الخطاب الطائفى ينقصه الصدق والنصح ..

ينقصه الصدق؛ لأن علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون ويصرحون أن ليس لله على وجه الأرض كله قرآن غير هذا القرآن، الذى يتلوه المسلمون صباحاً ومساءً.

وينقصه النصح؛ لأن المسلم الذى يهمه أمر وحدة المسلمين وانسجامهم، والذى يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسى من الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمى، بل مع إعلانهم البراءة عما ينسب إليهم من الافتراء.

الشجاعة والصراحة فى الخطاب

۱- المائدة: ۵۵.

۲- الأنبياء: ۹۲.

۳- المؤمنون: ۵۲.

۴- آل عمران: ۱۰۳.

۵- التوبة: ۷۱.

۶- الحجرات: ۱۰.

۷- الأنفال: ۴۶.

۸- النساء: ۵۹.

۹- الأنفال: ۷۲.

ص: ۲۷

إن مواجهة ظروف الفتنة الطائفية اليوم تستدعى شجاعة وصراحة فى الخطاب وما لم يمتلك حَمَلَةُ الخطاب الإسلامى هذه الشجاعة والصراحة لا يتمكنون من مواجهة الفتنة الطائفية المعاصرة واستئصالها.

إن الحالة التكفيرية المعاصرة واستباحة دماء المسلمين بغير الحق عودة للحالة الخارجية التى ظهرت صدر الإسلام فى حرب صفين والنهروان فى أيام خلافة أمير المؤمنين ۷، وولادة جديدة لنفس الحالة.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلى داخل الحركة الإسلامية المعاصرة .. ولابد أن يمتلك تجاه هذه الحالة علماء المسلمين الجرأة والشجاعة والصراحة الكافية فى بيان موقف الإسلام من هذه الجماعة ومن هذه الحالة التى تُعدّ انزلاقاً خطيراً للحركة الإسلامية المعاصرة.

والتردد والتريث فى مثل هذا البيان يؤدّى إلى استشراء هذه الحالة وتوسعها، وإلى حدوث انزلاقات خطيرة فى الحركة الإسلامية المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا كان يشهد بالتوحيد لله والنبوة لرسول الله قولًا واحداً بين فقهاء المسلمين.

روى مسلم فى الصحيح فى فضائل على ۷: عندما دعا رسول الله ۹ علياً فى فتح خيبر فأعطاه الراية وقال له: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك، قال: فسار على شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ:

يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟

قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم (۱).

وفى الصحيحين بالإسناد إلى مقداد بن عمرو: أنه قال: يا رسول الله! أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار، فاقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف، فقطعها، ثم لاذ منى بشجرة، فقال: أسلمت لله، فأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ۹: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال (۲).

وأخرج البخارى فى بعث على ۷ وخالد إلى اليمن: أن رجلًا قام فقال: يا رسول الله! اتق الله، فقال ۹: ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقى الله، فقال خالد: يا رسول الله! ألا أضرب عنقه؟ فقال ۹: لا، لعله أن يكون يصلى (۳).

وعن أمير المؤمنين ۷ أنه قال: «قال رسول الله ۹: أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم علىّ دماءهم وأموالهم» (۴).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ۹:

«أُمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (۵).

وعن أبى عبدالله الصادق ۷ أنه قال: «الإسلام يُحقن به الدم» (۶).

وعنه ۷ أنه قال: «شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله ۹ به حُقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث» (۷)

وعن رسول الله ۹ أنه قال: «من وحّد الله وكف بما يعبد من دونه حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله» (۸).

وعن أبى عبدالله الصادق ۷ أيضاً عن رسول الله ۹ أنه قال: «أيها الناس! إنّى أمرت أن أقاتلكم حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلك حقنتم بها أموالكم ودماءكم إلا بحقّها وكان حسابكم على الله» (۹).

وروى الدارمى عن رسول الله ۹ أنه قال: «إنّى أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت علىّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله» (۱۰).

عن أبى سعيد الخدرى قال: وجد قتيل على عهد رسول الله ۹ فخرج مغضباً حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يقتل رجل

من المسلمين لا يُدرى من قتله، والذى نفسى بيده لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله فى النار» (۱۱).

وروى مسلم بن الحجاج فى (الصحيح) روايتين عن رسول الله ۹ نعرف منهما عظيم حرمة «لا إله إلا الله» وحرمة القائل بها، ولو كان القائل بها قد تظاهر بها ليحمى نفسه من القتل، وأنّ هذه الكلمة تعطى قائلها وحاملها من الحرمة ما لا يجوز لأحد انتهاكه إلا بحقه.

روى مسلم أن رسول الله ۹ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبى ۹، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله قال: لِمَ قتلته؟ قال: يا رسول الله! أوجع فى المسلمين وقتل

---

۱- صحيح مسلم ۱۸۷۱: ۴- ۱۸۷۲ كتاب فضائل الصحابة.

۲- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴؛ وصحيح مسلم ۹۵: ۱ كتاب الإيمان ح ۱۵۵، عدا الجملة الأخيرة.

۳- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴؛ ومسند أحمد ۱۰: ۴- ۱۱.

۴- بحار الأنوار ۲۴۲: ۶۸.

۵- صيحح مسلم ۵۲: ۱، كتاب الإيمان، الباب ۸، ح ۲۵.

۶- المحاسن: ۲۸۵، وبحار الأنوار ۲۴۳: ۶۸.

۷- الكافى ۲۵: ۲، وبحار الأنوار ۲۴۸: ۶۸.

۸- مسند أحمد بن حنبل ۴۷۲: ۳.

۹- المحاسن: ۲۸۴، بحار الأنوار ۲۸۲: ۶۸.

۱۰- سنن الدارمى ۲۱۸: ۲، ورواه بلفظ قريب منه عن رسول الله ۹ البخارى فى ۵۷: ۱ من الصحيح فى فضل استقبال القبلة، وأبو داود فى السنن ۴۱: ۲- ۴۲ باب على ما يقاتل المشركون، وأحمد بن حنبل فى المسند ۱۹۹: ۳، و ۴۴۵: ۲، ۳۳۹: ۳، و ۸: ۴- ۹، وابن ماجة فى السنن ۱۲۸۵: ۲- ۱۲۸۶، والنسائى فى السنن ۱۰۹: ۸.

۱۱- بحار الأنوار ۱۵۰: ۷۵.

ص: ۲۸

فلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً، وإنّى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ۹: أقتلته؟ قال: نعم، قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: يا رسول الله! استغفر لى، قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة (۱).

وروى مسلم أيضاً عن أسامة بن زيد أنه قال:

«بعثنا رسول الله ۹ فى سرية فصبحنا الحرقات (۲) من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى ۹ فقال رسول الله ۹: أقال لا إله إلا الله وقتلته! قال: قلت: يا رسول الله! إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها علىَّ حتى تمنّيت أنى أسلمت يومئذ» (۳).

ورغم أن القتيل كان مقاتلًا يقاتل المسلمين فى صفوف الكافرين حتى اللحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد فى اللحظة الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كل القرائن أن الرجل شهد ب- لا إله إلا الله خوفاً من القتل وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد .. إلا أن رسول الله ۹ غضب غضباً ظاهراً، وأنكر على أسامة بشدة وقوة، وكرّر إنكاره على أسامة حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم فى ذلك اليوم حتى يكون الإسلام قد جب من ذنوبه ما سبق.

خطبة رسول الله ۹ بمنى

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله ۹ فى جموع المسلمين الغفيرة بيوم النحر بمنى، وقد روى هذه الخطبة ثقات المحدثين بألفاظ متقاربة، ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام أبى عبدالله الصادق ۷ ونشير إلى جملة من المصادر التى تروى هذه الخطبة:

عن زيد الشحّام عن أبى عبدالله الصادق ۷ أنه قال:

«إن رسول الله ۹ وقف بمنى حين قضى مناسكها فى حجة الوداع فقال: أيها الناس! اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه عنى فإنى لا أدر لعلّى لا ألقاكم فى هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أىُّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم، قال: فأىّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر، قال: فأىّ بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد، قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، فإنه لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفّاراً» (۴).

ثانياً: الجماعة، واللقاء، والحوار

هذه ثلاثة عناوين يحبها الله تعالى، وهى أساس التقريب والتفاهم وجمع الشمل وهى:

(الجماعة) و (الاجتماع واللقاء) و (الحوار والتفاهم).

وهذه الثلاثة هى الأداة المفضلة فى دين الله لمكافحة الفتن الطائفية، وإزالة التقاطعات، والوصول إلى الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفات قصيرة عند كل واحدة منها:

الجماعة (الأمّة)

نقصد بالجماعة: الأمّة الإسلامية الواحدة، وتتميز هذه الأمّة من سائر الأمم فى العقيدة والشريعة والرسالة، ورسالتها التعاون والتضامن الاجتماعى على أداء هذه الرسالة والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ...

قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى (۵)

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۶).

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (۷).

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ

أولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّه إِنَّ اللّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۸).

هؤلاء، جماعة هذه الأمة، يحملون هماً واحداً، ومسؤولية واحدة، هى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهم أُسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله، فإن الدعوة إلى الله ورسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يكون إلاّ مع الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله.

---

۱- صحيح مسلم ۶۸: ۱- ۶۹.

۲- الحرقات بضم المهملة والراء وقاف بعدها من جهينة، هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة، كما فى جمهرة ابن حزم: ۴۴۶.

۳- صحيح مسلم ۶۷: ۱.

۴- روى هذه الخطبة جمع غفير من الحفاظ والمحدّثين من الفريقين، ولشهرتها نعرض عن ذكر مصادر الخطبة.

۵- يوسف: ۱۰۸.

۶- آل عمران: ۱۰۴.

۷- آل عمران: ۱۱۰.

۸- التوبة: ۷۱.

ص: ۲۹

إذن، هذه الجماعة تحمل ثلاث خصال:

۱- الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله.

۲- الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة ..

۳- التفاهم والتعاون والتعاضد والتواصى بالحق والصبر فيما بينهم.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (۱)

وعليه فإن مفهوم (الجماعة) بهذا التوضيح يلتقى مع مفهوم (الأمة).

وهذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى، لا ريب فى ذلك.

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۲).

وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۳).

وهذه الأمة بعرضها العريض أمّة واحدة، لها عقيدة واحدة وشريعة واحدة ومنهاج واحد، ودعوة واحدة، وسبيل واحد، ورسالة واحدة، يؤدّونها مجتمعين.

وهذه الوحدة والاجتماع فى الأداء، وتحمّل المسؤولية، والعقيدة والشريعة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى التى تجعل من هذه الأمة جماعة واحدة.

وقد ورد التأكيد على هذا الاجتماع والوحدة فى الأداء والوحدة فى الموقف والعمل فى آيات عديدة من القرآن.

منها قوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً فإن الآية الكريمة تحمل معنيين:

الاعتصام بحبل الله، وهذا هو المعنى الأول، وأن يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع (جميعاً) وهذا هو المعنى الثانى.

ومنها قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً (۴).

والآية الكريمة كذلك تحمل معنيين:

۱- الدخول فى السلم.

۲- وأن يكون هذا الدخول من قبل الجميع (كافة).

وقد ورد التأكيد فى أحاديث كثيرة متظافرة على لزوم الجماعة، منها ما رواه الفريقان عن رسول الله ۹ فى الخطبة التى خطبها فى مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، واليك هذا الخطاب النبوى الشريف:

«نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها، وبلغها من لم تبلغه، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم» (۵).

وهذا خطاب شريف يتضمن ثلاث دعوات، وأية دعوات؟

۱- الإخلاص فى العلاقة بالله.

۲- والنصيحة فى العلاقة بأئمة المسلمين وأولياء الأمر:.

۳- واللزوم لجماعة المسلمين فى العلاقة بالأُمة.

وسلامة الفرد والمجتمع بسلامة هذه العلاقات الثلاث:

۱- العصر: ۳.

۲- الأنبياء: ۹۲.

۳- المؤمنون: ۵۲.

۴- البقرة: ۲۰۸.

۵- بحار الأنوار ۶۹: ۲۷، ح ۷.

ص: ۳۰

۱- العلاقة بالله.

۲- والعلاقة بأئمة المسلمين.

۳- والعلاقة بجماعة المسلمين.

فإذا سلمت علاقة الفرد بهذه المحاور الثلاثة يسلم الفرد وتسلم الأمة.

اللقاء والاجتماع

ورد فى النصوص الإسلامية التأكيد على اللقاء والاجتماع والنهى عن الاختلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسلمة، والنهى عن الخروج عن جماعة هذه الأمة والشذوذ عنها.

عن رسول الله ۹: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة» (۱).

وعنه ۹: «اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله أمتى إلا على هدى، واعلموا أن كل شيطان (: البعيد من الحق) هوى فى النار» (۲).

وعنه ۹ أيضاً: «لا يجمع الله أمر أمتى على ضلالة أبداً، اتبعوا السواد الأعظم، من شذّ فى النار» (۳).

وعن أمير المؤمنين ۷: «الزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب، فلا تكونوا أنصاف الفتن، وأعلام البدع، والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة» (۴).

وعن الإمام الصادق ۷ أنه قال: «إن قوماً جلسوا عن حضور الجماعة فهمّ رسول الله ۹ أن يشعل النار فى دورهم حتى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين» (۵).

وقد جعل الله تعالى فى لقاء المؤمنين رحمة وبركة وخيراً، وجعل اللقاء والحوار من منازل رحمته وبركاته ...

كما أن الشيطان يجعل من التباعد سبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتمّ من غير حوار عادة، فهما متلازمان من ناحية اللقاء. وقد رأينا بركات كثيرة فى اللقاءات الأخيرة المعاصرة التى تمت فى إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية ... بين المذاهب الإسلامية، فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير فى حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحابوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفوها من قبل ... فى هذه اللقاءات ارتفع كثير من اللبس والغموض الذى كان ينظر من خلاله بعضهم إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً فى الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدونها من قبل مما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

(الجماعة) و (الجمعة)

إن اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمر يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل فى صلب التشريع .. فقد شرَّع الله فى هذا الدين للمسلمين (الجماعة) و (الجمعة) و (الحج) ..

ويدخل فى (الجمعة) صلاة العيدين: الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة: (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف المذاهب والاتجاهات والاجتهادات .. ولاشك أن الحالة العبادية والذكر جزء لا يتجزأ من هذه الثلاثة ... إلا أن حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود فى هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أن الإنسان يُقبل على صلاته فى الخلوات أكثر من الإقبال عليها فى الاجتماعات ... مع ذلك كله يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الانفراد، وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجدهم فى ساحة واحدة.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أن رسول الله ۹ هدد أقواماً كانوا مقاطعين لصلاة الجماعة فى المدينة بأن يحرق بيوتهم، كما فى الرواية.

روى الشيخ الطوسى فى التهذيب عن الصادق ۷: «أن أناساً كانوا على عهد رسول الله ۹ ابطؤوا عن الصلاة فى المسجد، فقال رسول الله ۹: ليوشك قوم يدعون للصلاة (يَدَعون الصلاة ظ) فى المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم النار فنحرق عليهم بيوتهم» (۶)

وكذلك الاهتمام بأمر (الجمعة) فى الإسلام وتحشيد المؤمنين من كل منطقة فى جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روى عن الإمام الباقر ۷:

---

۱- ميزان الحكمة ۷۶۵: ۱.

۲- كنز العمال ۲۰۵: ۱ ح ۱۰۲۵.

۳- ميزان الحكمة ۴۰۶: ۱.

۴- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

۵- مستدرك الوسائل ۴۵۰: ۶.

۶- التهذيب ۲۵: ۳، ووسائل الشيعة ۳۷۶: ۵، نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۱۰: ۵.

ص: ۳۱

«صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض، من غير علة إلا منافق» (۱).

واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للأمة كلها، تجتمع فى موعد واحد ومكان واحد، لإقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض .. يقيمه المسلمون فى كل عام تلبية لأذان أبيهم أبى الأنبياء إبراهيم ۷ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲).

الجماعة والجمعة تجمعان كل الشرائح والمذاهب

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلمون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت: يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق ۷: «من صلّى خلفهم كان كمن صلّى خلف رسول الله ۹».

وفى حديث آخر عنه ۷: «إذا صليت معهم غُفِرَ بعدد من خالفك فى قراءة البسملة وحضر الصلاة فى المسجد».

وذلك أن الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة فى القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت: فى اعتبار البسملة جزءاً من كل سورة، إلا سورة التوبة.

ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق ۷ حاله فى حضور صلوات جماعة أهل السنّة يقول: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال ۷: «ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أنت أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً».

ويقول الإمام الصادق لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق! أتصلى معهم فى المسجد؟ قال: قلت: نعم، قال: صلّ معهم فإن المصلى معهم فى الصف الأول كالشاهر سيفه فى سبيل الله».

إن من الضرورى تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشرائح الإسلامية المختلفة من كل المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضرورى أن يكون خطاب أئمة الجمعات والجماعات خطاباً تقريبياً وحدوياً توحيدياً، يكسب كل الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولا يُنَفِّرُهم.

ومن الضرورى تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجّه بين المسلمين فى شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

مساحات اللقاء والحوار

أهم مساحات اللقاء والحوار هى المساحة الثقافية والمعرفية والمساحة السياسية والمساحة الاقتصادية.

المساحة الثقافية والمعرفية

اللقاء، والحوار الموجّه فى شؤون الثقافة والمعرفة يؤدى إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسلامية فى شؤون المعرفة والعلم، كالفقه واصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدى إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية فى مختلف أبواب المعرفة، ويتبين لهم أن الخلاف فى ما بين المذاهب الإسلامية فى هذه المسائل لم يكن إلا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدى إلى التكامل والتلاقح العملى لدى الجميع.

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة فى التردد على المدارس والحوزات العلمية

المختلفة لتلقى العلم، رغم اختلاف المذاهب .. وكان لهذا الترافد العلمى والثقافى أثر كبير فى إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

المساحة السياسية

المساحة السياسية مساحة واسعة ... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة والانتهازيين واللاعبين الدوليين فى السياسة، وأن للسياسة لاعبين، يلعبون فى هذه الساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح .. ويقيسون العمل السياسى ويفهمونه ويقيّمونه بنفس المقاييس التى

---

۱- وسائل الشيعة ۴: ۵ نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۲۶: ۵.

۲- الحج: ۲۷.

ص: ۳۲

يفهم فيها الناس ألعاب التمثيل السينمائى والشعبذة .. يكذبون ويُكَذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغرير.

وللأسف، الساحة السياسية فى العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلا ما ندر وشذّ، ولا نطيل فى هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدى الله تعالى يوم السؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۱) تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا عنهم، وجاروهم وتعاونوا معهم، ولم يحركوا ساكناً، ولم يزعجوهم بموقف أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمى من بلاد المسلمين، إلا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبرياءهم وأذلوا غرورهم .. وهؤلاء قلة فى هذه الأمة، ولكنّها قلة مباركة.

والسبيل الوحيد إلى طرد هذه العصابات السياسية الانتهازيّة من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين فى هذه الساحة، حضور إيمان ووعى وعطاء.

إنّ حضور الجمهور فى الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التى يتألّقون بها، ويكشفهم ويعرّيهم.

وهذا الحضور عبادة، بحكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

هذا الحضور عبادة، كما أن الصلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعى وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعالياً تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً، تتجسّد فيه وحدة الصف.

ويتم الحوار فيه على أساس مصلحة الإسلام الكبرى، ويتعامل الجمهور فى هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها على موقف واحد ورأى واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية وينتشر فى العواصم والحواضر والمراكز الإسلامية، يكون له دور كبير فى توجيه قضايانا السياسية ... ولست أريد أن أَشُطَّ فى الخيال وأقول: إن حضور الناس فى الساحة سوف يؤدى إلى تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة فى العالم الإسلامى، ولكننى أقول: إنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات الأنظمة السياسية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض فى فلسطين، والموقف من الاحتلال الأمريكى للعراق وأفغانستان، والموقف من المسألة النووية الإيرانية، والموقف السلبى الذى اتخذته الأنظمة العربية من (حماس) فى خلافها مع (منظمة التحرير الفلسطينية)، تبعاً للموقف الأميركى- الأوروبى- الإسرائيلى، والموقف من التأييد الأمريكى لإسرائيل والرفض الأمريكى للمقاومة الإسلامية فى لبنان وفلسطين (حزب الله وحماس والجهاد)، والتفكيك بين (المقاومة) و (الإرهاب)، واحترام الأول وتبنّيه ونبذ الثانى ورفضه ...

إنّ مثل هذا اللقاء والحوار فى الساحة الإسلامية العريضة من أهم ضرورات المرحلة، شريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمة واختراقاتها، فإن الأنظمة الحاكمة فى العالم الإسلامى، تملك من وسائل اختراق الساحة ما يهدّد وحدة الساحة ووعيها، ويؤدى إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا فى حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من هذا الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

شروط اللقاء والحوار

ولكى يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن تتوفر فيهما الشروط التالية:

۱- تقديم مصلحة الإسلام العليا ..

فقد تتدافع الأطراف الإسلامية فيما بينها، ولا يصلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصلحة الإسلامية العليا على كل مصلحة .. وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب ۷ قدوة لكل المسلمين فى ذلك .. يقول ۷ فيما جرى عليه من بعد رسول الله ۹ فى تقديم الآخرين عليه فى أمر الولاية والخلافة وتنحيته عن حقه فى هذا الأمر:

«فوالله ما كان يلقى فى روعى، ولا يخطر ببالى أن العرب تُزعج هذا الأمر من بعده ۹ عن أهل بيته، ولا أنهم مُنحّوه عنى من بعده، فما راعنى إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدى (عن البيعة)، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدْعُون إلى محق دين محمد ۹، فخشيت إنْ لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة بها علىّ أعظم من فوت ولايتكم» (۲).

۲- حسن الظن فى التعامل والحوار

---

۱- الصافات: ۲۴.

۲- نهج البلاغة، كتاب رقم: ۶۲.

ص: ۳۳

إن سوء الظن إذا استولى على الناس فى علاقة بعضهم ببعض أفسد اللقاء، وكانت نتائج اللقاء سلبية .. وإن سوء الظن آفة كل لقاء وحوار وعمل مشترك ... وقد نهانا الله تعالى عن سوء الظن فى دائرة العلاقات التى تربط المسلمين بعضهم ببعض، بقول الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (۱).

إن تعاطى سوء الظن فى العلاقة يفسد العلاقة ويلغيها.

۳- العقلائية فى اللقاء والحوار:

عندما نكون فى منعطف تاريخى حساس، كالمنعطف الذى تعيشه الأُمّة الإسلامية اليوم.

وعندما تكون الأمة الإسلامية ناهضة، وتخوض صراعاً مريراً فى مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاستكبار العالمى وأنظمة الاستكبار العالمى التى تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تُحشّد أنظمة الاستكبار العالمى كل إمكاناتها لمواجهة التيار الإسلامى العظيم الذى يعم كل العالم الإسلامى.

وكان الموقف بيننا وبين الاستكبار العالمى موقفاً تاريخياً مصيرياً فاصلًا ...

أقول: عند ذلك فإنّ من أفدح الأخطاء فى ظروف صعبة وعسيرة مثل هذه الظروف أن تغلب العاطفة والانفعال والشعار على مواقفنا السياسية ولقاءاتنا وخطابنا لجماهيرنا وحواراتنا المتبادلة داخل البيت الإسلامى الكبير.

إن لغة العاطفة والانفعال والشعار، كما هى نافعة فى إثارة الهمم وإنهاض الجمهور يُمكنُ أن تتحول فى بعض الحالات إلى ألغام سريعة الانفجار تُحَوّل الساحة إلى ساحات للسجال والجدال العقيم الضار.

ونتمنى، لو أن طرفاً أو جهة أو شخصاً أراد أن يستخدم هذه اللغة فى إثارة التشنج فى صفوف المسلمين، ويعكر صفو العلاقات الإسلامية داخل الصف الإسلامى ... نتمنى أن يواجهه الآخرون بالعقلانية الإسلامية والدعوة إلى ما يأمرنا الله تعالى به من الاعتصام بحبل الله وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ والنهى عن التفرقة وَلا تَفَرَّقُوا.

۴- الوعى السياسى

إن الحالة السياسية والإعلامية فى العالم، والعلاقات السياسية والاقتصادية بين أنظمة الاستكبار العالمى، والأنظمة التابعة لها فى العالم الإسلامى، والعلاقة بين السياسة والإعلام ... حالات معقدة شديدة التعقيد، ويدخل فى تكوينها عوامل غير مرئية كثيرة، وما يظهر على السطح من التصريحات والعلاقات لا يعبّر عن كل شىء ...

أذكر فى المصالحة التى تمت بين نظام عربى وإسرائيل بالوساطة الأمريكية وتصافح زعيما الطرفين أمام أضواء الكاميرات فى حضور الرئيس الأمريكى، فاجأ الرئيس الأمريكى المسؤول العربى بالسؤال التالى:

منذ كم كانت لكم علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولين فى إسرائيل؟

فقال المسؤول العربى الكبير مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج: منذ عشرين عاماً.

إن هذا السؤال والجواب يكشف عن الاحتقار الأمريكى لجملة من زعماء الأنظمة العربية الذين تحميهم أمريكا نفسها، ويحمون مصالحها، كما تكشف عن عمق الفساد السياسى فى طائفة من الأنظمة العربية.

منذ عشرين عاماً يتعامل مع إسرائيل، ويتعاطى معها، ويلتقى بقادتها فى لندن وواشنطن .. ولا يعرف الناس على سطح الإعلام السياسى عنه إلّا لغة الشجب والتهديد لإسرائيل ..!!

إن هذه الأنظمة السياسية، بين الواقع والتصريحات التى يقدمونها للإعلام، تشبه الكتل الثلجية العائمة على مياه البحار تسع أعشار منها غاطسة فى الماء لا تُرى وعُشْرٌ منها فقط يظهر على سطح الماء ...

إنّ هذه الأنظمة بين واقعها الغاطس فى مستنقع العلاقة بأنظمة الاستكبار العالمى، والشطر الظاهر المسموع والمرئى منها فى الإعلام

تشبه هذه الكتل الثلجية .. ومن أفدح الخطأ أن نتعامل مع هذه الأنظمة من خلال الإعلام المرئى والمسموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التى يطلقونها بين حين وآخر.

إن لقاءاتنا السياسية وخطابنا السياسى يجب أن يمتلك خلفية غنية من الوعى السياسى والإحاطة بالظروف السياسية المعقدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التى تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

---

١- الحجرات: ١٢.

ص: ۳۴

ومن دون هذا الوعى السياسى سوف يقع جمهورنا وساحتنا فى تخبّط سياسى واسع ... ونحن قد تحدثنا عن ضرورة الوعى السياسى وأهميته الكبيرة فى هذه المرحلة ... وعلى علماء المسلمين وخطبائهم ومثقفيهم والحركات الإسلامية إشاعة الوعى السياسى ونشره فى الأوساط الإسلامية الشعبية.

۵- الحوار بالتى هى أحسن

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة، وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقى فى المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذى علّمنا الله تعالى ب- (التى هى أحسن)، وأقوم للعلاقة الحسنة والتفاهم بين المسلمين، يقول تعالى: وَجادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ (۱).

ويقول تعالى: وَقُلْ لِعِبادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ (۲).

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) فى العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلا أن يخاطب بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

۶- تحصين اللقاء والحوار:

إن علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التى تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمى واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكّنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها ... ولكى نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

أحاديث أهل البيت: فى ضرورة اللقاء والحوار

كان أهل البيت: يوجهون شيعتهم وأتباعهم دائماً إلى اللقاء والاجتماع بأهل السنّة، والحضور معهم فى جوامعهم، واجتماعاتهم، ومجالسهم، وندواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكدون لهم بضرورة التواجد فى الساحة الإسلامية العامة، وحضور الجمعات والجماعات، وتوحيد المواقف فى الحج، ولم يردنا- ولا حديث واحد- عن انفراد أئمة أهل البيت: فى موقف من مواقف الحج عن الموقف العام الذى كان يحدده الحكام فى تلك البرهة، لعامة المسلمين.

وقد تصدى بعض المنحرفين عن أهل البيت: للدسّ فى أحاديثهم: لعزلهم وعزل شيعتهم عن الوسط الإسلامى الكبير .. وكانت هذه الأحاديث على أنحاء، منها أحاديث الغلو، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها تخليط فى الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت:، ومنها أحاديث فى الطعن واللعن على خصومهم.

وكانوا يعملون لإشاعة هذه الأحاديث عنهم، وقد روى عن الإمام الصادق ۷ فى هذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدق كلامنا بكذبه» (۳).

وعنه ۷ أيضاً: «إن المغيرة بن سعيد دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها أبى، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا» (۴).

وروى عن يونس عن أبى الحسن الرضا ۷، قال: «إن أبا الخطاب كذّب على على بن أبى طالب ۷. لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبى الخطاب، يدسّون من هذه الأحاديث إلى يومنا هذا فى كتب أصحاب أبى عبدالله ۷ فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۵).

وعن أبى الحسن الرضا ۷ فى حديث إلى ابن أبى محمود: «يابن أبى محمود! إن مخالفينا وضعوا أخباراً فى فضائلنا، جعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير فى أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا» (۶).

وقد كان أئمة أهل البيت: يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث وفضح الوضّاعين الذين كانوا يضعون

عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به والتأكيد على رفض كل حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

فكانوا يقولون: «فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا»، «فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۷).

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم ورواة أحاديثهم أن يتحرّوا الأحاديث الصادقة المروية عنهم: ويحذروا ما وضعه النواصب والمنحرفون عنهم عليهم من الأحاديث المنتحلة، وكانوا يضعون لهم الأصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة، وكانوا يدعون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطى العلمى والثقافى معهم وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لا يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامى العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنّة فى بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين فى العصر الأموى والعباسى لم يكن يحمل معنى الاعتزال عن الساحة والانقطاع عنها.

---

۱- النحل: ۱۲۵.

۲- الإسراء: ۵۳.

۳- رجال الكشى: ۳۰۵ الرقم ۵۴۹.

۴- رجال الكشى: ۱۹۵ ترجمة المغيرة بن سعيد.

۵- رجال الكشى: ۲۲۴ الرقم ۴۰۱.

۶- عيون أخبار الرضا ۳۰۳: ۱.

۷- بحار الأنوار ۲۵۰: ۲ ح ۶۲.

ص: ۳۵

وقد كان أئمة أهل البيت: يعيشون معهم وفى أوساطهم، ويجتمع إليهم المسلمون من كافة المذاهب والاتجاهات، ويحضرون مجالسهم، ويأخذون منهم العلم، ولو أحصينا أهل العلم الذين أخذوا العلم عن الإمام الباقر والصادق ۸ لوجدناهم امة كبيرة من أهل العلم، وكانت مجالسهم ومحاضرهم عامرة بفقهاء المسلمين وحملة الحديث النبوى وأهل‌العلم من كل اتجاه ومن كل بلد ... وهذه الحالة يعرفها جيداً من يعرف حديث أئمة أهل البيت: وسيرتهم، وهى تعبّر عن حالة الانفتاح والتعايش المذهبى الإيجابى السليم لكل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية. فى الوقت الذى كان أهل البيت: يرسمون ويوضحون لشيعتهم وللمسلمين عامة الخط الفكرى الصحيح فى الاصول والفروع بوضوح وصراحة وبشكل دقيق.

وفى أحاديث أهل البيت: دعوة واضحة وصريحة إلى هذا الانفتاح مع المسلمين والتعايش الإيجابى والتواصل والتعاطف والتعاون معهم، وإليك نماذج‌من أحاديث أهل‌البيت: فى هذا الشأن:

روى محمد بن يعقوب الكلينى بسند صحيح فى الكافى عن أبى اسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبدالله ۷: «أقرأ على من ترى أنه يطيعنى منهم، ويأخذ بقولى السلام، أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والورع فى دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد ۹ وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، وأن رسول الله ۹ كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.

صِلُوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصدق الحديث وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفرى، فَيُسُرّنى ذلك ويدخل علىّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر، والله لحدثنى أبى ۷ إنّ الرجل كان يكون فى القبيلة من شيعة علىّ فيكون زينها، أدّاهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، وإليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان إنّه أدّانا للأمانة وأصدقنا للحديث» (۱).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبى عبدالله الصادق ۷: كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال ۷: «تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم» (۲).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له (الصادق ۷): كيف ينبغى أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا على أمرنا؟ فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة لهم» (۳).

وفى رواية اخرى للكلينى فى الكافى بسند صحيح عن حبيب الحنفى قال: سمعت أبا عبدالله الصادق ۷ يقول: «عليكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز وعودوا المرضى، وأحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حقّ جاره» (۴).

وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبدالله الصادق ۷: «عليكم بالصلاة فى المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنه لابد لكم من الناس، أن أحداً لا يستغنى عن الناس فى حياته، والناس لابد لبعضهم من بعض» (۵).

ثالثاً- الأعمال والمشاريع المشتركة

قرأنا فيما سبق أن النقاط الثلاث التالية من أفضل المناهج لمكافحة الفتنة الطائفية .. وهذه الثلاث هى:

۱- الوعى والخطاب.

۲- اللقاء والحوار.

۳- العمل المشترك.

وقد تحدثنا فيما مضى عن النقطة الأولى والثانية، وها نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطة الثالثة، وهى العمل المشترك، سواءً كان العمل فى المجال العملى والثقافى أم فى مساحة العمل السياسى، أم فى المساحة الاقتصادية.

والتجارب العديدة التى مارسها المسلمون فى الآونة الأخيرة فى المشاريع الاقتصادية والفقهية تؤكد هذا المعنى.

ونظراً للتحديات العظيمة التى يواجهها المسلمون اليوم لابد من مواجهة هذه التحديات بالمشاريع الإسلامية السياسية والاقتصادية والثقافية التى يشترك فيها عامة المسلمين من كل المذاهب والشرائح الإسلامية. فلم تعد الأعمال الفردية والتى تقوم بها طائفة من المسلمين كافية لمقابلة هذه التحديات، فإن التحديات التى تواجهنا فى ساحتنا أكبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاريع.

إن مشاريعنا السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية يجب أن تكون بحجم الأمة كلها .. عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع، وعليها، إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القويّة التى تواجهنا فى ساحة عملنا.

---

۱- وسائل الشيعة ۳۹۸: ۸، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۱.

۲- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۲.

۳- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، البابالأوّل، ح ۳.

۴- المصدر نفسه، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۴.

۵- وسائل الشيعة ۳۹۹: ۸، كتاب الحجّ، آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۵.

ص: ۳۶

جدلية الشرعية والواقع:

وسوف أتحدّث عن واحدة من هذه التحدّيات التى تواجهنا فى حياتنا السياسية والثقافية، ولا يتأتّى لنا مقاومتها وإحباطها إلّا ضمن مشروع سياسى وثقافى كبير، وبتضامن إسلامى واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان فى ساحة حياتنا، ويتوجّب علينا أن نتعامل معهما بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك فى أى منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أى منهما أو كليهما ومقابلته باللامبالاة.

القضية الأولى: وحدة الأمة الإسلامية

وليس بوسع أحد أن يشك فى هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريباً قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

وقوله تعالى: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.

وهذه حقيقة من حقائق الوحى.

ووحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها من غير شك ولا ترديد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بذلك سورة (الأنبياء) و (المؤمنون).

ولا يمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسى عن مسألة الولاء.

كما لا يمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة ...

أقول: إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فإن الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتى فى امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولى الأمر .. يقول تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (۱).

ووجود ولائين أو أكثر من ذلك- فى عرض بعض- ينافى وحدة الأمة ... فضلًا عما إذا كانت هذه الولاءات متعارضة فيما بينها، كما هو حاصل عادة فى الأنظمة السياسية المتعددة الواقعة على خطوط سياسية متعددة.

فلا يمكن أن يتّصف ولى أمر المسلمين بالولاية والطاعة لمجموعة من الأمة، ولا يكون كذلك لمجموعة أخرى من أمة واحدة، وتجب على طائفة من الأمة طاعته ولا تجب طاعته على طائفة أخرى.

أما الولاءات السياسية الطولية (التى يقع بعضها فى امتداد بعض) فلا تنافى وحدة الأمة مهما تعددت وكثرت.

إذن لهذه الأمة، طبقاً لهاتين الآيتين الكريمتين من سورتى الأنبياء والمؤمنون، قيادة واحدة صالحة .. وهذه هى الحالة الشرعية التى نطلبها فى نظام الحكم والقيادة السياسية للعالم الإسلامى.

هذه هى القضية الأولى: (الشرعية).

القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم فى طول العالم الإسلامى وعرضه ...

وهذه الأنظمة- فى الأغلب- لا تمثّل الحالة الشرعية لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمى ... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف .. والتغرير والتجهيل الإعلامى.

ولابد للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع) اللاشرعى.

وبين هذا (الأمر الواقع) و (الشرعية) تقاطع شديد ولكل منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة للتنفيذ.

هذه هى الجدلية القائمة بين (الشرعية) و (الأمر الواقع).

ما هو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و (الواقع المفروض)؟

(فلا يجوز) الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، و (لا يمكن) تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة

..

هذه هى الجدلية بين (ما لا يجوز) و (ما لا يمكن) وهى جدلية قديمة فى التاريخ الإسلامى.

---

۱- النساء: ۵۹.

ص: ۳۷

فما هو موقف (الفقه الإسلامى) تجاه هذه الجدلية الصعبة؟

منهج أهل البيت: الفقهى

إن منهج أهل البيت: الفقهى تجاه هذه الجدلية فى الفترة الطويلة التى عاشوها فى العصر الأموى والعباسى، تتلخص فى ثلاث نقاط:

۱- النهى عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلا يجوز للمسلم أن يقوم بأى عمل فيه إسناد ودعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأى شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم .. وقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت: فى هذا المعنى. (راجع أبواب حرمة التعاون مع الظلمة فى مباحث المكاسب المحرمة). وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى وسائل الشيعة وسائر كتب الحديث والفقه.

۲- الأمر بمعايشة الواقع السياسى الاجتماعى؛ لأن الانفصال عنه بمعنى الخروج من ساحة الحياة والانتحار السياسى والاقتصادى.

ولا مناص للمسلمين من أن ينتظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع ولا مناص لهم، من أن يعايشوا هذا الواقع لتستقيم لهم أمور معاشهم ودينهم .. حتى لو يتطلب الأمر أن ينضمَّ المؤمنون إلى مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية إنعاشها ودعمها، وإنما لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس فى معايشهم ومكاسبهم. (راجع الروايات الواردة فى مستثنيات التعاون مع الظلمة و أبواب التقية).

فلا يستغنى الناس عن المدارس والجامعات وجهاز الشرطة والمستشفيات والمؤسسات الخدمية وغيرها، وكل هذه المؤسسات مؤسسات قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة ... لا حيلة للناس عنها فيجوز الدخول فى هذه المؤسسات لخدمة الناس ويجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، ومن دون ذلك تتعطل حياة الناس، والله تعالى لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور) والأمر الثانى (السائغ) فرق واضح.

۳- العمل على تحويل هذا الواقع الفاسد إلى نظام صالح وقيادة صالحة وقوانين وتشريعات صالحة.

وهذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلى مجتمع؛ فقد يتم ذلك عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلك عن طريق الترحيل الثقافى والتبليغى للناس، وقد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التى تمكّن الأكثرية الصالحة من الوصول إلى مواقع الحكم وتغيير الحكم إلى نظام صالح وقيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلك من الوسائل والآليات. (راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأبواب الجهاد)

وهذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية تتطلب مشاركة عامة من المسلمين، من كل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامية التى تعانى من سلطة الحكومات الظالمة.

۱- مقاطعة الأنظمة الفاسدة وتحريم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهير بها وتسقيطها.

۲- المشاركة الإيجابية فى كل مسالك الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنفوذ إلى مواقع مختلفة من الحكم بهذه الذهنية ولهذه الغاية.

۳- مشاريع أسلمة الأنظمة وإقامة الدولة الإسلامية على أسس شرعية وترحيل الحالة السياسية إلى قيام حكومة عالمية إسلامية صالحة، كما وعدنا الله تعالى فى كتابه .. وهذا المشروع يختلف من بلد إلى بلد ومن حالة سياسية إلى حالة أخرى، ولا يخضع لوصفة سياسية أو حركية واحدة.

المشروع السياسى الإسلامى

الأنظمة فى العالم الإسلامى- فى الغالب- غير صالحة، ولا يمكن الاعتماد عليها فى تقرير الموقف الإسلامى من القضايا السياسية الكبرى فى العالم الإسلامى .. ومن الواضح أن المواقف الرسمية للأنظمة تجاه القضايا الكبرى تبقى خاضعة لتأثير الدول الكبرى،

وليس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التى ترسمها دول الاستكبار العالمى ...

نعم، هناك مساحات صفراء يتحرك عليها هؤلاء الحكام .. وقد تكون هذه الحركة مخالفة لقرارات الدول الكبرى ...

أما الخطوط الحمراء، فليس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما كان الثمن الذى تدفعه هذه الأنظمة .. مثل النفط، فليس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم «النفط» فى قضايا الأمة السياسية، والعكس حاصل فعلًا، فإن الدول الكبرى ومجلس الأمن يستخدمان العامل الاقتصادى سلاحاً قاطعاً فى قراراتها السياسية، وفى عقوبة الأنظمة التى تتجاوز الخطوط الحمراء، فى حين لا ـ يجرأ حكامنا، أو لا يملكون، فى أكثر مناطق العالم الإسلامى، تجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمى.

ومهما يكن السبب، فإن الساحة الإسلامية الواسعة لا تمتلك اليوم مقومات القرار والموقف السياسى الراشد الإسلامى، إلا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف وقرارات يتبناه جمهور المسلمين فى مختلف أقاليم العالم الإسلامى، كما رأينا ذلك فى التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين فى كل أقاليم العالم الإسلامى، وفى المهاجر الغربية، ورغم أن الأنظمة العربية- فى الغالب- كانت ممتعضة من انتصار المقاومة وما سجلته من انتصارات باهرة خلال ۳۳ يوماً، إلا أن تيار التضامن والتعاطف الإسلامى مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسه الأنظمة وأدواتها الإعلامية المسخرة لخدمة مواقفها السياسية ... ولكن هذه الأنظمة تمكّنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار

ص: ۳۸

حزب الله فى الاصطفاف الواسع الذى قامت به إلى جانب فؤاد السنيورة وجعجع والحريرى وجنبلاط فى إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التى دعت إليها المعارضة .. وفى مقدمتهم حزب الله. ولولا التصرف العقلائى لحزب الله فى هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم فى لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة فى لبنان، إلا أن (حزب الله) آثر ممارسة الاعتراض بصورة سلمية، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف .. وكفى الله اللبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر، فلابد للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من إرادة الأمّة ومن عمق الساحة لتنضيج القرار السياسى الذى يهم الأمة- كلها- ولتوحيد الرأى والموقف السياسى فى القضايا الكبرى، وتعميمها على كل الساحة الإسلامية وتحشيد الرأى العام الإسلامى لإسناده والوقوف إلى جانبه، وتفعيله فى الساحة من خلال المسيرات والاحتجاجات والهتافات والإعلاميات والآليات المشاعة التى يمتلكها الشارع للتعبير عن موقفه ورأيه واعتراضه واحتجاجه وحبه وبغضه.

ومن دون وجود مشروع سياسى- مثل هذا المشروع- ينضّج الرأى السياسى الراشد الناضج الموحّد، تبقى الساحة معرضة لأمواج الفتن السياسية، وضغوط وسائل الإعلام الرسمية التى تجعل من الحق باطلًا ومن الباطل حقاً، وتقرّب البعيد، وتبعّد القريب.

وتبقى الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف، والفتن، والضغوط الإعلامية.

ولكى تسلم الساحة الإسلامية الكبرى من هذا التخبّط لابد من مشروع سياسى إسلامى كبير، خارج مجال نفوذ هذه الأنظمة، يمارس هذه المسؤولية فى تنضيج القرار والموقف الإسلامى وتوحيده وتعميقه وتفعيله فى الساحة.

ولابد أن يمثّل هذا المشروع السياسى كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلا صادقاً حقيقياً، ليكون لرأى هذا التجمع الإسلامى، النفوذ والتأثير الفعلى على كل الساحة الإسلامية.

ويكون مركزاً لتنضيج القرار الإسلامى الراشد الذى تتبناه الساحة الإسلامية كلها، فى المسائل الأم الكبرى فى العالم الإسلامى، مثل قضية القدس والمسجد الأقصى، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلى لأجزاء واسعة من أراضى الوطن الإسلامى من سورية ومصر والأردن ولبنان، ومثل المشكلة الصومالية، وتدخل القوى المتعددة الجنسيات فى دارفور، والمشروع الإيرانى النووى السلمى. والاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، والموقف الأمريكى المعادى للقضية الفلسطينية، والداعم لإسرائيل، والموقف البريطانى، بل الاتحاد الأوروبى من دعم المرتد سلمان رشدى، والموقف الروسى المتعنت من الولايات الإسلامية كالشيشان، وقضية الصحراء المغربية، واضطهاد الأنظمة فى العالم الإسلامى لأبناء الحركة الإسلامية، كما فى الجزائر وتونس ومصر، وكما فى العراق فى عهد الطاغية، ومثل الصراع الفلسطينى- الفلسطينى بين حماس وفتح، والدعم الإسرائيلى والأوروبى والأمريكى والعربى لفتح، وتضييق الحصار على غزة وحماس اقتصادياً وسياسياً، وعزل حماس عزلًا سياسياً كاملًا ... وأمثال ذلك، والتخريب الواسع الذى قامت به إسرائيل للبنان، انتقاماً لانتصار حزب الله عليها فى الحرب التى دارت بينها وبين حزب الله فى جنوب لبنان، وسكوت الدول الغربية- الأوروبية والأمريكية برمتها تجاه هذا العدوان السافر على لبنان ودعم الموقف الإسرائيلى بشكل مطلق بكل أشكال الإسناد والدعم ... وأمثال ذلك.

وقد يتساءل أحد عن الصيغة العملية لهذا المشروع السياسى ... فأقول: إننى لست بصدد عرض صيغة محددة لهذا المشروع السياسى ... يمكن أن يكون على هيئة مؤتمر دورى لأهل الحل والعقد من المسلمين، ويمكن أن يكون بصيغة أخرى ... وأيّاً ما تكون الصيغة العملية لهذا المشروع، فهو مركز سياسى، يمثل الأمّة الإسلامية بعرضها العريض، فى تنضيج القرارات والتوصيات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وبلورتها وتقديمها، فى الأمور التى تهمّ الأمّة، ويكون هذا المركز فى مقابل مراكز القرار الرسمية للأنظمة، يعبّر عن إرادة الناس وانتمائهم وهويتهم الإسلامية ... وهو أمر قائم فعلًا، فى بعض الحدود، ولكن يحتاج إلى تثبيت، وتطوير، وتوسعة، وتعديل، وتقنين، وتبنى من قبل المسلمين.

تساؤلات حول هذا المشروع

وقد يثير أحد حول هذا المشروع التساؤلات التالية:

١- أين يمكن إقامة هذا المشروع السياسى المستقل عن الإرادة الأمريكية- الغربية، وأمريكا تقول اليوم للسحاب: أينما تذهبين فانك تمطرين فى مساحة نفوذى وسلطانى؟

٢- ما جدوى رأى هذا المركز السياسى إذا كان لا يملك آلية التنفيذ فى مقابل قرارات الأنظمة التى ينفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام؟

٣- وكيف يمكن عزل رأى هذا المركز أو توصياته عن تأثير ونفوذ الأنظمة ودول الاستكبار العالمى، فى هذه الدنيا المتشابكة المتداخلة؟

والجواب عن السؤال الأول:

إن أرض الله واسعة ونحن لدينا مناقشات جوهرية فى صدقية النفوذ الأمريكى الكونى المطلق، ليس هنا مجال بسط الكلام فيها.

وعن السؤال الثانى:

ص: ۳۹

أقول: إن رأى هذا المشروع وتوصياته يكون مدعوماً بالرأى العام الإسلامى، وسوف يكون له دور واضح فى تعديل القرارات السياسية للأنظمة إن لم تكن قادرة على إلغائها.

وعن التساؤل الثالث: لا ننفى إمكانية نفوذ الأنظمة ومن ورائها أنظمة الاستكبار العالمى إلى صلب هذا المركز وآرائه وتوصياته، ولكنه على كل حال إمكانية محدودة وليست مطلقة، ولا يمكن أن يحقق أى مشروع سياسى فى هذه الدنيا المتداخلة المتشابكة غايته بصورة مطلقة.

وبعد، فإننا نرى أن أمثال هذه المشاريع طموحات سياسية واقعية، يمكن أن نسعى إليها وليست ضرباً من الأحلام فى واقعنا السياسى المعاش.

المرجعية السياسية للعالم الإسلامى

نحن اليوم أمة فاعلة قوية على وجه الأرض. ولهذه الأمة ثقل كبير فى المعادلات السياسية، وحضور واسع فى القضايا السياسية ذات الشأن بالحالة الإسلامية خصوصاً، وبالحالة الكونية عموماً.

ورغم أن أكثر الأنظمة الحاكمة على العالم الإسلامى تعمل لتشتيت هذه القوة الكبرى على وجه الأرض، لكن تبقى الأمة الإسلامية التحدى الأكبر للغرب. والذين يقرؤون التاريخ والمستقبل من المنظّرين فى الغرب يفهمون هذه الحقيقة، وينذرون أنظمة الاستكبار الغربى من هذا العملاق الذى بدأ ينهض من سباته فى القرن العشرين.

وفى ضوء هذا الفهم نقول:

۱- إن الحقائق المتقدمة فى نهضة الأمة بعرضها العريض لا يمكن أن تخفى على مراكز الرصد الاستكبارى فى الغرب.

۲- ولابد أن تلقى هذه الأمة تحديات صعبة من ناحية الغرب لإحباط المشروع الإسلامى الكونى الكبير.

۳- ولا تخصّ هذه التحديات إقليماً أو قوماً و مذهباً من المذاهب، وإنما تعم الأمة الإسلامية برمتها؛ لأن هذه الأمة هى التربة الصالحة للمشروع الكونى الذى يخبرنا به الله تعالى فى كتابه: وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ والذى يتنبّأ به المنظرون فى الغرب.

۴- إذن، المسلمون جميعاً فى مواجهة صراع حضارى وعسكرى وسياسى وثقافى، قاس، من أقسى ما يعرفه تاريخ الإنسان من الصراعات الحضارية السياسية، والعسكرية، شئنا ذلك أم أبينا.

والمطالبة بالمعايشة السلمية وشجب الحروب والصراعات لا يعفينا من هذه المعركة .. ولسنا نحن الذين ندفع الغرب إلى مثل هذا الصراع، وإنما العكس هو الصحيح، الغرب هو الذى يدفعنا إلى مثل هذه المعركة ... فإن الكيانات السياسية والعسكرية والثقافية فى الغرب يرون أنهم قد وصلوا إلى نهايات التاريخ، والعاقبة التى آل إليها أمر الاتحاد السوفياتى ليس ببعيد عنهم، والقوانين والسنن التى آلت إلى سقوط الاتحاد السوفياتى هى التى تؤول بهم إلى تلك العاقبة. وهم يدافعون عن أنفسهم فى معركة مصيرية بالنسبة لحضارتهم وكيانهم الاقتصادى والسياسى والعسكرى، ومن الطبيعى أن يكون هذا الصراع أشرس صراع يعرفه الإنسان، لأنه صراع على الموت والحياة.

۵- ومن أفدح الخطأ أن ندخل هذا الصراع من غير الإعداد المكافئ لهذه المعركة الحضارية، ومن غير الإعداد لآليات هذا الصراع .. والدخول فى مثل هذه المعركة من غير الإعداد المكافئ لها يعادل الفشل والهزيمة فيها ... يقول تعالى: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ (۱) وليست القوة كلها السلاح وإن كان السلاح من مقومات ساحة القتال إلا أن دائرة الإعداد الذى يأمرنا به الله تعالى أوسع من السلاح.

۶- ومن أهم الآليات التى تُعِدُّ هذه الأمة لدخول مثل هذه المعركة التىنتوقعها كل حين، بل نعايشها اليوم، دون أن ننتبه لها .. فى

مقدمة هذه الآليات (المرجعية السياسية الواحدة للأمة الإسلامية) ... فليس من الممكن أن تدخل هذه الأمة صراعاً سياسياً وحضارياً واسعاً، وتواجه تحديات كثيرة، دون أن تمتلك الأمّة (مرجعية سياسية)، توحّد قرارها وموقعها وصفّها.

إن وحدة الأمة ووحدة القرار السياسى لا تتحقق إلا من خلال الآليات التى أعدّها الله تعالى لذلك، وفى مقدمة هذه الآليات المرجعية السياسية التى يسميها الفقهاء ب- (ولاية الأمر).

يقول تعالى: أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ.

۷- و (الموقع الأول) و (الموقع الثانى) اللذين تحدّثنا عنهما مؤسستان إسلاميتان للأمة الإسلامية كلها تتكاملان، تؤدى الأولى دور الشورى وتنضيج القرار السياسى الذى تشير إليه آية الشورى وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (۲) وتقوم الثانية بدور (الولاية السياسية) فى حياة المسلمين .. تنفيذاً لقوله تعالى:

أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (۳).

---

۱- الأنفال: ۶۰.

۲- الشورى: ۳۸.

۳- المائدة: ۵۵.

ص: ۴۰

فى الساحة الاقتصادية

إن عملًا واسعاً يجرى اليوم لإلحاق أسواق العالم الإسلامى ومصادر ثرواته الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية، وهو أمر حاصل بالفعل، ولكن الحركة التى تقوم بها الأنظمة فى العالم الإسلامى هى إلحاق أسواقنا فى العالم الإسلامى وثرواتنا الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية بشكل كامل .. وهذا الأمر إذا تم يجعل من حركتنا الاقتصادية حركة تابعة لاقتصاد الدول الصناعية الكبرى، وتجعل من أسواقنا معرضاً ومحلًا لاستهلاك ما تنتجه المصانع فى الدول الصناعية الكبرى، وتجعل مصادرنا الطبيعة للثروة مثل النفط والكبريت والصلب والحديد والقطن وقصب السكر والمطاط والتمور مصدراً لتموين المعامل والمصانع فى الغرب.

ونتحول من موقع الإنتاج والاكتفاء الاقتصادى إلى مركز لتموين المصانع فى الدول الصناعية الكبرى بالمواد الخام التى تحتاجها هذه المصانع ومحلًا لاستهلاك ما تنتجه هذه المعامل.

وهذه العاقبة أسوأ عاقبة اقتصادية للعالم الإسلامى، وتؤدى هذه التبعية الاقتصادية إلى تبعية سياسية خالصة، وانهيارات اقتصادية واسعة كما حصل لجنوب شرق آسيا قبل سنين، وتفقدنا حالة الاكتفاء الذاتى فى الاقتصاد بشكل كامل.

وكما يستخدم الغرب الآلة الصناعية والاقتصادية فى تحقيق (التبعية السياسية) فى العالم الإسلامى، بشكل واسع، كذلك يستخدم الغرب المقاطعة الاقتصادية والحظر الاقتصادى لإخضاع أنظمة العالم الإسلامى لإرادته السياسية، كما حصل ذلك لإيران وليبيا وسوريا والسودان ... عندما امتنعت من تنفيذ إرادته.

وقد كان بوسع العالم الإسلامى أن يستخدم الآلة الاقتصادية، مثل تصدير النفط فى تعديل بعض المواقف الغربية المتطرفة عموماً والأمريكية خصوصاً تجاه العالم الإسلامى، مثل الجنوح المتطرف إلى جانب إسرائيل، والوقوف إلى جانب إسرائيل فى كل مراحل عدوانها على فلسطين ولبنان. والتشديد على إيران بسبب محاولاتها لتخصيب اليورانيوم والوصول إلى مرحلة استخدام الطاقة النووية لإنتاج الكهرباء وسائر الغايات السلمية، والسكوت عن إسرائيل ومفاعلاتها النووية وترساناتها التى تختزن ۲۰۰ رأس نووى جاهز للتفجير والعدوان، كما تقول بعض المؤسسات العسكرية.

لو أن المسلمين كانوا يستخدمون الآلة الاقتصادية فى تعديل المواقف السياسية الغربية المتطرفة تجاه العالم الإسلامى لتغير وجه العلاقات الإسلامية- الغربية، ولم يتمكن الغرب من أن يمارس هذا النفوذ الواسع فى العالم الإسلامى، ولم يسع الغرب أن يستهتر بهذه الصورة بكل القيم الدبلوماسية والسياسية فى علاقاتها بالعالم الإسلامى.

ولكن ما الحيلة إذا كان حكام العالم الإسلامى فى الغالب لا يجرؤون على التطاول على الإرادة السياسية الغربية، وبشكل خاص الإرادة السياسية الأمريكية، ولا يمتلكون الشجاعة الكافية لاتخاذ أى قرار سياسى أو اقتصادى يعارض مصالح أنظمة الاستكبار العالمى، ويتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة لهم؟!

إن حركة غاضبة عفوية قامت بها جماهيرنا فى مقاطعة البضائع الدنماركية، عندما أساءت صحيفة دانمركية إلى رسول الله ۹، وامتنعت الدانمارك من الاعتذار إلى المسلمين ومعاقبة الصحيفة، كان لها تأثير كبير فى تعديل موقف الحكومة الدانمركية والحكومات الاسكندنافية، التى وقفت إلى جانب الدانمارك فى حينه.

إن الموقف الصحيح فى هذه المسألة الخطيرة هو الحضور المليونى الموحّد فى الساحة، والهتاف بمقاطعة العولمة الاقتصادية الزاحفة إلى العالم الإسلامى، والمطالبة باستخدام الآلة الاقتصادية فى قضايانا السياسية الأُم، والمناداة بتحرير أسواقنا من سيطرة البضاعة التى تصدرها إلينا الدول الصناعية الكبرى. والدعوة إلى تحرير مصادرنا الطبيعية للثروة وإنتاجنا الزراعى والحيوانى من نفوذ الدول الكبرى، والمناداة بالوصول إلى حالة الاكتفاء الذاتى، والتشهير بالأنظمة والحكام الذين يستخدمون مواقعهم فى الحكم لتمكين النفوذ الاقتصادى الغربى والشرقى (الاستكبارى) من أسواقنا ومصادرنا الطبيعية، ودعوة الجمهور إلى استخدام المقاطعة الاقتصادية عندما

يتطلب الأمر، ويتقاعس الحكام ويجبنون عن اتخاذ القرار الاقتصادى المناسب.

إن الحضور الواعى القوى للأمة فى الساحة الإسلامية، فى كل المراكز والحواضر والعواصم الإسلامية يؤدى بالضرورة إلى تعديل قرار كثير من الأنظمة والحكام الذين يحكمون العالم الإسلامى، كما يؤدى إلى تعديل القرارات الاقتصادية والسياسية لدول الاستكبار العالمى تجاه العالم الإسلامى وتخفيف الضغوط السياسية والاقتصادية عليه.

ص: ۴۱

ص: ۴۲

ص: ۴۳

ص: ۴۴

## المشروع الوحدوى .. رواداً ومواقف

محسن الأسدى

نتعرض باختصار إلى المشروع الوحدوى فى الساحة الإسلامية فى بصماته الأولى عبر مؤسّسيه الأوائل، والذين شغلهم أمره وراحوا يبذلون جهودهم وإمكانياتهم لتحقيقه والدفاع عنه، لأنه يعدّ الخط الأول فى الدفاع عن الدين الحنيف وعن ساحته والمسلمين جميعاً، وقد انطلق عمل المؤسسين هؤلاء من التأسيس الشرعى والأحكام الشرعية، لهذا المبدأ المتين الذى جاءت من أجل تحقيقه كل الديانات السماوية من خلال كتبها وجهود رسلها وأنبيائها والصالحين ..، وهو ما نراه واضحاً فى مواقف رسول الله ۹ وأحاديثه، ومواقف أئمة أهل البيت: وسيدهم أمير المؤمنين الإمام على ۷، وهو الذى كان يعد- بعد رسول الله ۹- أول رائد لوحدة المسلمين وقد سبق الجميع فى هذا المضمار بما يملكه من إيمان ثابت، وإسلام وثيق، وجهاد مرير، وعلم غزير، وحرص على الرسالة والمؤمنين بها وعلى أهدافها ومستقبلها، وبما يتوفر عليه من وعى عميق بالساحة المسلمة ومعرفة بما فيها وما يحيطها من مخاطر جسام مع كل ما عاناه من مصادرة لحقه وتجاوز عليه .. فمع أنه ۷ كان يرى أحقيّته بمنصب الخلافة بلا فصل بعد رحلة رسول الله ۹ إلى ربه تعالى، إلا أنه غض النظر عن حقه، ووقف ممن تولاها من الخلفاء الثلاثة بكل ما تمليه عليه مصلحة الدين ووحدة الأمة وحفظ كيانها، فلم يكتف بمسالمتهم وإنما تجاوز ذلك إلى نصيحتهم وإرشادهم ومؤآزرتهم فيما تعرضت له الساحة الإسلامية من مخاطر، فكانت مواقفه تحددها المصلحة الإسلامية ومن أجل وحدة الساحة الإسلامية فقط وفقط، ولم تكن مواقفه من أجل الأشخاص، فكان خير ناصح للخلفاء وللمسؤولين، وكان أميناً على الرسالة ووحدة الأمة .. وهذه نماذج من أقواله التى تحكى مواقفه:

فقد عبر الإمام عن موقفه الحريص على الوحدة الإسلامية مع إشارته بل تصريحه بحقه .. بقوله:

«إن الله لما قبض نبيه، استأثرت علينا قريش بالأمر، ودفعتنا عن حق نحن أحقّ به من الناس كافة، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم، والناس حديثو عهد بالإسلام، والدين يمخض مخض الوطب، ويفسده أدنى وهن، ويعكسه أقل خلف» (۱).

وقوله كما فى كتابه إلى أهل مصر عندما ولّى مالك الأشتر عليها:

«فما راعنى إلا انثيال الناس على أبى بكر يبايعونه فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة علىّ أعظم من فوت ولايتكم التى هى متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يقشع السحاب، فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه».

ويقول فى هذا المجال المتعال الصعيدى أحد كبار علماء الأزهر:

«حبس الإمام على ۷ رأيه فى أنه أحق من أبى بكر بالخلافة فى نفسه، فأخلص له فى سره وجهره ولم يضمر حقداً عليه ولا ضغينة ولم يحاول أن يكنّ له أو يأتمر به، بل وقف منه فى حرب الردة موقفاً يدل على كمال الإخلاص، ويعلن تمام الود، فإن أبا بكر حين خالفه المسلمون فى حرب المرتدين ومانعى الزكاة خرج وحده شاهراً سيفه فلحق به على ۷ فأخذ بزمام راحلته، وقال له: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ لا تفجعنا فى نفسك فوالله لو أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام. فرجع أبو بكر فمكث فى المدينة وسمع هذه النصيحة الخالصة لعلى ۷.

۱- انظر شرح نهج البلاغة ۹۵: ۶.

ص: ۴۵

والشيء نفسه أيضاً حدث لما استشاره الخليفة الثانى فى الخروج إلى غزو الروم فنصحه أن لا يخرج إليهم بنفسه وقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلًا محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت رداً للناس ومثابة للمسلمين» (۱).

وأيضاً كان موقفه الآخر فى مسألة الشورى التى عينها الخليفة الثانى لاختيار الخليفة من بعده، وجاء اختيار عثمان بن عفان خليفةً وفق القاعدة التى وضعها الخليفة الثانى لعمل دائرة الشورى وإن كان شرطاً مؤلماً. لكن الإمام علياً ۷ لما رأى النتيجة هكذا آلمته كثيراً إلا أنه أعلن موافقته تلبية للمصلحة الإسلامية ولما تقتضيه وحدة الساحة المسلمة وخوفاً من وقوع الفتنة والفرقة ولم تكن استجابة لشخصية بذاتها أو لمصلحة ذاتية يبتغيها أبداً .. وهذا هو خطابه ۷ لأهل الشورى أنفسهم يبين رأيه بشكل جلى:

«ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ) (۲)

وخاطبهم أيضا بقوله: «لقد علمتم أنى أحق بها من غيرى، ووالله لأسالمنَ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن بها جور إلا علىّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (۳).

وطالما قدم للخليفة عثمان النصيحة ولم يبخل عليه بكلمة تنفعه، وعمل ينجيه، وقد تفاقمت عليه الفتنة التى أودت أخيراً بحياته، وأوضح له أسباب الفساد، وعليه أن يقتلع هذه الأمراض التى انتابت حكومته .. وكان يقول له:

«أما الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل إليها سبيلًا، ولكنى أنهاك عما ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى الرشد، ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم، والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك». وكان يحذره من مروان بن الحكم رأس الفساد، ومن الأخذ برأيه فيقول له: «فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء» .. (۴)

ثم راحت مواقفه تترى معهم على جميع المستويات مقدماً مصلحة الإسلام العليا فى قوته ووحدته وبقائه على أىّ مغنم أو مكسب آنى أو ذاتى ..

وهكذا ظل الإمام على ۷ فى كل مواقفه وهى كثيرة، وقد تعالا فيها على جراحه وآلامه ولم يسع وراء السلطة وحطامها، مؤثراً الإسلام ووحدة الأمة المسلمة وبقاءها موحدة قوية، وقد دفع حياته ۷ ثمناً لها ..

الإمام زين العابدين

وهذه المواقف الوحدوية لم تتوقف وراحت تستمر عبر أئمة المسلمين وهى تنبع عن مبدأ أكيد يعيشه أهل البيت: يأتى من حرصهم على الإسلام وبيضته ووحدته، فليس الأمر مختصاً بالإمام على ۷ فهذا حفيده الإمام على بن الحسين زين العابدين ۷ وهو الإمام الرابع من أئمة أهل البيت: (وفاته سنة ۹۵ هجرية)، فقد برز هذا المشروع الوحدوى واضحاً فى حياته المباركة، فقد كان يدعو الله ويطلب من المسلمين أن يدعوا الله تعالى طلباً لنصر جيش إسلامى ذاهب إلى قتال الروم رغم أن قيادة هذا الجيش لبنى أمية المستقرة فى الشام ارتكبت تلك المجزرة الرهيبة البشعة فى كربلاء فى شهر محرم سنة ۶۱ هجرية بحق أبيه الإمام الحسين ۷ وأهل بيته وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم.

وقد تجاوز هذا كله وما تركه الأمويون فى قلبه من جراح، راح يضغط عليها، ويؤازر ذلك الجيش ويرفع يديه بالدعاء له بالنصر وهو دعاء الثغور المعروف، وهذه مقاطع منه:

«اللهم صل على محمد وآله وحصن ثغور المسلمين بعزتك وأيد حماتها بقوتك وأسبغ عطاياهم من جدتك ... وكثر عدتهم واشحذ أسلحتهم ... وأفرغ عليه الصبر وسهل له النصر ...».

وذلك كتأكيد من الإمام زين العابدين ۷ على القضية الإسلامية الأساس، وهى انتصار المسلمين الذى كان يهمه ووحدتهم التى كانت تؤرقه ..

الإمامان الباقر والصادق ۸

وقد تمثل هذا المشروع الوحدوى أيضاً فى علاقة الإمامين الباقر ۷ المتوفى سنة ۱۱۴ هجرية، والصادق ۷ المتوفى سنة ۱۴۸ هجرية، وهما الإمام الخامس والسادس من أئمة أهل البيت:، وكانا أصحاب مدرسة فكرية كبرى كانت ساحاتها مليئة بالكثير من طلبة العلم وأساتذته وهم من مختلف المذاهب الإسلامية وخصوصاً فى زمن الإمام الصادق ۷ وبعد أن اتسع ميدان نشاطه وصار أكثر حرية وخفت عليه ضغوط حكام عصره لانشغالهم بما وقع بينهم من خلاف ونزاع .. راح ۷ يستغل هذه الفرصة النادرة بأن يوسع من مدرسته ويبث جهوده وأفكاره ويحث الآخرين على طلب العلم ويحترمهم وإن اختلف معهم فى الرأى، ويحض أصحابه على حسن الحوار ومعرفة المنهج الصحيح فى النقاش مع المختلف .. حيث كانت له مع أئمة المذاهب الإسلامية والمدارس الفكرية فى زمانه لقاءات ولا سيما مع إمام المذهب الحنفى والمالكى، بحيث ما كانا يشعران بالحرج من التردد على الإمام الصادق والاستفادة منه .. كما كان ۷ يحرص على الانفتاح عليهما ..

روّاد الوحدة الإسلامية

---

۱- نهج البلاغه: ۱۹۲ صبحى الصالح.

۲- يوسف: ۱۸؛ وانظر: الكامل فى التاريخ ۷۱: ۳.

۳- نهج البلاغه: ۱۰۲.

۴- شرح نهج البلاغه ۱۵: ۹، ۲۶۲.

ص: ۴۶

وانطلاقاً من النصوص التالية التى تحدد الحكم الشرعى، ومن تلك المواقف الشرعية لأئمة المسلمين ومن غيرها وهى كثيرة لمن أراد تتبعها، بقى موقف الدعوة إلى الوحدة والتقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية، نهجاً واعياً سار عليه الواعون المصلحون من علماء ومفكرى الأمة ودعاتها قديماً وحديثاً، ودعائم ذلك لا بد من الاعتراف والالتزام بها، وتتمثل هذه الأسس أو الدعائم بالنقاط التالية:

النقطة الأولى: الاهتمام الكبير والواعى بمصالح الأمة الإسلامية عموماً، وهى تتوقف على وحدتها، ووحدتها هدف مركزى لا يصح التخلى عنه أبداً، لأنه غاية التشريعات الإسلامية بل هو هدف البعثة النبوية الشريفة .. وتهون من أجله كثير من الأمور. فوحدة الأمة مطلب دينى، أكد عليه القرآن الكريم فى آيات كثيرة كقوله تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (۱).

وقوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ) (۲).

وأقوال رسول الله ۹ فى موارد مختلفة، ومنها:

«مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (۳).

وقوله ۹: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» (۴).

ثم إن الوحدة إضافة إلى كونها مبررة شرعاً ولا ـ يجوز مخالفة ما جاء به الشرع المقدس، فإن فيها مصلحة للأمة وحفظاً لها، وأن تماسك أبنائها ورصّ صفوفهم يعد إعزازاً لدين الأمة وتثبيتاً لها أمام أعدائها والمتربصين بها، وهذه أمور يهتدى إليها كل إنسان بعقله.

وانطلاقاً من هذين الأمرين «الشرعى والعقلى» غدت قلوب علماء الأمة تتألم لواقع تمزقها وتفرقها، وهم يرون أن ما من أمة قويت شوكتها وبنت كيانها وقارعت أعداءها إلا بوحدتها .. لهذا راحوا يتطلعون لإنقاذها وتخليصها من كل ما يعيق وحدتها ويعكر صفو حياتها .. وهم بهذا يرون أنهم يتعبدون الله تعالى بموقفهم هذا، ويتقربون إليه بالسعى لوحدة الأمة، والعمل من أجل تماسكها، وتجنيبها الفتن والصراعات. ويرون التقصير فى ذلك ذنباً من كبائر الذنوب وموجبات الإثم والعقاب.

النقطة الثانية: لا بد من الاعتراف بالتعدد المذهبى القائم فى الساحة المسلمة. فهو أمر واقع لا يمكن الفرار منه أو التغافل عنه وله أسسه وجذوره وتراثه وعلماؤه ومريدوه .. وليس هناك أحسن من التعامل معه واحترامه والاستفادة منه وتحويله إلى عنصر إيجابى ينفع دين المسلمين ومسيرتهم ووحدتهم ..

النقطة الثالثة: التركيز على مساحات التوافق الواسعة الواردة فى هذه المذاهب، وهى كثيرة يمكن أن تكون هذه المشتركات دافعاً مشجعاً بل قوياً لبناء أواصر المحبة والمودة والتفاهم والأخوة بين أبناء الأمة ..

النقطة الرابعة: تشخيص موارد الخلاف فى هذه المذاهب، ثم الاتفاق على أن لا تشكل مانعاً للحوار وأن لا تكون عائقاً أمام وحدتهم وبأن تحيد ريثما تتم دراستها تمهيداً للحوار العلمى الهادئ فيها ..

لم يجد هؤلاء المصلحون فى دعوتهم للوحدة والتقريب طريقهم الوحدوى هذا بلا عوائق ومصاعب، من جهات متعددة، منها الجهات السياسية التى ترى فى وحدة الأمة تقويضاً لكيانها، لهذا راحت تخالف الوحدة لأنها تخالف أغراضهم، وهناك جهات دينية وقوى اجتماعية تتبنى خط التشدد المذهبى لسوء فهمها أو أنها ترى ارتباط مصالحها بمعادلات الخلاف المذهبى الطائفى. إلا أن المصلحين من الفرق الإسلامية لم يفت فى عضدهم كل تلك الموانع والأذى، الذى يلحق بهم، لإخلاصهم فى مسيرتهم ودقة معرفتهم بخدمة الدين وأهدافه والأمة ومسيرتها، وهو ما يجعلهم أكثر استقامة وثباتاً وتحملًا للآلام والصعاب ..

نعم، استمر التأكيد على هذا المشروع الوحدوى من خلال العلماء من المسلمين الشيعة والسنة، الذين كانوا يحرصون على تأكيد التواصل والحوار وتعريف السنة بما عند الشيعة والشيعة بما عند السنة، والتأكيد على الوحدة فى القضايا الكبرى والأساسية .. وهو ما

نجده عند كثيرين- رضوان الله تعالى عليهم- قديماً وحديثاً، نأتى فى مقالتنا هذه على ذكر عدد منهم وموقف من سيرتهم، أو نبذة مما كتبوه ودونوه، وفى طليعتهم:

الشيخ المفيد (۴۱۳ ه) وتلامذته

نعم هذا ما نلمسه عند الشيخ «أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثى العكبرى البغدادى المعروف بالشيخ المفيد» وهو أحد أبرز علماء الشيعة الإمامية فى القرن الثالث للهجرة، وكان عصره عصر النهضة العلمية، فأدرك كثيراً من أعاظم علماء عصره من الفريقين من المحدثين والمتكلمين والفقهاء وسمع منهم وقرأ عليهم، فقد كان له الكثير من الأساتذة والتلامذة من علماء السنّة.

ومن الطريف أن أحد علمائهم وهو على بن عيسى الرمانى المعتزلى (۲۹۶- ۳۸۴ ه) هو الذى أطلق اسم المفيد عليه .. انظر ترجمة الشيخ المفيد (اسمه ولقبه) فى مقدمة كتاب الجمل ولعل فى غيره موجودة قصة تسميته بالمفيد وهى قصة لطيفة نافعة علمياً تتضمن نقاشاً علمياً بين الشيخ المفيد والعالم المعتزلى المذكور، وعلى أثرها لقبه باللقب الذى اشتهر به.

---

۱- الأنبياء: ۹۲.

۲- آل‌عمران: ۱۰۳.

۳- صحيح مسلم: ۱۳۹۶، ح ۲۵۸۶.

۴- صحيح البخارى ۱۰۱: ۲.

ص: ۴۷

لقد كانت مدينة بغداد يومذاك عاصمة الدولة الإسلامية وتعدّ المركز الثقافى للعالم الإسلامى ومملوءة بكثير من العلماء أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة، وكانت مجالس المناقشة والمناظرة والمباحثة قائمة فيها وتنعقد بحضور الخلفاء والملوك وسائر أرباب النفوذ فكان للشيخ المفيد حضور متميز فيها شهد به الجميع .. المفيد، الذى راح يدرّس فقه المذاهب الإسلاميّة الأخرى إلى جانب الفقه الجعفرى فى بغداد، وظلّ مرجعاً للسنّة والشيعة ..

السيدان المرتضى والرضى

واستمرت هذه العلاقة المتبادلة والتواصل بين علماء السنة والشيعة بعد الشيخ المفيد من خلال تلميذيه السيد الشريف المرتضى علم الهدى على بن الحسين الموسوى (۴۳۶ ه) وأخيه السيد الشريف الرضى محمد بن الحسين الموسوى (۴۰۶ ه) حيث كانت لهما علاقات أخوية وعلمية مع كثير من علماء السنة، وقد صنف السيد الرضى كتاباً اسمه «حقائق التأويل» وكان أغلب الذين ينقل عنهم هم من أهل السنة حتى أن الذى يقرأ الكتاب لا يستطيع أن يميز فيما إذا كان مؤلفه شيعياً أو سنياً، الأمر الذى أثار حالة من الشك لدى بعض المترجمين لسيرته ..

الشيخ الطوسى

ومن هؤلاء أيضاً الذين كان همهم وحدة الساحة واحترام آراء الآخرين من الفريق الثانى بكل رحابة صدر ومنهم:

الشيخ الطوسى أبو جعفر محمد بن الحسن (۴۵۰ ه) والملقب بشيخ الطائفة الإمامية، وهو من تلامذة الشيخ المفيد والسيد الشريف المرتضى، وتذكر الروايات التاريخية أن الخليفة العباسى الذى عاصره منحه كرسى علم الكلام فى بغداد، وهو أعلى منصب علمى آنذاك، وكان يجلس عليه ويلقى دروسه على تلامذته، وكان الغالب عليهم أنهم من أهل السنّة.

ويقول فى هذا الصدد المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم وهو من مؤسسى دار التقريب القاهرية وكبار المفتين فى القرن الماضى: إنه وبعد عشرة قرون من وفاة الشيخ الطوسى لم يكن يفتى بشىء فى لجنة الإفتاء ما لم يراجع المسألة الفقهية فى كتاب المبسوط الذى هو درة الكتب الفقهية التى اشتملت على آراء مذاهب أهل السنّة وآراء علمائهم كما أورد آراء علماء الشيعة. ومروراً بالشيخ الطوسى وكتابه «الخلاف» الذى تضمّن فتاوى المذاهب الإسلاميّة المختلفة مشيراً فيه إلى مواطن الاتّفاق والاختلاف بين المذاهب ..

الحلى (۷۲۶ ه)

وهو الشيخ الحسن بن يوسف بن على بن المطهّر الحلى المتوفى سنة ۷۲۶ هجرية والمعروف بالعلّامة الحلى ..

لقد استمر هذا الجهد الوحدوى بعد عصر الشيخ الطوسى، ففى القرن السابع الهجرى برز العلّامة الحلى وهو من علماء الفقه والتاريخ الإسلامى حيث عمل فى كتابه «منتهى المطلب» على إبداء الآراء الفقهية استناداً إلى المراجع الفقهية المعتبرة لدى المسلمين الشيعة والسنة.

الخواجه نعيم الدين الطوسى

وأيضاً كان للخواجه نعيم الدين الطوسى المتكلم والفيلسوف الشهير المتوفى سنة (۶۷۲ ه-) كتاب سمى «بتجريد الكلام» وهو من المتون الكلامية المعروفة، وقد عكف على شرحه العديد من العلماء الكبار للفريقين من السنة والشيعة ..

العلامة الطبرسى (۵۸۴ ه-)

ومن العلماء البارزين أيضاً فى هذا المجال، العلامة الطبرسى الذى ألّف مصنفات فى الفقه والتفسير، منها كتاب «مجمع البيان فى علوم القرآن» والذى ذكر فيه الآراء المختلفة للمسلمين السنة والشيعة فى تفسير القرآن الكريم. وقد كتب الشيخ محمود شلتوت مقدمة لهذا التفسير فى طبعته القاهرية التى نشرتها التقريب، وقد أشاد فيها بموضوعية العلامة الطبرسى ونزاهته وإسلاميته وإنكاره للتعصب واعتبر هذا التفسير أفضل ما صنف المسلمون عامة.

وليس الشيعة فقط، كما أثنى عليه مفتى الديار المصرية وشيخ جامع الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم ووصفه بأنه طليعة كتب التفسير ومرجع العلوم والبحوث القرآنية ..

ولم يشذ علماء ما يسمى بعصر النهضة عن هذه القاعدة .. إن الأنشطة الوحدوية وكل التحركات الخاصة بهذا المبدأ، لم ولن تتوقف وستستمر من قبل العلماء المسلمين الواعين على مرّ الأزمنة والعصور دون يأس أو كلل، وهى تعمل على نبذ الفرقة والتشتت، ثم التركيز والتأكيد على الجو الوحدوى، الذى تحكمه القاعدة المعروفة «اللقاء على ما اتفقنا عليه والحوار فيما اختلفنا عليه».

وها نحن هنا نشير بإيجاز لبعض هؤلاء الأعلام الذين سجلوا أروع الأمثلة فى جهودهم الوحدوية المخلصة المتمثلة فيما حرّروه عبر كتاباتهم ومحاوراتهم وخطبهم وأعمالهم وجهودهم ..

السيد جمال الدين الأفغانى (۱۳۱۴ ه-)

ص: ۴۸

فقط كانت حركة السيد جمال الدين الأفغانى تصب فى تأكيد الوحدة الإسلامية فى مواجهةالتحدى السياسى الذى كان يواجه العالم الإسلامى عندما دعا إلى تشكيل جبهة واحدة موحدة فى وجه المستغربين .. وقد أثرت أفكاره فى تلميذه الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وأحمد عرابى باشا وغيرهم ..

الميرزا الشيخ محمد حسين النائينى (۱۳۵۵ ه-)

وفى بدايات عمره كان على علاقة وثيقة بالسيد جمال الدين الأفغانى منذ أيام دراسته فى أصفهان، ولم تلبث هذه العلاقة أن توثقت عراها فيما بعد، وكان من الأنصار الأقوياء للحركة الدستورية فى إيران، وقد ألف كتابه المشهور «تنبيه الأمة وللشهيد مطهرى رأى فى الكتاب والأسباب التى دعت النائينى إلى جمع نسخه ومؤاثرة السكوت والصمت حيث يقول:

«لم يفسر التوحيد العلمى والاجتماعى والسياسى فى الإسلام، تفسيراً دقيقاً أفضل من تفسير العلامة والمجتهد الفذ المرحوم الميرزا محمد حسين النائينى المستدل والمستشهد بإتقان من القرآن ونهج البلاغة فى كتابه القيم «تنبيه الأمة وتنزيه الملة»، وإنّ كل ما كان يقصد من أمثال الكواكبى حول التوحيد فإن المرحوم النائينى أثبته فى ذلك الكتاب بأدلة إسلامية، ولكن مع الأسف إن محيط الجهل الذى عمّ مجتمعنا هو الذى دفع المرحوم النائينى إلى السكوت والصمت بعد نشره الكتاب».

محمد حسين كاشف الغطاء (۱۳۷۲ ه-)

وقد استمرت مسيرة الدعوة الوحدوية أيضاً من خلال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذى أكد أن الخلافات بين المسلمين فى القضايا الفقهية والعقيدية، لا تؤثر فى الانتماء الإسلامى، فيمكن التعارف والتعاون بشأن القضايا الراهنة فى العالم الإسلامى فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية وترسيخ الأخوة فيما بين المسلمين والذين يتمسكون بالأصول العامة انطلاقاً من قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

لذا راح يقول: إن الذين لا يؤمنون بالإمامة طبق العقيدة الشيعية ويصلون ويصومون ويؤمنون بالتوحيد والقرآن هم مسلمون وإخوة لنا تجمعنا بهم هذه الأصول المشتركة.

ثم نقل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الأحاديث الشريفة التى تصرح بأن كل من شهد الشهادتين هو مسلم فلم يحصر الانتماء للإسلام بالشيعة الإثنى عشرية.

وقد كان للشيخ كاشف الغطاء الدور العملى البارز فى التقارب والوحدة الذى عبر عنه من خلال حضوره الفعال فى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى مدينة القدس الشريف حيث أمَ المصلين فى مسجد الأقصى المبارك. كما سافر أيضاً لهذه الغاية إلى دمشق وبيروت والقاهرة وفلسطين وكراتشى وطهران إضافة إلى الديار المقدسة ..

السيد عبد الحسين شرف الدين (۱۳۷۷ هجرية)

وفى سنة ۱۳۲۸ هجرية وكذا فى سنة ۱۳۴۰ هجرية كانت للسيد عبدالحسين شرف الدين أنشطة عديدة وهو فى زيارته لدول عربية والديار الحجازية المكرمة ومنها ذهب إلى فلسطين ومصر حيث الأزهر الشريف، وهناك اجتمع بعلماء الأمة وعلى رأسهم إمام الأزهر الشريف آنذاك الشيخ سليم البشرى وجرت بينهما حوارات مهمة صبت جميعها فى خدمة الوحدة الإسلامية ...

وهو أول عالم شيعى أم الجماهير الضاغطة المزدحمة فى المسجد الحرام بمكة المشرفة، وهى أول مرة تقام فيها الصلاة وراء إمام شيعى على هذا النحو العلنى تجتمع فيه الألوف .. لقد أم المصلين فى الحرم المكى وخطب فيهم .. (۱)

الشيخ محمد الخالصى (۱۹۶۳ م)

وفى مصلحة التقارب بين المذاهب الإسلامية، عززت هذه المواقف أيضاً تحركات وحدوية مماثلة لمرجع شيعى هو الشيخ محمد الخالصى حيث سعى إلى لقاء ضمّه مع علماء الشام الأعلام، ومن بينهم الشيخ محمد سعيد المعرفى الذى كان رئيساً للمجلس الأعلى

فى سوريا وقد دارت بينه وبين الإمام الخالصى حوارات مهمة تكللت بزيارة قام بها الشيخ المعرفى لمدينة الكاظمية فى بغداد، حيث زار المدرسة الخالصية وقد ألقى فيها الشيخ المعرفى خطبة صلاة الجمعة، وكانت من أروع الخطب وذلك يوم ۳۰- ۱۲- ۱۹۵۱ م. حيث كانت دعوة صادقة للتخلص من التفرقة وإقامة الوحدة الإسلامية ..

الشيخ محمد أمين زين الدين (۱۴۱۹ ه-)

وبموازاة تحرك الشيخ الخالصى كان هناك تحرك وحدوى لمرجع آخر، وهو الشيخ محمد أمين زين الدين، وذلك من خلال الرسائل التى كان يتبادلها مع فضيلة العلامة الشيخ أحمد حسن الباقورى، وكان من أبرز أساتذة علماء الأزهر الشريف، وقد أصبح فيما بعد وزيراً للأوقاف فى مصر، وقد نقل فضيلته هذه الرسائل فى مقدمة كتاب «المختصر النافع فى فقه الإمامية» للمحقق الحلى المتوفى سنة ۶۷۶ هجرية والمطبوع فى مصر عام ۱۹۵۴ م والتى كانت تدور بينه وبين الشيخ زين الدين، وجميعها كانت تدعو إلى التقارب والتآخى بين أبناء المذاهب الإسلامية ..

---

۱- انظر: مقدمة المراجعات: ۴۲، بقلم آية الله الشيخ مرتضى آل‌ياسين.

ص: ۴۹

السيد هبة الدين الشهرستانى (۱۳۸۶ ه)

وهو من كبار رواد التقريب بين المذاهب، وللسيد هبة الدين علاقة طيبة ومتينة بالعالم الإسلامى، فقد عاش الرجل للإسلام كله وللمسلمين كلهم. كانت تصل إليه من مختلف الأقطار الإسلاميّة استفتاءات وأسئلة واسترشادات وكان يرد عليها.

وله كتابات فى مجال التقريب بعنوان: «رمضان رمز تقريب القلوب وتأليف الشعوب» (۱).

محمد رضا المظفر (۱۳۸۴ ه-)

إضافة إلى نشاطه العلمى والكتابة والتأليف، كان هم التقريب بين المذاهب وبالتالى وحدة الصف المسلم يشكل جزءاً مهماً وكبيراً من دائرة نشاطه، وراح يصبو إليه ويعمل، وهو القائل فى مجال التقريب:

وإنى لواثق بأن فكرة التقريب بين المذاهب أصبحت اليوم حاجة ملحة وهدفاً رفيعاً لكل مسلم غيور على الإسلام مهما كانت نزعته المذهبية ورأيه فى المخلفات العقائدية، وليس شىء أفضل فى التقريب من تولى أهل كل عقيدة أنفسهم كشف دفائنها وحقائقها وهذه الطريقة فيما أعتقد أسلم فى إعطاء الفكرة الصحيحة عن المذهب وأقرب إلى فهم الصواب من الرأى الذى يعتنقه جماعته.

ولا يجهل خبير مقدار الحاجة اليوم خاصة إلى التقريب بين جماعات المسلمين المختلفة ودفن أحقادهم إن لم نستطع أن نوحد صفوفهم، وجمعهم تحت راية واحدة، أقول ذلك، وإنى لشاعر مع الأسف أنّا لا نستطيع أن نضع شيئاً بهذه المحاولات مع من جربنا من هؤلاء الكتاب كالدكتور أحمد أمين وأضرابه من دعاة التفرقة فما زادهم توضيح معتقدات الإمامية إلّا عناداً وتنبيههم على خطاهم إلّا لجاجاً، وما يهمنا من هؤلاء وغير هؤلاء أن يستمروا على عنادهم مصرين لولا خشية أن ينخدع بهم المغفلون فتنطلى عليهم تلك التخرصات وتورطهم تلك التهجمات فى إثارة الأحقاد والحزازات.

إن من أعظم وأجمل ما دعا إليه الدين الإسلامى هو التآخى بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ومنازلهم. بلى إن المسلمين لو وقفوا لإدراك أيسر خصال الأخوة فيما بينهم وعلموا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرأيت البشر إخواناً على سرر متقابلين قد كملت لهم أعلى درجات السعادة الاجتماعية، ولتحقق حلم الفلاسفة الأقدمين فى المدينة الفاضلة، فما احتاجوا حينما يتبادلون الحب والمودة إلى الحكومات والمحاكم ولا إلى الشرطة والسجون، ولا إلى قانون للعقوبات، وأحكام للحدود والقصاص، ولما خضعوا لمستعمر ولا خنعوا لجبار، ولا استبدّ بهم الطغاة ولتبدلت الأرض غير الأرض وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة (۲).

السيد الشهيد محمد باقر الصدر (۱۴۰۰ ه-)

لقد كان السيد الشهيد الصدر يؤكد فى خطاباته أن لا يكون هناك صراع موجه ضد أىّ مذهب من المذاهب الإسلامية، وبما أن العراق يعتبر مجتمعاً متنوعاً فى مذاهبه وطوائفه، فقد راعى الشهيد الصدر هذه الخصوصية وهى نموذج للساحة الإسلامية الأكبر والأوسع ذات المذاهب المتعددة، وهو يبين أن الوحدة الإسلامية لا بد لها من أن تقوم على هذا التنوع، فتراه وهو يصارع الاستبداد والطغيان يخاطب المسلمين فى العراق دون أن يلغى هذا التميز والانتماء والتلون:

«يا أخى السنى ويا أخى الشيعى»، ومبيناً أنه ليس لفئة دون فئة أو لمذهب دون مذهب أو لقومية دون أخرى بل هو للجميع عبر دفاعه عن رسالة الإسلام الخالدة «إنى منذ عرفت وجودى ومسؤوليتى فى هذه الأمة، بذلت وجود ى من أجل الشيعى والسنى على السواء، ومن أجل العربى والكردى على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التى توحدهم جميعاً وعن العقيدة التى تهمهم جميعاً». إنها رسالة الإسلام التى توحدهم، ولهذا نراه يصرح بأن الوحدة التى يدعو لها يجب أن ترتكز على الإسلام دون سواه «أنا معكما يا أخى السنى والشيعى بقدر ما أنتما مع الإسلام».

أما فى داخل إيران فالذى يبدو أن موضوع الوحدة الاسلامية كان موضع اهتمام واضح وأكيد وأمراً معمولًا به عند العلماء الإيرانيين حتى منذ زمن نادرشاه أفشار (۱۷۴۷) عندما استرد إيران من الأفغان وسيطر على الأفغان ووصل إلى باكستان ونيودلهى وتحدث مع

الدولة العثمانية على أساس الصلح بين الدولتين باعتبار أن حجمه الجغرافى والسياسى والعسكرى يوازى حجم الدولة العثمانية وتعامل على هذا الأساس حتى أنه حاول داخلياً أن يتبنى مذهباً توفيقياً بين الشيعة والسنّة ..

ونشير هنا إلى عدد من علماء الإمامية ممن كان همه الأول وحدة المسلمين، وراح يبذل قصارى جهوده عبر أنشطته وكتاباته وخطاباته وفتاويه ومن خلال علاقاته الطيبة مع علماء من أهل السنة:

السيد حسين البروجردى (۱۳۸۰ ه)

وهو المعروف بأنه صاحب الأفكار الخلاقة فى مجالات عديدة وأنشطة متنوعة .. وخصوصاً فى توحيد الساحة المسلمة بالتقريب بين مذاهبها المتعددة.

ولا بد لنا من الإشارة إلى بعض الأفكار الوحدوية التى يمكننا استفادتها من مواقف السيد من خلال ما كتب عنه.

---

۱- انظر فى هذا كله كتاب هكذا عرفتهم ۱۹۵: ۲ ومجلة رسالة الإسلام ۲۵۰: ۱.

۲- انظر عقائد الإمامية: ۲۷، ۱۲۰.

ص: ۵۰

فمسألة الوحدة بين فرق المسلمين نالت اهتماماً كبيراً من قبله، ونتيجة لسعة اطلاعه بتاريخ المسلمين فإنه كان يعلم بأن تلك التفرقة التى زرعت بين مذاهب المسلمين وفرقهم، كانت من صنع الحكام الذين تسلّطوا على رقاب المسلمين فى السابق، وقد اقتفى الاستعمار الأجنبى أثر ذلك النهج فى العصر الحاضر، حيث قام بإشعال نار التفرقة والاختلاف بين صفوف المسلمين، ليتسنى له حكمهم، والسيطرة على ثرواتهم.

أما المسألة الأُخرى التى كان يعتقدها السيد البروجردى، فهى أن عزل الشيعة عن بقية المذاهب الإسلامية، حدا بطوائف المسلمين أن تجهل الشىء الكثير عن مذهب الشيعة وأفكارها ومعتقداتها، ولهذا أكد على ضرورة التفاهم بين مذهب الشيعة والمذاهب الأربعة لأهل السنّة، باعتبار أن الإسلام هو دين الوحدة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن أكثرية المسلمين هم من أهل السنة، فلا بد إذن من تعريف المذاهب الأُخرى بمعتقدات الشيعة وأفكارها .. ونتيجةً لتظافر جهود علماء من الفريقين، تم تبادل وجهات النظر بينهم حول ما تعانيه الأمة، ووضع أسس للتعاون والتفاهم .. وقد أثمرت الجهود التقريبية بشكل متميز عن إصدار شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت فتواه التاريخية بجواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية، هذه الفتوى التى أزاحت ركاماً كثيفاً من المقاطعة بين أهم فريقين يتقاسمان العالم الإسلامى.

ولا بد لى من الإشارة إلى ما ذكره الشهيد الشيخ المنتظرى فى فصل من مذكراته إلى الاتصالات التى جرت بين المرجع الأعلى البروجردى فى الخمسينيات مع كبار علماء السنة، لاسيما مشايخ الأزهر، لإزالة سوء التفاهم القائم بين الشيعة والسنة والعمل سوياً لتعزيز أسس الوحدة بين المسلمين من جميع المذاهب، حيث يقول:

كان المرجع الراحل البروجردى مهتماً بصورة جدية بقضية الوحدة بين المسلمين بحيث كان يأمل فى زوال الخلافات وحصول التقارب بين أبناء الأمة الواحدة. ولما علم بتشكيل دار للتقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة من قبل الشيخ محمد تقى القمى (مندوب البروجردى المتجول فى العالم الإسلامى) ارتاح كثيراً. ودائماً كان سماحته يشير إلى مساعى القمى. كما كان يتابع باهتمام بالغ مطالب مجلة «رسالة الإسلام» التى كان القمى يصدرها من القاهرة. وكنت شاهداً فى يوم ما حين مجىء القمى إلى مكتب البروجردى بحيث أصغى البروجردى إلى تقريره، وقد علت وجهه مظاهر الإعجاب والتقدير والارتياح ..

الشيخ محمد تقى القمى (۱۹۹۰ م)

سنة (۱۳۶۸ ه-- ۱۹۴۷ م) انطلق المشروع الوحدوى على يد الشيخ محمد تقى القمى، وهو يرى ضرورة استمرار مابدأه السيد جمال الدين الأسدآبادى المعروف بالأفغانى فى كسر الحواجز الإقليمية والمذهبية بين المسلمين، فانطلق من إيران متجهاً إلى حيث كان أتباع السيد الأفغانى، ووجد من شاركه الهموم والآمال نفسها من كبار علماء الازهر، فكان بحق مؤسس «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» بالقاهرة وكانت داراً مباركة ..

وهناك حديث مفصل جرى بينه وبين الإمام الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر، وكان موضوع الحديث هو المشكل الخطير الذى على المسلمين أن يعالجوه إذا أرادوا نهضة موحدة تشمل جميع شعوبهم وبلادهم، وهو توحيد المسلمين ثقافياً ..

وللشيخ القمى فى مجال التقريب مقال قيم تحت عنوان: (أمة واحدة وثقافة واحدة) (۱).

وقد أشار شيخ الأزهر محمود شلتوت إلى هذا العمل التقريبى بقوله:

«لقد كان الجو السائد عند بدء الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية مليئاً بالطعون والتهم ومشحونة بالافتراءات حتى تكونت جماعة التقريب بين المذاهب بأعضائها من المذاهب المختلفة السنية الأربعة والإمامية والزيدية، والتى شكلت نصراً مبيناً أهاج نفوس الحاقدين، وقد كانت إنجازاً مهماً للإسلام والمسلمين والأمة، ورغم ذلك فقد هوجمت من المتعصبين المتزمّتين من كلا الطرفين».

ويشير الشيخ شلتوت إلى الاجتماعات فى دار التقريب حيث يجلس المصرى إلى الإيرانى، أو اللبنانى أو العراقى أو الباكستانى، أو غير

هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية، وحيث يجلس الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى بجانب الإمامى والزيدى، حول مائدة واحدة، تدوى أصوات فيها علم، وفيها أدب، وفيها تصوف، وفيها فقه، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة، وذوق المودّة والمحبة، وزمالة التعليم والعرفان» (۲).

وعن مؤسس الدار الشيخ القمى، يتحدث الشيخ محمود شلتوت:

«ذلك العالم المجاهد الذى لا يتحدث عن نفسه، ولا عما لاقاه فى سبيل دعوته، وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد، بلد الأزهر الشريف .. فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة اللّه، وظل يتعهدها بالسقى والرعاية بما آتاه اللّه من عبقرية وإخلاص، وعلم غزير، وشخصية قوية، وصبر على الغِيَر، وثبت على صروف الدهر، حتى رآها شجرة سامقة الأصول، باسقة الفروع، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون فى هذا البلد وفى غيره ...» (۳).

فيما تحدث الشيخ محمد تقى القمى عن حالة العالم الإسلامى التى دعت المفكرين إلى حركة «التقريب» فيقول:

«كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن، فالشيعى والسنى كل كان يعتزل الآخر. وكل كان يعيش على أوهام ولّدتها فى نفسه الظنون أو أدخلتها عليه سياسة الحكم.

---

۱- انظر أعداد رسالة الإسلام ۱، ۲، ۳ وأعداد أخرى منها.

۲- انظر دعوة التقريب تاريخ ووثائق طبعة وزارة الأوقاف المصرية، ۱۴۱۲ ه-- ۱۸: ۱۹۹۱- ۱۹.

۳- دعوة التقريب تاريخ ووثائق، طبعة وزارة الأوقاف المصرية، ۱۴۱۲ ه-- ۱۸: ۱۹۹۱.

ص: ۵۱

أجل لقد ظلت الفرقة بين المسلمين غذاء مناسباً للحكم والحكام قروناً عدة، دأب فيها كل حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه، ولتحطيم عدوه، ثم جاءت السياسات الأجنبية فوجدت فى هذه الفرقة خير وسيلة لتدخلها، وبث نفوذها ودعم سلطانها وفرض سيطرتها» (۱).

وبعد أن يفصل الشيخ القمى فى الظواهر المؤلمة التى عجت بها الساحة الإسلامية يومئذ، والحوافز التى دفعت إلى التفكير فى التقريب يقول:

«هكذا بدأنا التفكير فى التقريب، ثم سلخنا بعد ذلك شهوراً نبحث فى سبل العلاج، فدرسنا الدعوات التى سبقتنا وأفدنا منها كثيراً. ودرسنا المشاكل الطائفية برمتها، والكتب المعتمدة عند كل فريق لنحدد الطوائف التى تتفق فى الأصول الإسلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ومبلغ ما وصلنا إليه ثم حددنا أنجح الطرق للوصول بفكرتنا إلى الأعماق.

وقد أدى بنا التفكير إلى أن هذه الدعوة يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرض لكثير من الأخطار، وأن تكون الدعوة إلى التقريب بين أرباب المذاهب لا إلى جمع المسلمين على مذهب واحد، فيبقى الشيعى شيعياً والسنى سنياً، وأن يسود بين الجميع مبدأ احترام الرأى الذى يؤيده الدليل، وأن تكون الجماعة ممثلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنة ومذهبى الشيعة الإمامية والزيدية، وأن يمثل كل مذهب علماء من ذوى الرأى والمكانة فيه، وأن تكون الجماعة بمعزل عن السياسة، وأن تكون محددة الأهداف وأن يكون سعيها على أساس البحث والعلم كى تثبت أمام المعارضة وتكسب الأنصار عن سبيل الإقناع والإقتناع، ولكى تستطيع بسلاح العلم محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التى لا تعيش إلا فى ظل الأسرار والأجواء المظلمة. ولكى تتمكن فى الوقت نفسه من مقاومة الطوائف والنحل التى ليست من الإسلام فى شىء، والتى يحسبها الشيعى سنية والسنى شيعية، بينما هى فى حقيقتها حرب على الإسلام ...».

ويقف الشيخ عند أكبر عقبة واجهت الجماعة، وهى رواسب الماضى، وما أثارته من ضجيج وإرجاف، وكيف واجهت الجماعة كل ذلك فيقول:

«لكن الجماعة هيأت نفسها لهذا من أول الأمر؛ لأنها تعلم أنها تواجه رواسب قرون، وكانت تتوقع حملات فيها الطعن والتجريح، وبدل أن تضعف الهجمات العزائم شحذت الهمم وقوت الجماعة على السير بالفكرة إلى النهاية ...

وكانت هذه الهجمات نفسها دليلًا على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامى كى يتخلص من العناصر البغيضة ذات التفكير السقيم الذى يبلبل الخواطر ويصرف الأذهان عما ينفع الناس ويمكث فى الأرض» (۲).

مجلة رسالة الإسلام

من أبرز آثار دار التقريب مجلتها «رسالة الإسلام» هذه المجلّة كانت تنشر الفكرالتقريبى بين المسلمين، وتجمع العلماء على صعيد الحوار العلمى البناء فى مختلف المجالات، وقد صدر عددها الأول فى ربيع الأول سنة ۱۳۶۸ ه- (يناير ۱۹۴۹ م)، وراحت تتواصل أعدادها بالصدور كل ثلاثة أشهر، ومع تعثر صدورها أعواماً، فقد صدر عددها الستون والأخير فى رمضان ۱۳۹۲ ه- (اكتوبر ۱۹۷۲ م)، ومجموعة ما تضمنته من مقالات ودراسات وأخبار يشكل سفراً هاماً من أدبيات التقريب فى عالمنا المعاصر، إذ إن المجلة انفتحت على كُتّاب أهل السنة والشيعة، وانعكست فيها مسيرة دار التقريب، ومسيرة التقريب فى العالم الإسلامى. ومن هنا فإنها تشكل رصيداً هاماً للتقريب ومعلماً لمسيرته .. وهو أمر يكفى أصحابها والقائمين عليها فخراً ..

وقد كتب فيها عدد من علماء الشيعة الإمامية، من أمثال:

الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحليم كاشف الغطاء، والشيخ محمد رضا الشبيبى، والسيد صدر الدين شرف الدين، والسيد هبة الدين الشهرستانى، والشيخ محمد تقى القمى، والشيخ محمد جواد مغنية، والسيد مسلم الحسينى الجلبى. ومحمد

صادق الصدر، وغيرهم،

وعدد من علماء أهل السنة من أمثال:

الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، وكلاهما من أئمة الأزهر وشيوخه، والشيخ محمد محمد المدنى رئيس تحرير المجلة، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد البهى، والشهيد الشيخ حسن البنا، والأستاذ محمود فياض، والشيخ محمد على علوبه باشا، والشيخ محمد عبدالله دراز، والشيخ عبد المتعال الصعيدى، والاستاذ محمد فريد وجدى، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ على عبد الواحد وافى، والأستاذ عباس محمود العقاد ..

وكذلك شارك فيها إمام الشيعة الزيدية فى اليمن على مؤيد، وأمجد الزهراوى وهو من كبار علماء العراق، والحاج أمين الحسينى من فلسطين، والشيخ الآلوسى وغيرهم الكثير.

وكان من نتائج هذه الأنشطة أن أصبح الفقه الإمامى الشيعى يدرس بجامعة القاهرة، والفقه الحنفى يدرس بجامعة طهران. وكان كتاب أصول الفقه المقارن للسيد محمد تقى الحكيم يدرس فى جامعة القاهرة وهذا كان من قبل خمسين سنة ...

وبعد هذا الاستعراض السريع لعدد من رموز الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية، ننتقل إلى مفخرة هذا العصر، وصاحب الرؤية الواعية لتقريب المسلمين بعضهم من بعض، وذى الريادة الفذة لتوحيد صفوفهم، وبناء قوتهم وتثبيت كيانهم ..، إنه

الإمام روح الله الخمينى

---

۱- دعوة التقريب تاريخ ووثائق، طبعة وزارة الأوقاف المصرية: ۲۴.

۲- دعوة التقريب، تاريخ ووثائق: ۲۷.

ص: ۵۲

الإمام الخمينى هو الآخر الذى دعا المسلمين جميعاً إلى الوحدة والتلاحم حول محور الإسلام، وكان همه الرئيس هو التقريب بين أبناء المسلمين وتمتين العلاقات بينهم بغض النظر عن مذاهبهم، وهو صاحب الشعار المعروف الواضح ذى المضامين العالية الذى أطلقه:

«يأيها المسلمون اتحدوا اتحدوا»

والمشاريع التى تؤسس لبناء أواصر المحبة والمودة بين المسلمين والتى دعا إليها السيد الإمام عديدة، منها أسبوع الوحدة المتضمن للولادة النبوية بتاريخيها ۱۲ ربيع‌الأول و ۱۷ ربيع‌الأول، وأيضاً يوم القدس آخر جمعة من شهر رمضان، إضافة للمؤتمرات العديدة المهتمة بتوحيد الصف المسلم التى عقدت فى إيران وشارك فيها الكثير من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم .. وأسس جماعة التقريب بين المذاهب وأعطى لهذه الجماعة ميزانية تستطيع أن تقوم بدورها اليومى طوال أيام السنة وتتسع لإقامة مؤتمرات تارة فى مصر وتارة فى إيران ...

ونظراً إلى ما يتمتع به السيد الإمام من نظرة واعية إلى فريضة الحج التى يقول فيها:

«الجميع يعلم أنه ليس بمقدور أى إنسان وأية دولة عقد مثل هذا المؤتمر الكبير، وأن الله تعالى هو الذى صنع هذا الاجتماع العظيم، إلا أنه مع الأسف لم يستطع المسلمون على مرّ التاريخ أن يستفيدوا من هذه القوة السماوية، وهذا المؤتمر الإسلامى كما ينبغى لصالح الإسلام والمسلمين ..».

نكتفى نحن هنا بإلقاء الضوء على ما أصدره السيد الإمام من كلمات وفتاوى فى موسم الحج، لأن موسم الحج، هذا التجمع الذى يخفق على ربوعه لواء التوحيد، يرى السيّد الإمام فيه قوة عظمى تتحطم على صخرتها دسائس ومخططات ومؤامرات كل الأعداء المتربصين بهذه الامة سوءاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى فيه تحقيقاً لطموحات الامة وآمالها فى امة كريمة واحدة متفاعلة مكتفية ذاتياً فى كل مجالات وأصعدة تطورها، الثقافية والاقتصادية والعلمية .. وما تجمّع المسلمين فى الحج إلا صورة مصغرة لها .. وللرؤية الواضحة التى يمتلكها ووعيه الدقيق للواقع الإسلامى الذى يضمّ شعوباً مظلومة مقهورة تحت سياط حكّام طغاة ظالمين.

وشعوراً منه بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقه وهو مرجع كبير وزعيم باتت أنظار كثير من المسلمين متوجّهة صوبه، منتظرةً كلمته ملبيةً دعوته، راح السيد الإمام الخمينى يوجّه نداءاته الكثيرة ووصاياه المتعدّدة؛ لتوثيق الوحدة بين المسلمين- التى حظيت من وقته وجهده واهتماماته بالكثير، فكانت له رؤى خصبة فى هذا المضمار- ونبذ الخلاف ويحذر من التفرقة والتشتت. بدءاً بالتحذير من إثارة النعرات القومية التى تنخر فى جسم الامّة والتزاماً منه بنهى النبى ۹ «دعوها إنها (العصبية) نتنة». «وليس منّا مَن دعا إلى عصبية». وقد راحت أقواله تترى عبر خطاباته العديدة التى كانت ترافق أداء فريضة الحج، ويوصى بها المسلمين جميعاً، وهذه نبذ قيمة منها:

- إنّ النعرات القومية- هذه المسألة التى عارضها الإسلام والقرآن الكريم والنبىّ الأعظم- تثير العداء بين المسلمين والشقاق بين صفوف المؤمنين، وهى بالتالى تهدد مصالح المسلمين، وهى من مكائد الأجانب الذين يزعجهم الإسلام وانتشاره ..

- وتأكّدوا أنكم إخوة متساوون مع جميع الشعوب بغض النظر عن اللون والقومية والمحيط والمنطقة، تتبادلون الهموم والآلام، وتؤكّدون الوحدة بينكم، وتنهضون يداً واحدةً ضد أعداء البشرية والمزوّرين ومصاصى الدماء.

- يجب أن تعلموا أنّ الطريق الأساس إنّما هو فى ظلّ وحدة جميع المسلمين، واجتماعهم على قطع أيادى القوى العظمى من الدول الإسلامية.

- ينبغى على الحجّاج المحترمين لبيت الله الحرام لأى مذهب أو قومية انتموا، أن يرضخوا لأحكام القرآن الكريم، ويقفوا فى مواجهة سبل الشياطين الذين يريدون اقتلاع الإسلام، الذى طهّر الشرق والغرب منهم ومن عملائهم الذين لا إرادة لهم سوى إرادة أسيادهم. ويمدّوا يد الأخوّة الإسلامية بعضهم لبعض، وينتبهوا للآيات الكريمة التى تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، وتنهاهم عن الاختلاف

والتفرقة ..

لم يكن الإمام الخمينى يرى أنّ الاختلافات المذهبية مسوغة للفرقة بين أبناء الامّة الإسلامية الواحدة، وكان يؤكّد أنّ الأخوّة الإسلامية لا يضرّها اختلاف الآراء .. ويضع اللوم على من أسماهم بوعاظ السلاطين بإثارة النعرات المذهبية وتأجيج نيران الخلافات بين أهل السنّة والشيعة.

لهذا انبرى السيّد الإمام قبل انتصار الثورة الإسلامية فى إيران وبعدها إلى تثبيت رؤاه وتحقيق الوحدة الإسلامية، يقول سماحته:

- هناك ما هو أخطر من النعرات القومية وأسوأ منها، وهو إيجاد الخلافات بين أهل السنّة والشيعة، ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الإخوة المسلمين ..

ثم راح يوصى الإخوة المسلمين بأن هؤلاء المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يريدون خيراً للإسلام والمسلمين، وعلى المسلمين أن يتبرأوا منهم ويعرضوا عن إشاعاتهم المنافقة ..

ثم راح يبيّن خطورة تقسيم الامّة الإسلامية إلى مذاهب وحذّر منها:

- إنّ طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سنّى وشيعى وحنفى وحنبلى وأخبارى لا معنى لها أساساً ..

- المجتمع الذى يريد أفراده جميعاً خدمة الإسلام والعيش تحت ظلال الإسلام لا ينبغى أن يثير هذه المسائل.

ص: ۵۳

– كلّنا إخوة، وكلنا نعيش قلباً واحداً، غاية الأمر أنّ الحنفى يعمل بفتاوى علمائه، وهكذا الشافعى، وثمّة مجموعة أخرى هى الشيعة تعمل بفتاوى الإمام الصادق ۷، وهذا لا يبرّر وجود الاختلاف، لا ينبغى أن نختلف مع بعضنا، أو أن يكون بيننا تناقض. كلّنا إخوة، على الإخوة الشيعة والسنّة اجتناب كلّ اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنّة ولا بالشيعة ولا بالمذهب الحنفى ولا بسائر الفرق الإسلامية. وهؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك، فهدفهم بثّ الفرقة بينكم. عليكم أن تنتبهوا جيداً أننا جميعاً مسلمون وأتباع القرآن وأهل التوحيد ..

ويبادر سماحته بالدعوة الصادقة إلى الوحدة والتآلف لإحباط المؤامرات فيقول:

– إننى أمدّ يد الأخوّة إلى جميع المسلمين الملتزمين فى العالم، وأطلب منهم أن ينظروا إلى الشيعة بصفتهم إخوة أعزّاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً فى إحباط هذه المخططات المشؤومة.

ثم يواصل حديثه ووصاياه للمسلمين يستنهضهم من سباتهم ومن تمزّقهم:

– أيّها المسلمون المؤمنون بحقيقة الإسلام، انهضوا ووحّدوا صفوفكم تحت راية التوحيد وفى ظلّ تعاليم الإسلام، واقطعوا أيدى الدول الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة، وأعيدوا مجد الإسلام، وتجنّبوا الاختلافات والأهواء النفسية، فإنكم تملكون كلّ شىء. اعلموا أن قدرتكم الروحية ستتغلّب على جميع الطواغيت، وتستطيعون بعددكم البالغ مليار إنسان، وبثرواتكم الطائلة غير المحدودة أن تحطموا جميع القوى .. انصروا الله كى ينصركم.

– أيّتها الجموع الغفيرة من المسلمين، انتفضوا وحطّموا أعداء الإنسانية، فإن اتجهتم إلى الله تعالى، والتزمتم بالتعاليم السماوية، فالله تعالى وجنده العظام معكم.

.. ولنصل إلى النصر من خلال الاجتماع على الحق، وتوحيد الكلمة وكلمة التوحيد، التى هى أساس ومنبع عظمة الامّة الإسلامية.

– يا مسلمى العالم! ماذا جرى لكم فى صدر الإسلام؟ على قلتكم هزمتم القوى العظمى، وحققتم وجود الامّة الإسلامية الإنسانية الكبرى، وأنتم اليوم تعدّون ما يقارب المليار نسمة وتملكون الثروات الكبيرة، التى تعتبر رأس الحربة، وتعانون إلى هذا الحدّ من الضعف والانسحاق فى مقابل الأعداء؟!

– أيّها المسلمون ويا مستضعفى العالم! مدّوا أيديكم بعضكم لبعض وسيروا فى سبيل الله ..

– يجب أن نعلم أنّ إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمّع العظيم من جميع أنحاء العالم توثيق عرى الوحدة بين أتباع نبىّ الإسلام، أتباع القرآن الكريم فى مقابل طواغيت العالم، وإذا لا سمح الله أوجد بعض الحجّاج من خلال أعمالهم خللًا فى هذه الوحدة أدّت إلى التفرقة، فذلك سيوجب سخط رسول الله ۹ وعذاب الله القادر الجبّار.

وفى عبارة اخرى له: وأن ترتفعوا عن الفرقة والتنازع (وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

– انهضوا من أماكنكم واحملوا القرآن الكريم، واستلهموا أوامر الله تعالى حتى تعيدوا مجدكم وعظمة الإسلام العزيز، تعالوا استمعوا إلى موعظة واحدة من الله حيث يقول:

(قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى).

– انهضوا جميعاً وقوموا لله، قوموا فرادى على جنود وشياطين أنفسكم الباطنية، وقوموا جميعاً على القوى الشيطانية، إذا كانت الثورة والنهضة إلهية ولأجل الله فهى منتصرة.

وراح يوصى الحجاج بالتزام الأخوة فى تعاملهم:

– الحجّاج المحترمون الموجودون فى جوار بيت الله ومحل رحمته، تعاطوا برفق ومروءة وأخوة إسلامية مع جميع عباد الله، واعتبروا الجميع – ودون النظر إلى اللون واللسان والمنطقة والمحيط – منكم.

ثم دعاهم جميعاً إلى شيء عظيم ألا وهو:

أن تكونوا جميعاً يداً قرآنية واحدة حتى تسيطروا على أعداء الإسلام والإنسانية ... (۱)

ما أجمله من تعبير: يداً قرآنية واحدة!

نعم، يمكننا نحن أن نتجنّب ما يثير الخلاف والنزاع والفرقة دون أن نصادر الرأى الآخر إذا ما قام عليه الدليل، وبذلك نستطيع أن نصون الوحدة لأمّتنا الإسلامية، هذا الأمل الكبير الذى يُراود كلّ المؤمنين والعلماء المصلحين .. تحت ظلال القرآن الكريم.

---

۱- انظر فى هذا نداءات الإمام الخمينى رضوان الله تعالى عليه.

ص: ۵۴

الفتاوى الشرعية

لم يكتف السيد الإمام بهذا الذى هو على مستوى الخطاب، بل راح يعززه بالفتاوى الشرعية وهو يخطو خطوات كبيرة فى توحيد صفوف المسلمين، فبادر إلى إصدار فتواه بتجنّب ما يثير الفتن، ويثير الضغائن بين الإخوة.

- على الإخوة الإيرانيين وجميع الشيعة فى العالم أن يتجنّبوا الأعمال الجاهلة، التى تؤدّى إلى تفرّق صفوف المسلمين، كنصب مكبّرات الصوت بدون انتظام، وإلقاء النفس على القبور الطاهرة، والأعمال المخالفة للشرع ..

كما أصدر فتوى أخرى للشيعة بالاشتراك فى الصلوات، حيث يقول:

- وعليهم أن يشتركوا فى جماعات أهل السنّة، وأن يتجنّبوا عقد صلاة الجماعة فى البيوت.

لقد راح الإمام يدعو وكثير من فقهاء الإماميّة أتباعهم إلى أن يشاركوا فى صلاة الجمعة والجماعة لأهل السنّة خصوصاً فى الأماكن المقدّسة فى مكّة والمدينة، مراعاةً للوحدة، وأن يتّبعوهم فى تحديد أوّل الشهر والوقوف فى عرفات والمشعر ومناسك منى، كما أفتوا بصحّة جميع عباداتهم التى يخالفون فى بعض أجزائها وشروطها فتاوى الفقهاء الشيعة ولاضرورة لإعادتها.

ولا بد لنا من أن نشير أخيراً إلى أنه، وعلى هدى دار التقريب، نشأت مؤسسة تحمل نفس الدور التقريبى والهم الوحدوى .. لكن هذه المرة من طهران من خلال المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذى أسس سنة ۱۴۱۱ ه- بأمر من قائد الجمهورية الإسلامية فى إيران السيد الخامنئى دام ظله؛ لإقامة علاقات طيبة بين المذاهب الإسلامية وإيجاد قنوات ارتباط سليمة بين علمائها وزعمائها وتبنّى الوحدة على أساس المشتركات الإسلامية الثابتة التى يتفق عليها المسلمون كافة، وفتح باب الحوار وتبادل وجهات النظر بينهم فى المسائل الخلافية واحترام جميع الآراء القائمة على أساس الدليل الشرعى، ويعتمد المجمع على لجان علمية متخصّصة تضم علماء من مختلف المذاهب ...

وختاماً

حقاً إن فقهاء الشيعة أصحاب نداء تقريبى توحيدى هدفه الإسلام والسلام والوئام بين أتباع المذاهب الإسلاميّة، ولطالما دعوا إلى غلق باب الاختلاف وأسبابه، الذى قد يفضى فى بعض مواقفه إلى النزاع والاقتتال، وخير دليل على ندائهم ذلك ما ذكرناه وهو غيض من فيض .. وأمامكم سيرتهم ومؤلفاتهم ومواقفهم ودعواتهم الجادة لردم كل ممزق ومفرق ومشتت .. والتوجه المخلص والجاد والمثمر نحو لمّ الشمل المسلم على جميع الأصعدة تمهيداً للوحدة الكبرى ..

لقد بقيت فكرة توحيد الصف المسلم منهجاً يترسمه العلماء والدعاة الواعون، وأملًا يراود المخلصين من الفريقين: السنّة والشيعة، ومعلماً هاماً من معالم إرادة الأمة المسلمة فى الوحدة والتعاضد .. والتى لن تتوقف حيث ستبقى هذه تعمل على التأكيد على الجو الوحدوى الذى يعنى اللقاء على ما اتفقنا عليه والحوار فيما اختلفنا عليه والوقوف صفاً منيعاً تحت الشعار القرآنى العظيم: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا).

ص: ۵۵

ص: ۵۶

## المبادئ القرآنية للعلاقات الإسلامية– الإسلامية، مطالعة تفسيرية فقهية

حيدر حب الله

تمهيد

تظلّ دراسة المبادئ التى وضعها الإسلام للعلاقات الداخلية بين المسلمين هامّةً وضرورية، ونحاول فى هذه الوريقات المتواضعة أن نتناول التأسيس القرآنى لعلاقة المسلمين بعضهم ببعض فى الداخل الإسلامى، وكيف تقوم هذه العلاقة؟ وما هى أبرز المعايير التى تحكمها؟

ولن نتطرّق إلى السنّة الشريفة، ولا- إلى ما يعطيه العقل والمنطق العقلانى، أو العناوين الثانوية أو الولائية فى هذا المجال؛ خوفاً من الإطالة، لهذا ستكون دراستنا بحت قرآنية، وسنعرض- بعون الله تعالى- الآيات القرآنية التى تؤصّل مبدأ العلاقة الإسلامية- الإسلامية، ونحاول تفسيرها وفقهها لاستخراج مبادىء منها وقواعد وأسس، إن شاء الله تعالى.

۱- مبدأ عدم التنازع

يقرّر القرآن الكريم مبدأ عدم التنازع الداخلى ضمن النصّ التالى: (وَأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (۱).

فهذه الآية تدلّ على تحريم التنازع، ومن ثم تدعو إلى الاتفاق والوحدة، كما فسّرها بذلك بعض الفقهاء أيضاً (۲).

والتعرّض لفقه هذه الآية يكون من خلال نقاط:

أولًا: قد يقال بتخصيص النهى عن التنازع فى هذه الآية بحالة الحرب، بمعنى أنّ هذا الخطاب موجّه فقط للجيش المسلم الذى يواجه الأعداء (۳)، والشاهد على ذلك:

۱- السياق؛ فإنّ الآيات السابقة واللاحقة كلّها تتحدث عن القتال، فالآية السابقة تقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (۴)، وسورة الأنفال- كما نعلم- سورة جهادية قتالية أغلبها واردٌ فى قضايا القتال والحرب، وعليه، فلا يحرز أنّ النهى عن التنازع فى هذه الآية يتخطّى مجال المقاتلين المسلمين.

۲- قوله فى داخل الآية نفسها: (فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)؛ فإنّ الفشل وذهاب الريح تعبيرٌ آخر عن ذهاب القوى وضعف الجيش، وذهاب الصولة والنصرة والدولة ..

---

۱- الأنفال: ۴۶.

۲- الروحانى، فقه الصادق ۳۹۳: ۱۱، ۴۲۱، و ۱۹۶: ۱۳؛ وسيد سابق، فقه السنّة ۱۲: ۱، و ۶۰۰: ۲؛ وشرف الدين، المراجعات: ۹؛ والنص والاجتهاد: ۵۵۳.

۳- راجع: الطريحى، مجمع البحرين ۲۳۷: ۲.

۴- الأنفال: ۴۵.

ص: ۵۷

۳- ما جاء فی أسباب نزول هذه الآیة من أن خباب (حباب) بن المنذر أشار علی النبی أن ینتقل من مکانه علی الماء، ویجیئهم من الخلف، فرفض بعض الصحابة، وتنازعوا، ثم عمل الرسول بقول خباب (۱).

ولعلّه لهذه الشواهد وجدنا بعض من أدرج الآیة فی قضایا الاختلاف داخل الجیش؛ فالبخاری (۲۵۶ ه-) جعل الآیة فی مطلع الباب الذی عنونه: «باب ما یکره من التنازع والاختلاف فی الحرب وعقوبة من عصی إمامه» (۲)، کما جعل النووی (۶۷۶ ه-) هذه الآیة وما حولها، من الآیات التی جمعت آداب القتال فی الإسلام (۳)، بل صریح کلمات الطبرسی أنّ التنازع فی الآیة یراد به التنازع فی لقاء العدو، کی لایضعفوا عن مقاتلته (۴).

ولا نرتاب فی أنّ ذلک کلّه صحیح، وأنه من الصعب جداً تعمیم النهی عن التنازع لغیر حال الحرب والقتال، فالخطاب خاص؛ إلا أنه یمکن الاستناد إلی التعلیل الوارد فی الآیة الکریمة: (فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِیحُکُمْ)؛ فإن الفشل وذهاب الریح سیقا هنا مساق التعلیل، أی لا تتنازعوا کی لا تفشلوا .. وهذا معناه- حیث إن العلّة تعمّم وتخصّص کما قرّر فی أصول الفقه- أن المهم عدم الوصول إلی مرحلة الضعف والوهن وذهاب القوّة والمنعة والدولة؛ فأیّ تنازع یبلغ بالمسلمین هذه الحال یکون مشمولًا للتحریم، تماماً مثل: لا تأکل الرمان فإنه حامض؛ فکل تنازع یفضی لذلک یکون حراماً، وإن لم یکن تنازعاً بین المقاتلین فی جبهة الحرب، فتفید الآیة مبدأ عدم التنازع بهذا المعنی، والتنازع المضعِف لا یختصّ بتنازع المقاتلین کما هو جلیّ.

ثانیاً: ما هو المراد من التنازع؟ هل هو اختلاف الرأی أم شیء آخر أبعد من ذلک؟

الذی یبدو من بعض الفقهاء والأصولیین أنهم استندوا إلی هذه الآیة لتحریم العمل بالقیاس؛ لأنه یفضی إلی اختلاف الرأی (۵)، کما استدلّوا بها أیضاً لإثبات مذهب التخطئة فی أصول الفقه مقابل التصویب، ولعلّ أقدم من فعل ذلک هو ابن حزم الأندلسی (۴۵۶ ه-) فی المحلّی (۶)، وکذلک فعل الحرّ العاملی (۱۱۰۴ ه-) فی الفصول المهمّة (۷)، کما استدلّوا بها لتحریم الجدال (۸).

لکنّ الصحیح أنّ النهی عن التنازع لا علاقة له باختلاف الآراء، ومن ثم فالاستدلال به علی مسألة التخطئة أو قضیة القیاس ونحوهما غیر صحیح؛ لأنّ فی کلمة التنازع- بحسب دلالتها اللغویة- نوعٌ من التجاذب والتشاجر والتخاصم، وهو ما یفهم أیضاً من کلمات اللغویین (۹)، فمجرّد اختلاف الرأی بشکل هادیء وعلمی وأخلاقی دون تجاذب ومنافرة وتخاصم وحقد وضغینة وتشنّج .. لا یشمله مفهوم التنازع الوارد فی الآیة الکریمة.

یضاف إلی ذلک، أن الآیة حرّمت التنازع من حیث الإفضاء إلی الضعف والوهن؛ أما تعدّد الآراء والاجتهادات داخل الدائرة الإسلامیة؛ فهذا یمکنه أن یقوّی المسلمین وینضج أفکارهم ویطوّر علومهم. إذا أحسنّا تنظیم هذا الاختلاف وضبطه علمیاً وأخلاقیاً وأدبیاً أیضاً.

وعلیه، فالآیة خاصّة بالمخاصمات والمصارعات، ولا تشمل اختلاف الرأی بحسب الظاهر، ولا أقلّ من عدم إحراز هذا الشمول؛ فنأخذ بالقدر المؤکّد من الدلالة.

ثالثاً: الظاهر من فقه الآیة الکریمة أن التنازع مسبّب دوماً للضعف، لا أنّ له حالتین: تارةً ینتج الضعف فیهما وأخری لا ینتجه، فإنتاج الضعف من الخصوصیات التی تکفّل بها المولی، ولم تلقَ إلی العبد کی یعیّنها، فهذا تماماً کقول المولی: تزوّج من فلانة فإنّ فی الزواج منها الخیر؛ إذ خیریة الزواج من الأوصاف التی بید المولی وقد أخبر هو عنها، فیکون وجوب الزواج مطلقاً حتی لو ظنّ العبد أنه لا خیر فی الزواج من هذه المرأة. وهذا بخلاف: تزوّج فلانة إذا کان فی الزواج منها الخیر، فإنّ تحدید الخیریة هنا یمکن أن یکون بید العبد.

والآیة التی نحن فیها نصّت علی حرمة التنازع، وأخبرت- بالعطف بحرف الفاء- أنّ فیه الفشل وضعف القوی، أی أن الله العلیم الحکیم یخبر بأنّ نتیجة التنازع هو الضعف، ومعه فیحرم التنازع مطلقاً، حتی لو رأینا- بنظرنا الشخصی- أنّ بعض موارده لا تفضی إلی

الضعف، نعم تقيّد هذه الآية بمثل آية مقاتلة أهل البغى الآتى الحديث عنها؛ لأنّ النسبة بينهما هى نسبة العموم والخصوص المطلق، ونسبة الحالة الثانوية إلى الحالة الأوليّة، وفى هذين الموردين يقدّم الخاص والثانوى على العام والأوّلى. هذا كلّه على تقدير استفادة العموم من دلالة الآية، لا البناء على خصوص التعليل كما تقدّم.

رابعاً: الظاهر من الخطاب الوارد فى الآية، وكذا من طبيعة التعليل، أنه موجّه إلى الأمة لا إلى الأفراد، أى أنه خطاب مجتمعى؛ فلا تدلّ الآية على تحريم تنازع فردين اثنين من المسلمين فى قضية شخصية؛ إذ هى منصرفة عن هذه الحالة، سيما بقرينة السياق وعدم إفضاء النزاع الشخصى المحدود لضعف المجتمع، إلا إذا تنامت النزاعات الشخصية والعائلية فى المجتمع حتى صارت تهدّد استقراره، ولا أقلّ من عدم إحراز مثل هذا الاستيعاب فى دلالتها.

خامساً: إذا أجرينا مقارنة ومقاربة بين هذه الآية التى تؤسّس لمبدأ عدم التنازع، وبين قوله تعالى: (فإنْ تَنَازعْتُمْ فِى شَىء فَرُدّوهُ إلَى اللّه والرَسُولِ ..) (۱۰)، نجد أنّ مفتاح حلّ النزاعات الداخلية فى الأمّة يقوم على مرجعيّة القرآن والسنّة، أى أنّنا لو رجعنا إلى الكتاب والسنّة سوف نرفع هذا التنازع، ولمّا كان التنازع مغايراً لمفهوم الاختلاف وتعدّد الاجتهادات، لم يقصد من الرجوع للقرآن توحيد الرأى؛ فإنّ ذلك قد لا يحصل، بل رفع حالة التخاصم والبتّ فيها، إلا إذا حصل أن بغت فرقةٌ على فرقةٍ أخرى أو قصّر المسلمون فى العمل بكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، فيكون المورد من موارد البغى والاعتداء، فتشمله آية البغى القادمة بإذن الله سبحانه.

۲- مبدأ الاعتصام الدينى وعدم التفرّق

تشير إلى هذا المبدأ الآيات الكريمة التالية:

---

۱- انظر: التبيان ۱۳۳: ۵؛ والراوندى، فقه القرآن ۳۴۰: ۱- ۳۴۱.

۲- صحيح البخارى ۲۶: ۴.

۳- النووى، شرح مسلم ۴۶: ۱۲؛ وانظر أيضاً: يحيى بن شرف النووى، الأذكار النووية: ۲۰۸.

۴- الطبرسى، مجمع البيان ۴۷۶: ۴؛ ولعلّه يستوحى أيضاً من الكاشانى، التفسير الأصفى ۴۴۱: ۱؛ والصافى ۳۰۷: ۲؛ وما نقله عن المفسّرين الطبرىُّ فى جامع البيان ۲۱: ۱۰- ۲۲؛ وابن أبى حاتم فى تفسيره ۱۷۱۲: ۵؛ وراجع: تفسير السمرقندى ۲۴: ۲؛ وتفسير الرازى ۳۶: ۹.

۵- تفسير الرازى ۱۷۴: ۸.

۶- ابن حزم، المحلّى ۷۰: ۱.

۷- الفصول المهمة فى أصول الأئمة ۵۴۳: ۱.

۸- انظر: تفسير الفخر الرازى ۱۸۳: ۵.

۹- راجع: العين ۳۵۹: ۱؛ والصحاح ۱۲۸۹: ۳؛ ولسان العرب ۳۵۲: ۸؛ ومختار الصحاح: ۳۳۵؛ والقاموس المحيط ۸۸: ۳؛ ومجمع البحرين ۲۹۵: ۴؛ وتاج العروس ۴۷۶: ۱۱ و ..

۱۰- النساء: ۵۹.

ص: ۵۸

۱- (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) (۱).

۲- (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ) (۲).

۳- (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (۳).

۴- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتَّقُوهُ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ ولا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (۴).

۵- (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ* وما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (۵).

وهذه الآيات الكريمة واضحة فى النهى والنكير على التفرقة والتشرذم والتشظى والانقسام، ويمكن أن نستفيد منها جملة نقاط أساسية أبرزها:

۱- ۲- بين التفرّق عن الدين والتفرّق داخل الدين

إذا أخذنا الآية الأولى دلّت على لزوم الاعتصام بحبل الله تعالى وعدم التفرّق، وقد فسّر عدم التفرّق هنا بعدم التفرّق عن الحبل نفسه أو عن رسول الله ۹ (۶)، وهذا يوحى بأنه ليس المراد الانقسام داخل الدين، بل الخروج عن الدين، تقول: تفرّق القوم عن فلان، أى تركوه، وتقدير الآية: اعتصموا بحبل الله ولا تتفرّقوا عنه وتذروه، وهذا يُخرج الآية التى اشتهر توظيفها فى مجال الوحدة بين المسلمين عن دخالتها فى هذا الموضوع.

وربما يقال بإمكان توظيف الآية الكريمة فى المجال الذى نحن فيه، فإنّها لم تقل: لا تتفرّقوا عنه، بل أطلقت النهى عن التفرّق وأعقبته- مباشرةً- بالحديث عن اختلاف المسلمين فيما بينهم من أوسٍ وخزرج و .. قبل الإسلام، وأن الإسلام أنهى هذه الانقسامات، وهذا كلّه يؤكّد أن التفرقة المرادة هنا هى مطلق الفرقة، وهذا يربط بين الوحدة وبين الالتزام بالحبل الإلهى، فكأنّ الآية تريد أن تقول: اعتصموا بحبل الله؛ فإن الاعتصام بالإسلام يحوّلكم من أعداء إلى إخوان، ويدفع عنكم الفرقة.

إذن، فهذه الآية- بناء على ما تقدّم- يمكن الاستناد إليها هنا بلا محذور، وحتى لو تركنا المقطع الأول منها، واستندنا- فقط- إلى قوله: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ ...)، كفى ذلك؛ لأنّها بهذا المقطع الثانى تؤكّد أن الإسلام حوّل الجماعات المتناحرة- لأسباب عدّة- إلى إخوة متوادّين؛ إذاً فهو يفرض مبدأ عدم الفرقة بالتضمّن أو الاستلزام؛ إذ لو كانت الفرقة موجودةً فى الإسلام لبطلت هذه النعمة التى يمنّ الله بها على الأوس والخزرج وأمثالهم؛ إذ سيكون الإسلام هو الآخر مدعاةً أو غير رافضٍ لفُرقةٍ من نوعٍ آخر، فيلزم الكرّ إلى ما فرّ منه كما يقولون.

وبالإجمال، يمكن الاستناد إلى هذه الآية لتأسيس مبدأ عدم الفُرقة والانقسام.

۲- ۲- بين الفُرقة الدينية والفُرقة غير الدينية

تركّز هذه الآيات على مفهوم الفُرقة الدينية، أى أنها لا تتحدّث- فقط- عن التمزق الاجتماعى الناتج عن أسبابٍ قبلية أو عشائرية أو قوميّة أو عرقية أو حزبية أو ... بل تسلّط الضوء أيضاً على العنصر الدينى فى التمزّق؛ لأنّ (فرّقوا دينهم) تستبطن حصول الاختلاف

المفضى إلى الابتعاد عن الدين بسبب عنصر دينى، أو لا أقلّ تحت شعار دينى، ففرّق الدين أى جعله فرقاً وقطعاً، فعندما تقول: (فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً) فهذا معناه قطّعوا الدين وجزّؤوه وصاروا فرقاً، فتمزّقهم على أساس الدين هو تفرقة للدين.

ولعلّ هذا ما تريده الآية الأولى: (ولا تَكُوْنُوا كالّذيْنَ تَفَرّقُوا واخْتَلَفُوْا مِنْ بَعْدِ مَاْ جَاءَتْهُمُ البَيّنَات).

وربما يريد هذا النوع من الآيات- والله العالم- أن يضع معادلة تقول: كلّ تمزق فى الأمة يضارعه تشظّى فى الدين نفسه، وهذه المعادلة كأنّ لها طرفاً يمثل السبب، وطرفاً آخر يمثل النتيجة، وتصوير هذين الطرفين فى المعادلة يمكن أن يكون على شكلين:

الشكل الأول: إنّ الاختلاف بين المسلمين- لأىّ سبب كان- سيؤدّى إلى حالة تمزّق فى الدين نفسه، بمعنى أنّ بعض الدين سوف ينفكّ عن بعضه الآخر، أشبه شىء بقوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْض) (۷)، أى كل فرقة سوف تأخذ ببعض الدين وتترك بعضه، مما سيعدم الانسجام والتلاؤم بين أجزاء الدين نفسه، فيقرأ الدين قراءة مجتزأة وتغيب هنا بعض مقاطعه، فيما تغيب هناك مقاطع أخرى منه.

ومعنى هذا الكلام أن الفرقة الإنسانية تؤدى إلى تمزّق الدين وتقطّعه وتفريق أجزائه عن بعضها بعضاً، ويكون معنى الآية: الذين فرّقوا دينهم وقطّعوه وباعدوا بين أجزائه وأخفوا بعضها وأظهروا بعضاً آخر، بسبب تمزّقهم هم فيما بينهم واختلافهم وتفرّقهم فى حياتهم الإنسانية.

---

۱- آل عمران: ۱۰۳- ۱۰۵.

۲- الأنعام: ۱۵۹.

۳- الأنعام: ۶۵.

۴- الروم: ۳۰- ۳۲.

۵- الشورى: ۱۳- ۱۴.

۶- انظر: التبيان ۵۴۶: ۲؛ ومجمع البيان ۳۵۶: ۲.

۷- البقرة: ۸۵.

ص: ۵۹

الشكل الثانى: وهو يقع على العكس تماماً من الشكل الأوّل، بحيث يكون تبعيض الدّين وتفريق أجزائه عن بعضها البعض، وقراءته قراءة مجتزأة، وعدم ربط مقولاته ومفاهيمه ببعضها، سيكون ذلك بنفسه مؤدّياً إلى أن يأخذ كل فريق بمقولةٍ ويترك أخرى، أو يركّز على مقولة ويستبعد أخرى، أو يسلّط الضوء على آية قرآنية أو حديث نبوى ويتغافل عن آية أخرى أو حديث آخر، وهو ما سينتج عنه تمزّقٌ دينى بشكل تلقائى، لأنّ كلّ فريق سيقرأ جزءاً من الدين ويذر الآخر؛ وسيؤدى ذلك إلى انقسامهم فيما بينهم وصيروتهم شيعاً يحارب بعضهم بعضاً ويشايع بعضهم بعض الأشخاص أو بعض المقولات ويترك الأخرى، فالمجبرة تقرأ آية ربط كل شىء بمشيئة الله والمفوّضة تقرأ آيات الاختيار الإنسانى، والمنزّه يقرأ آيات التنزيه والمشبّه يقرأ فقط آيات التشبيه وهكذا، ولا تضمّ أبعاض الدين وأجزاؤه إلى بعضها كى تكتمل الصورة ويتّحد الموقف.

ولعلّ الذى يؤكد مقولتنا فى هذه المعادلة بشطريها وشكليها، ما ألمحنا إليه من قوله تعالى مخاطباً بنى إسرائيل: (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ* ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ والْعُدْوانِ وإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ ...) (۱).

فإذا أرجعنا آخر الآية إلى مجمل الفقرات السابقة، لا إلى خصوص مسألة الأسرى، كان معنى ذلك أنّ الكفر والإيمان ببعض الكتاب أفضى ببنى إسرائيل إلى قتل بعضهم بعضاً، والآية وإن لم تكن دالةً على ما نحن فيه لكن فيها نحوٌ من الإشارة والتأييد.

والنتيجة أن هذه الآيات تربط بين الفرقة والدين تأثيراً وتأثراً.

۳- ۲- علاقة الدين بإنتاج الانسجام داخل الجماعة الدينية

واستتباعاً للنقطة السابقة، تعطى هذه الآيات دلالة على أنّ الارتباط بالدين كلّما تكامل كلّما اقتربت الأمّة من الوحدة؛ وأن الفرقة توحى بوجود ابتعاد عن الدين، ولعلّ هذا ما توحيه آية: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا وَ ...) فإن الاعتصام الجميعى بحبل الله هو المفضى إلى الوحدة، كما أن صيرورة العرب متوالفين بالدين بعد التعادى فى الجاهلية معناه أن الدين من عناصر التقارب والوحدة؛ فإذا أفضى إلى الفُرقة كان ذلك خلاف حقيقة التقريب التى فيه بين الناس.

وهذا يعنى أن الاختلاف بعد مجىء الدين ناتج عن تقصيرٍ من البشر أنفسهم فى الالتزام بتعاليم الدين وقيم السماء الرفيعة؛ لهذا نصّت الآية على تبرّى رسول الله ۹ من المفرّقين والمنشعبين فقالت: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ)، ولا معنى لهذا التبرّى إذا كانت الفُرقة نتاجاً دينياً؛ فهذا خير دليل على أن الفرقة نتجت عن سوء بشرى فى التعامل مع الدين ومع غيره، وهذا ما تؤكّده الآيات الكريمة: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) (۲)، و (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام ومَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) (۳)، و (وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)، و (وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) (۴).

ومن مجمل ما أسلفناه نعرف أنّ حصول الاختلاف والانقسام يكون نتيجة خطأ إنسانى أو سوء بشرى، وأنّه لا يولّد الدين الفُرقة داخل جماعته على الأقلّ.

۴- ۲- ألوان تأثير البغى على سلامة الوحدة الدينية

لا يعنى ما تقدّم أنّ الخلاف فى الأمة يعنى ابتعاد كلّ مذاهبها وفرقها وجماعاتها وآحادها عن الدين، بل الذى تريد الآيات أن تؤكّده هو وجود عنصر البغى الذى أدّى إلى حصول هذا الأمر، وهذا يعنى أنه من الممكن أن يكون هناك فريقٌ واحد باغٍ فتحصل الفرقة نتيجة ذلك، حتى لو كان الباقون غير باغين، وربما كان الباقون هم الأجيال اللاحقة التى أتت فيما بعد؛ فالآيات تريد تأكيد المبدأ لا الدفاع عن شموليته واستيعابه.

ويشهد لذلك أنّ القرآن الكريم نفسه ذكر فى آية البغى التى ستأتى إن شاء الله تعالى، أن حرباً قد تنشب فى الداخل الإسلامى، ويتحمّل مسؤوليتها فريق واحد، بل الآية تأمر بمقاتلة الباغى، فلا تحثّ الآية على الفرقة والتنازع، بل تأمر بقلع مسبّبيهما، وبالجمع بين الآيات يظهر أنّ المقصود إدخال عنصر البغى فى ظاهرة التمزّق، دون أن تقول: إن كل تمزّق تنساق الأطراف كلّها فيه لأهوائها؛ فقد يبغى فريق فى بدايات الدعوة الدينية، فيوقع التنازع فى الأمة، وتنقسم الأمة إلى فِرَق، فالبغى هنا كان مسبِّباً للفُرقة، لكن لا يعنى اتهام الجميع ولا تمام الأجيال بأنّ انقسامها كان عن بغيٍ منها.

ولعلّ ذيل الآية الأخيرة يوحى بتأثير الأجيال على بعضها، فهى تقول: (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)، أى أنّ الأجيال الأولى اختلفت- بعد العلم- عن بغى وهوى، أما الذين أورثوا الكتاب بعد تلك الأجيال فقد عصف بهم الشك والرّيب، وتركت نزاعات السابقين أثرها السلبى على الأجيال اللاحقة، فبعثت فيها الشك، حتى لم تعد تؤمن بكتابها حقّ الإيمان، وهذا- فى نقطة المبدأ- أحد التفسيرات المشار إليها فى هذه الآية، كما يظهر من بعض التفاسير (۵).

إذن، فقد يجنى البغى المسبّب للفرقة الدينية على الأجيال اللاحقة؛ فيورثها الشك والريب فى الدين، وليس ذنبها، بل قد تكون مستضعفةً حتى لو كانت تناصر هذا الفريق أو ذاك.

۵- ۲- إضفاء مفهوم العذاب على الفُرقة والتناحر

---

۱- البقرة: ۸۴- ۸۵.

۲- البقرة: ۲۱۳.

۳- آل عمران: ۱۹.

۴- البينة: ۴.

۵- انظر: الكشاف ۴۶۴: ۳؛ وجوامع الجامع ۲۸۰: ۳؛ والميزان ۳۲: ۱۸؛ وتفسير مقاتل بن سليمان ۱۷۵: ۳؛ وتفسير النسفى ۹۸: ۴؛ وتفسير الرازى ۱۵۸: ۲۷؛ وتفسير البيضاوى ۱۲۵: ۵؛ وتفسير البحر المحيط ۴۹۰: ۷.

ص: ۶۰

تشير الآية الثالثة المتقدّمة إلى أنّ أنواع العذاب الإلهى متعدّد، وأن واحداً منها جعل الأمة على شيع وأحزاب يقاتل بعضها بعضاً، ويبطش بعضها ببعض، وهذا معناه أنّ الفرقة والافتراق نحوٌ من العذاب الإلهى الذى ينزل بالناس، وطبيعىّ أن الآية لا تعنى أن كل فُرقة كذلك، بل أقصى ما تدلّ عليه أن بعض أنواع العذاب قد يكون فى فُرقة الأمة ومحاربة بعضها بعضاً، وهذا خير دليل على أنّ القرآن يرى الاختلاف والتقاتل والتصارع الداخلى مظهراً من المظاهر التى قد تكون عذاباً إلهيّاً، فما أشدّ دلالة هذه الآية على رفض الفُرقة ونبذ التنازع والتخاصم.

والجميل فى تعبيرات هذه الآية أنّها لمّا تحدّثت عن العذاب الفوقى والسفلى، أى من الفوق ومن تحت الأرجل، جعلت الثالث هو الفُرقة والتصارع، وكأنّ فى هذا التعبير إشارة إلى أنّ الفتنة الداخليّة بين الأمة عذابٌ يكون بين يديها، وكأنّ مبرّراته وعناصره تحت سيطرتها، ولم يأتِ من الأعلى ولا جاء من الأسفل من حيث لا يدرك الناس ذلك، وهو ما فيه إشارة إلى الدور البشرى فى إنتاج العذاب الثالث الذى تعطيه الآية.

۶- ۲- حالة التشظّى ووهم المكاسب الجزئية

من أروع التعابير فى هذه المجموعة من الآيات، قوله تعالى: (كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، فهذه الآية تشير إلى واقع يعيشه المجتمع فى ظلّ حالة الانقسام عادةً، وهى أن كل فريق يعيش فى حالة غفلة ونشوة بما يراه من انتصارات له ومكاسب يحقّقها على الفريق الآخر أو لنفسه هنا أو هناك، فيفرح بما يراه مكسباً، وينتشى بما يحقّقه من معطيات جزئية، وهو غافل عن القضايا الكبرى، وغافل عن أنّ بعض مكاسبه الجزئية هذه ما هى سوى تكريس لانقسام الأمة وتمزقها وتشرذمها، وأنه باستمراره فى طلب المكاسب الفرعية هذه والفرح بها يكرّس واقع التراجع فى الأمة؛ لهذا نسبت الآية الفرح إلى الأحزاب ولم تنسبه للأمة، وجعلت الفرح على ما عنده وليس على ما عند الأمة (بما لديهم)، وهذا هو الغرور المعرفى الذى يكرّس القطيعة فى الأمة، فيفرح بما عنده، ولايفرح بما عند غيره.

وهذا الحصر مستفاد من تقديم (بما لديهم) على (فرحون)؛ فكأنه لا يفرح إلا بما لديه، وأما ما عند غيره من أمّة الدين والتدين، فليس بموجب فرحاً عنده.

وبممارسة التأمل فى استخدام كلمة «فرحون» فى اللغة العربية، نجد أنّ القرآن الكريم لم يطلقها على السرور الإيجابى، بل أطلقها فى موقع الذمّ، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (۱)؛ فالفرح هنا لا يقصد منه السرور؛ ولهذا فسّر بالبطر (۲)؛ للجزم بعدم حرمة الفرح فى الإسلام، وبناءً على ما ذكره أبو هلال العسكرى (ق ۴ ه-) فى التفريق بين الفرح والسرور، فإنّ الفرح قد يكون بأمرٍ لا نفع فيه ولا لذّة، على خلاف السرور الذى لا يكون إلا فيما فيه نفعٌ أو لذّة على الحقيقة (۳)، فيفهم أن استعمالات القرآن الكريم للفرح كانت للإشارة إلى شىء يفرح به الإنسان لكنه قد يكون خالياً من الفائدة والمنفعة الحقيقية، فكأنّ فرحه به مصداقٌ لقوله تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (۴)، تماماً كفرح ملكة سبأ بهديتها التى أرسلتها إلى سليمان، فقد ظنّت أنها سوف تستميله بها، لكنّ سرورها بما فعلت لم يكن سوى وهم، قال الله تعالى: (فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِىَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) (۵)، وتماماً كما حصل مع الكافرين الذين كانوا يتوهّمون أنهم يدعون شيئاً وإذ بالذى كانوا يدعونه من دون الله لم يكن سوى سراب، قال سبحانه: (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِ اللهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ* ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) (۶).

وعليه، ففرح الأحزاب تعبيرٌ عن حالة الوهم وتصوّر وجود منفعة ومصلحة فى خطواتها وأعمالها، فيما هى تفرح على عدمٍ وعبثية وسراب، وفعلًا هذا هو حال الأمة حينما تنشغل بسفاسف الأمور، وتتصارع على أشياء ثانوية؛ فيختلّ ميزان الأولويات عندها، وما حال أمتنا الإسلامية اليوم- فى أكثر من موقع- عن ذلك ببعيد.

إنّ الاعتصام الدينى والوحدة أصلٌ من أصول الديانة قد تقف عندها أصول أخرى، ولعلّنا نجد بعض الدلالات المعبّرة عن ذلك وعن سلّم الأولويات فى قصّة هارون مع موسى فى القرآن الكريم، فبعد عبادة بنى إسرائيل للعجل، ورجوع موسى غضباناً من لقاء ربّه، دار بينه وبين أخيه هارون حوار، كان جواب هارون له فيه دالًا، قال تعالى: (قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى* قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى ولا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) (۷)، فإنّ هذا الجواب يفيد أن موسى ۷ نفسه كان أمر أخاه هارون أن لا يفرّق أمر بنى إسرائيل، وأن هارون كان يريد مواجهتهم لكنّه لم يكن قادراً على حسم الموقف لصالحه واقتلاع أساس الفتنة، وكأنّ موازين القوى بين جماعته وجماعة السامرىّ كانت متعادلة أو كان أضعف منهم، سيما حسبما تشير إليه الآية الأخرى: (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وكادُوا يَقْتُلُونَنِى ..) (۸).

من هنا، قدّم هارون وحدة بنى إسرائيل على دعوتهم للحقّ، ولم يشأ إيقاع الفُرقة بينهم رغم ضلالهم، وهذا تعبير ظريف عن ترتيب الأولويات ترتيباً دقيقاً. وهذا فى الجملة ما أقرّ به غير واحد من المفسّرين المسلمين (۹).

واللطيف أننا لو ضممنا هذا الحدث إلى أمر موسى لهارون لما استخلفه على القوم، لوجدنا القرآن يعبّر عنه بقوله: (وَقالَ مُوسى لأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (۱۰) ... ولفهمنا أنّ عدم تفريق بنى إسرائيل هو حُسن خلافة وإصلاح وعدم اتّباع لسبيل المفسدين، أو لا أقلّ يصدق عليه واحدٌ منها، مما يعنى أنّ الحفاظ على وحدة الأمّة إصلاحٌ فى الأرض وعدم إفساد، وهو حُسن إدارة للمجتمع وللمؤمنين؛ ولهذا كان من الأولويات الكبرى فى تسيير أمور الأمة؛ فإذا لم يتمكّن الفريق المحقّ من قلع أساس الفتنة والانحراف فعليه أن يواجهه بطريقة لا تؤدّى إلى إحداث الفرقة والانقسام، وهذا بالضبط ما فعله هارون مع قوم موسى.

۳- مبدأ وحدة الأمة

وتشير إلى هذا المبدأ القرآنى الآيات التالية:

---

۱- القصص: ۷۶.

۲- انظر: الجوهرى، الصحاح ۳۹۰: ۱.

۳- الفروق اللغوية: ۲۷۷.

۴- الكهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

۵- النمل: ۳۶.

۶- غافر: ۷۳- ۷۵.غافر: ۷۳- ۷۵.

۷- طه: ۹۲- ۹۴.

۸- الأعراف: ۱۵۰.

۹- انظر: التبيان ۲۰۱: ۷؛ وجامع البيان ۲۵۳: ۱۶؛ وجوامع الجامع ۴۹۷: ۲؛ ومجمع البيان ۵۱: ۷؛ والأصفى ۷۶۷: ۲- ۷۶۸؛ والميزان ۱۹۴: ۱۴؛ والنحاس، معانى القرآن ۸۳: ۳؛ وتفسير السمرقندى ۴۱۰: ۲؛ وزاد المسير ۳۱۸: ۵.

۱۰- الأعراف: ۱۴۲.

ص: ۶۱

۱- (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ* وتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ) (۱).

۲- (وإِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ* فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ* فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) (۲).

والسؤال الرئيس هنا: ما هو المشار إليه بحرف الإشارة «هـذه»؟ فإنّ تحديده فى غاية الأهمية لمعرفة مدى دلالة الآيتين على مبدأ وحدة الأمة المسلمة بالمعنى العام للإسلام.

أ- يفهم من كلمات بعض العلماء- مثل السيد محمّد باقر الصدر (۳)- أنّ المشار إليه هو أمة الإنسانية كلّها، وأن المخاطب بهذا الخطاب هم الأنبياء، فكأنّ الله يخاطب الأنبياء بأنّ البشر كلّهم أمّة واحدة، وطبقاً لهذا المعنى قد يصعب التوصّل إلى استفادة وحدة الأمة المؤمنة بوصفه مبدءاً من مبادئ العلاقات الداخلية بين المسلمين، إلا من حيث إنه إذا كان البشر أمة واحدة فالأمة المسلمة واحدة بطريق أولى.

لكننا نلاحظ على هذا التفسير أنّه:

أولًا: يخالف السياق الذى جاءت فيه بعض الآيات، فقد سبقها حديث فى الأنبياء وتعريف بهم كل واحد بعد الآخر، ثم ختم الحديث بمريم فى سورة الأنبياء، ثم جاء الخطاب المذكور؛ مما يفيد أن المشار إليه الأنبياء والرسل ورسالاتهم، وكأن المعنى أن موسى وعيسى ومريم وغيرهم هم جميعاً أمة واحدة تصدر عن مصدر واحد وأن الفُرقة والتمييز بين الموسوية والمسيحية و .. جاءت من الناس الذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً وصاروا أحزاباً وديانات، فقسّموا الدين الواحد الذى جاء به الأنبياء كلّهم.

ولعلّ الذى أوجب تصوّر توجّه هذا الخطاب إلى الأنبياء هو ما سبق هذه الآيات فى سورة المؤمنون؛ حيث كانت الآية السابقة: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوْا مِنْ الطَّيِّبَات واعْمَلُوا صَالِحَاً إِنِّيْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلِيْم) (۴)، فتُصوّر أنّ الخطاب الثانى جاء استمراراً للخطاب الأوّل، فى حين أنّ ما أشرنا إليه وما سيأتى يمنع عن توجّه هذا الخطاب للأنبياء.

ثانياً: إن هذا المعنى يلزم منه أن تكون الآية اللاحقة حديثاً عن الأنبياء أنفسهم؛ فإذا كان الله يخاطب الأنبياء ويقول لهم: إنّ هذه أمتكم أمّة واحدة واعبدونى، ثم يقولون: إنهم تمزّقوا وتفرّقوا، فهذا يعنى أن الأنبياء هم سبب التفريق، فليلاحظ السياق جيّداً، وهو معنى غير محتمل قرآنياً كما هو واضح.

ثالثاً: إنّ هذا التفسير يعارض آيات أخرى نصّت على أنّ البشر كانوا أمّة واحدة لولا الاختلاف الذى حصل بينهم، وأنهم سيظلّون مختلفين إلى ما شاء الله، فهذا يعنى أنّ وحدة البشرية- قرآنياً- أمرٌ غير مستقر، وأن الاختلاف هو الحاكم، فكيف يخاطب الأنبياء ويقول لهم: إنّ البشر أمة واحدة؟! قال تعالى: (كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ..) (۵)، وقال: (لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً ولَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم ..) (۶)، وقوله: (وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ...) (۷)، وقال: (ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (۸)، وقال: (وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ ...) (۹).

من هنا، نستبعد هذا الاحتمال فى تفسير الآية الكريمة من حيث مرجع الإشارة فيها.

ب- وذهب بعض المفسّرين القدامى إلى أنّ المقصود بالأمّة هنا هو الدّين، فيكون المعنى أنّ دينكم واحد وأن هذه الديانات التى جاء بها الأنبياء السابقون كلّها دين واحد، وقد نُسب هذا التفسير إلى ابن عباس ومجاهد والحسن و .. (۱۰).

ويبدو أنّ هذا التفسير يأخذ المضمون التفسيرى للآيات، لأن معنى كون هؤلاء الأنبياء جميعاً أمتنا- وهى أمة واحدة- تعبيرٌ آخر عن وحدة الدين، وإلا فكلمة الأمة قد لا تكون منصرفةً- لغةً وعرفاً- إلى الدين والديانة، ما لم تحشد إلى جانبها شواهد وقرائن.

ج- ما نراه من أنّ الآية بعد أن استعرضت- قبلها- عدداً من الأنبياء والأولياء الصالحين وتحدّثت عنهم، استأنفت خطاباً وجّهته

للمؤمنين جميعاً- باختلاف دياناتهم- بأنّ هؤلاء الأنبياء والأولياء كلّهم أمّة واحدة وجماعة واحدة هى أمّتكم، وأنهم يسيرون على خطّ واحد لا تفريق بينهم ولا تمييز بين موسى وعيسى و ... فاتقوا الله واعبدوه، ثم تتحرّك لتشير إلى سبب الفُرقة والخلاف، فقد يطرأ فى الذهن سؤال: إذا كان عيسى وموسى على خطّ واحد ودين واحد، فكيف صارت ديانتهما مختلفة وأنصارهما متباعدين متناحرين أحدهما يسمّى اليهودية والثانى المسيحية وبينهما سيف ودماء وتكفير ولعن؟!

فأشارت الآية اللاحقة- فوراً- إلى أنّ أنصار هؤلاء الأنبياء هم السبب؛ حيث قطّعوا أمرهم بينهم زبراً، أى جعلوها كُتُباً ذهب كل واحدٍ لكتاب، أو صاروا قطعاً- كما هو أحد معانى الزبر لغةً كما قيل- وصار كل فريقٍ يفخر بمصالحه الحزبية والفئوية، فيما كان المطلوب منهم التوحّد تحت التعاليم الحقيقية للرسالات السماوية البعيدة عن كل هذه الإضافات والتأويلات والتحريفات التى ابتدعوها فيما بعد.

وبناءً عليه، تدلّ الآية الكريمة على وحدة أمّة الأنبياء والأولياء والمرسلين وأنّه لا اختلافات بينهم.

من هنا، قد يصعب الاستناد إلى هذه الآيات لتأسيس مبدأ وحدة الأمة المسلمة، حيث المقصود وحدة الرسل ورسالاتهم، لا وحدة المسلمين والمؤمنين مع اختلافهم.

---

۱- الأنبياء: ۹۲- ۹۳.

۲- المؤمنون: ۵۲- ۵۴.

۳- انظر: اقتصادنا: ۳۲۴.

۴- المؤمنون: ۵۱.

۵- البقرة: ۲۱۳.

۶- المائدة: ۴۸.

۷- يونس: ۱۹.

۸- هود: ۱۱۸- ۱۱۹.

۹- النحل: ۹۳.

۱۰- انظر: التبيان: ۲۷۷: ۷، ۳۷۵.

ص: ۶۲

لكن يمكن أن يقال: إذا كانت الآيات تحمّل المتحازبين مسؤولية تفريق الأنبياء عن بعضهم فى ذهن الناس ووعيهم، فمن الدلالة الأوضح حينئذٍ أن تنهى عن تناحر الأمة المسلمة، فكما كان عيسى وموسى ومحمد على خطّ واحد وهم جماعة واحدة، كذا الداخل الإسلامى هو خطّ واحد لا ينبغى التفريق فيه ما دام يتبع هؤلاء الأنبياء جميعاً؛ فالأمّة المتديّنة أمة واحدة من حيث وحدة منطلقاتها الدينية، فبهذا المقدار- فقط- تدلّ هذه الآيات لا أكثر.

۴- مبدأ الولاية المتبادلة

نقصد بهذا المبدأ أنّ المسلمين بعضهم أولياء بعض، يمثلون كياناً واحداً، وينصرون بعضهم بعضاً، فهم أمّة من دون الناس.

وتدلّ على هذا المبدأ الآيات التالية:

۱- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ) (۱).

۲- (وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (۲).

والذى يمكن أن نستنتجه من دراسة هذه الآيات- على مستوى دائرة بحثنا هنا- ما يلى:

أولًا: الولاية فى الآية الأولى هنا تحتمل عدة معانى، وقد يكون الجامع بينها- على تقدير وجود جامع عرفى- هو المراد؛ فالولاية:

أ- قد تكون بمعنى النصرة والإعانة؛ فيكون المقصود بهذه الآيات أنّ المؤمنين ينصر بعضهم بعضاً ويتداعى بعضهم لمصلحة بعضهم الآخر، وقد يتعزّز هذا الاحتمال بورود مفهوم النصر والإيواء فى الآية الأولى (۳).

ب- وقد تكون بمعنى المحبة والمودّة، فيكون المعنى أنّ بين المؤمنين حبّاً وودّاً ورحمة وألفة فى القلوب؛ فتدلّ الآيات على مبدأ الألفة الإسلامية الذى سيأتى التعرّض له قريباً إن شاء الله تعالى.

ج- ولعلّ المراد من الآية التوارث، بمعنى أنّه يرث بعضهم بعضاً، ولا يرثهم الكفار، وقد نقل هذا الكلام عن جماعة كابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى و .. وأنّهم كانوا يتوارثون على أساس الدين؛ فجاءت آية: (أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ) (۴) فجعلت التوارث بالنسب ومثله، ونسخت الآيةَ التى نحن فيها (۵).

د- وربما كان المراد الولاية بمعنى أنّ كل واحد منهم متكفّل ومتولّى لشؤون غيره؛ فهو موظّف أن يتعهّد مصالح سائر المسلمين وحاجاتهم، فتكون أمور الأمّة المسلمة فى رقبة كلّ واحد من المسلمين، عليه أن يقوم بما يمكنه القيام به تجاهها.

ه- وقد يكون المراد الإشارة إلى عنصر القرب والالتحام والاندكاك حتى أنّ بعضهم من بعض، فتكون معبّرةً عن وحدة الملّة والتمايز عن سائر الملل، ولهذا عبّرت الآيات الأخرى بأنّ الكافرين أيضاً بعضهم أولياء بعض، أى أنّهم ملّة أخرى، فالآيات تريد بيان القطيعة- بهذا المعنى- بين الملّة المسلمة والملّة الكافرة، فى مقابل بيان عنصر الوحدة الجمعية داخل الوسط الإسلامى، فتكون من آيات مبدأ وحدة الأمّة الذى تقدّم الحديث عنه آنفاً.

وقد يكون المرجّح من هذه الاحتمالات- على مستوى الآية الأولى- هو الاحتمال الأوّل؛ لأنّ السياق كلّه حديثٌ عن النصر، وفرضُ لصور وحالات استنصار فريق مسلم ضدّ فريق كافر، ثم التعليق أخيراً بأنّ عدم نصر المؤمنين سيؤدى إلى فتنة، فأقرب الاحتمالات فى هذه الآية هو الأوّل حسب الظاهر، وهو المقدار المتيقّن منها.

إلا أنّ هنا ملاحظة، وهى أنّ الآية نفسها سلبت سلباً شديداً علاقة الولاية بين المسلمين المهاجرين والأنصار من جهة وبين الذين لم يهاجروا، ثم أردفت ذلك فوراً بوجوب نصرهم لو استنصروهم، فلو كان المراد بالولاية النصرة لكان هناك تناقض فى الآية الواحدة،

وهـذا مـا يضـعّف احتمال النصـرة، إلا إذا قيل- كما هو ظاهر بعضـهم- أنّ النصـر هنا مختص فيما إذا استنصـروهم فى الـدين لا مطلق الاستنصار (۶)، كما فى نزاع قبلى أو غيره، فيكون سـلب الولاية سـلب مطلق الإعانة والنصـر لهم ثم أخرجت الآية خصوص الاستنصار للـدين. لكنّ هـذا الكلام غير واضـح فنحن نسـتقرب جداً أن يكون المراد بمسألة الاسـتنصار فى الدين مقابل الاسـتنصار فى القرابة أو العشـيرة، أى أنّ هؤلاء استنصـروكم فيمـا بينهم وبينكم من ديانـة لا- من بـاب قرابـة، فلو استنصـروكم من جهـة قرابـة بينكم وبينهم أو لاعتبارات أخرى فلا يجب عليكم النصـر؛ لأنّ المسـلمين لا ينطلقون فى نصـر بعضهم من معايير من هذا النوع فيحشدون لبعضهم على أسـس قبليـة أو قوميـة أو غيرها كما كانت عليه الحال فى الجاهليـة، وهـذا لا يخلّ بحالـة التناقض الداخلى الذى قد تبتلى به الآية على تقدير تفسيرها بالنصر.

كما أنّ احتمال المحبّـة والمودّة يبـدو بعيـداً عن سـياق الآيات، حيث لا شاهد عليه فيها؛ فهو احتمال بلا شاهد، ولأجل ذلك اسـتبعدنا ذكر هذه الآيات فى مبدأ الألفة الإسلامية القادم بعون الله.

---

۱- الأنفال: ۷۲- ۷۳.

۲- التوبة: ۷۱.

۳- يظهر الميل لهذا الاحتمال من بعض المفسـرين مثل: التبيان ۱۶۲: ۵- ۱۶۳؛ والنحاس، معانى القرآن ۱۷۳: ۳- ۱۷۴؛ والأصفى ۲۷۹: ۱؛ وجامع البيان ۶۷: ۱۰ و ..

۴- الأنفال: ۷۵؛ والأحزاب: ۶.

۵- انظر: جامع البيان ۶۷: ۱۰- ۶۸؛ ومجمع البيان ۴۹۷: ۴؛ والنحاس، معانى القرآن ۱۷۳: ۳- ۱۷۵؛ والقطب الراوندى، فقه القرآن ۳۲۵: ۲، ۳۴۴- ۳۴۵؛ والجصـاص، أحكـام القرآن ۹۸: ۲- ۹۹، و ۹۶: ۳- ۹۸، ۲۶۱؛ والأصفى ۴۴۹: ۱؛ والصافى ۳۱۵: ۲- ۳۱۶؛ وتفسير الواحدى ۴۴۹: ۱- ۴۵۱؛ وتفسير السمرقندى ۳۴: ۲- ۳۵؛ وتفسير ابن زمنين ۱۸۹: ۲؛ وتفسير الثعلبى ۳۷۴: ۴- ۳۷۵ و ..

۶- انظر: مجمع البيان ۴۹۸: ۴.

ص: ۶۳

أمّا احتمال التوارث، فرغم اشتهاره بين القدماء من المفسّرين، إلا أنّنا لم نجد له شاهداً يدعمه، ولعلّ الذى دفعهم إلى ذلك هو الآية التى ذكروا أنّها ناسخة؛ فإن تعبير (أولى) وتعبير (أولياء) أوحى أنّ الفكرة واحدة، سيما وأنّ آية سورة الأحزاب قالت بعد ذلك مباشرة: (.. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ ..)؛ فكأنها تريد أن تقدّم الأولوية لصالح الأقارب على المؤمنين والمهاجرين، ممّا يوحى بنسخها لتلك الآيات.

لكنّ هذا لا شاهد عليه، ومجرد استخدام مادّة: (ولى) لا يعنى وحدة المعنى وهو التوارث، فقد وردت هذه المادة فى القرآن الكريم مرات كثيرة واستخدمت فى حقّ الله تعالى ورسوله مما لا معنى لفرض الإرث الفقهى القانونى فى موردها؛ وربما لذلك لم نجد فى آيات الإرث من سورة النساء- وهى من التى أسّست مفهومه وذكرت تفاصيله- أىَّ شىء من هذا التعبير، مع أنّه كان من المناسب تقرير هذا المبدأ بهذا التعبير هناك.

من هنا؛ قد يترجّح الاحتمال الرابع، بأن يكون معنى الآية أنّ المسلمين أمّة واحدة وكيان واحد، لكلّ واحد منهم ولاية ومسؤولية وقرار ورأى وموقف من قضايا الأمّة، فهم- جميعاً- يقرّرون مصيرهم وأهدافهم وقضاياهم و .. ويشتركون فيما بينهم فى أمورهم، فتكون الآية قريبة من قوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ) (۱)؛ ولهذا لم يكن الذين لم يهاجروا ولم يدخلوا فى رحم الدولة الإسلامية القائمة على عنصر الأرض- وهى المدينة المنوّرة- والشعب- وهو جماعة المسلمين فى المدينة الذين يشكّلهم المهاجرون والأنصار وتعرّضت لهم الآية نفسها ..- هؤلاء ليس لهم المشاركة فى قرار المسلمين؛ لأنّهم بعدم هجرتهم لم ينخرطوا فى الاجتماع الإسلامى السياسى بحسب حالات تلك المرحلة، ولهذا لم يكن لهم ما كان لغيرهم، نعم لو استنصروا المسلمين وجب نصرهم لمكان إسلامهم؛ فهذا المعنى قد يكون أقرب الاحتمالات، ولعلّه هو المراد من كلمات بعض المفسّرين الذين أثاروا هذا الاحتمال تحت عنوان الولاية التى يكون المسلمون بها يداً واحدة فى الحلّ والعقد (۲).

وقد يتعزّز هذا الاحتمال بما ذكره بعض أهل اللغة عندما باشروا تفسير كلمة الولى فقالوا: إنّه من الموالاة واتخاذ المولى وعلاقة الولاية، بل بعضهم لم يأت على ذكر معنى المحبة والمودّة والنصرة وأمثال ذلك (۳).

وقد ينتصر للاحتمال الخامس، بما ذكره بعض أهل اللغة فى تفسير كلمة الولى مباشرة من أنّها من القرب والدنوّ، بل الأصل اللفظى فيها ذلك (۴).

وعليه، فإذا فسّرت الآية بالاحتمال الرابع أو الأوّل، فهى تؤسّس مبدأ جديداً من مبادئ العلاقة بين المسلمين، وهو مبدأ النصر أو حقّ تقرير المصير، أمّا على الاحتمال الثانى أو الخامس فترجع إلى بعض المبادئ التى تقدّمت هنا أو ستأتى؛ ولهذا فصلنا مبدأ الولاية المتبادلة عن سائر المبادئ لوجود احتمال قوى فى انفكاكها عنها.

ثانياً: تحذر الآية من عدم حصول الولاية المذكورة فيها، وترى أنّ عدمها سيؤدى إلى فساد كبير وإلى فتنة فى الأرض، وهذا العنوان يمكن تكييفه مع أكثر الاحتمالات المتقدّمة فى تفسير الولاية؛ فإذا فسّرناها بالنصرة كان المعنى أنّ عدم نصر المؤمنين لبعضهم سيخلق فتنة وحرباً وضلالًا- على حسب تفسيراتهم لكلمة الفتنة فى القرآن (۵)- وكذلك عدم كونهم مشتركين فى أمورهم وملّة واحدة دون سواهم، أو عدم وجود التحابّ فيما بينهم، نعم احتمال الميراث قد لا يكون واضحاً بالدرجة عينها؛ فإنّه إذا لم يتوارثوا فيما بينهم فهل ستكون النتائج بهذا الحجم الكارثى الذى تبيّنه الآية بهذه اللغة الصارمة؟! ولعلّ هذا من مضعّفات هذا الاحتمال.

ثالثاً: الملاحظ من الآية الثانية أنّها مفتوحة على أكثر من احتمال فى تفسير الولاية، بل قد سعى مثل الثعلبى (۴۲۷ ه-) لجمع أكثر من معنى فيها كالنصرة والمحبة و .. (۶)، وإن كان احتمال التعاون والمشاركة والنصرة ودعم كل فريق لآخر وارداً بقوّة أكبر هذه المرة، وذلك أنّها أعقبت تأسيس مفهوم الولاية المتبادلة بسلسلة من الواجبات والفرائض التى يشتركون فى العمل بها، فكأنهم يعاونون بعضهم بعضاً فيها، وقد يبدو من كلمات المفسّرين الميل هنا إلى مسألة النصرة والتعاون (۷)، وقد فسّرها الواحدى (۴۶۸ ه-) بالرحمة

والمحبّة (۸).

۵- مبدأ الألفة الإسلامية والرحمة الإيمانية

وتشير إلى مبدأ تأليف القلوب وإحلال الرحمة فى العلاقات الدينية آيات:

۱- (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ* وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (۹).

۲- (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ...) (۱۰).

۳- (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) (۱۱).

فالآيتان الأوليان تطرحان مبدأ مهماً جداً، هو مبدأ الألفة بين المؤمنين، وتشيران إلى أنّ الإسلام سببٌ للألفة، وأن التعادى والتباغض الذى يكون بين الناس يزول بدخولهم الإسلام، والميزة هنا أنها لا تتحدّث عن اتحاد اجتماعى فى الأمة المسلمة أو سياسى أو عسكرى أو اقتصادى أو ... وإنما تطرح مبدأ الألفة القلبية؛ لذلك ورد فى الآيتين الحديث عن تأليف القلوب، أى أننا دخلنا هنا فى المشاعر والأحاسيس والعواطف التى تنقل المسلمين- بالإسلام- من مرحلة التعادى والتباغض إلى مرحلة التوالف والتحابّ؛ لأنّ الألفة- كما قيل (۱۲)- هى الاجتماع على الموافقة فى المحبّة، وقد جعلت الآية الثانية حالة التآلف القلبى هذه سبباً أو مرحلةً أسبق من مرحلة صيرورتهم إخواناً، فأخوّتهم جاءت فى تآلف قلبى، وليس من علاقة مصالح أو قرابة أو نسب أو قومية.

ويمكن الاستئناس بآية قرآنية دالّة هنا تدعم الفكرة التى نقول، وهى قوله تعالى: (لا يُقَاتِلُوْنَكُمْ جَمِيْعَاً إلا فىْ قُرَىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيْدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيْعَاً وَقُلُوبُهُم شَتّى ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُوْن) (۱۳)؛ فهذه الآية الكريمة تنتقد حال الأعداء وتصفهم بأنّهم يبدون لكم على كلمة

---

۱- الشورى: ۳۸.

۲- انظر- على سبيل المثال-: التبيان ۱۶۲: ۵؛ والراوندى، فقه القرآن ۳۴۴: ۲.

۳- انظر: العين ۳۶۵: ۸- ۳۶۶.

۴- انظر: الصحاح ۲۵۲۸: ۶؛ ومعجم مقاييس اللغة ۱۴۱: ۶؛ والمفردات: ۵۳۳.

۵- انظر فى تفسيرهم لهذه الآية- على سبيل المثال-: مجمع البيان ۴۹۹: ۴.

۶- تفسير الثعلبى ۶۷: ۵.

۷- انظر- على سبيل المثال-: مجمع البيان ۸۷: ۵؛ والجصاص، أحكام القرآن ۳۶۹: ۲؛ وتفسير السمرقندى ۷۲: ۲- ۷۳؛ وتفسير السلمى ۲۸۰: ۱ و ..

۸- تفسير الواحدى ۴۷۲: ۱.

۹- الأنفال: ۶۲- ۶۳.

۱۰- آل عمران: ۱۰۳.

۱۱- الفتح: ۲۹.

۱۲- انظر: الطوسى، التبيان ۱۵۱: ۵.

۱۳- الحشر: ۱۴.

ص: ۶۴

واحدة، وصورة فاردة، وجسم واحد متراصّ، إلا انّهم متفرّقون من حيث القلوب والباطن، وهذا هو الذى أشرنا إليه، من أنّ الإسلام لا يريد لأبنائه مجرّد وجود تحالف سياسى أو عسكرى أو اقتصادى بينهم، بحيث يبدون فى الظاهر متّحدين فى مؤسّسات أو اتحادات أو منظمات أو .. فيما هم فى قلوبهم وفيما إذا خلى بعضهم إلى بعض لا يضمرون لبعضهم سوى الحقد والضغينة، ويتمنى كلّ واحدٍ منهم أن يقضى على الآخر؛ فهذه هى السلبية عينها التى تعرّضت لها هذه الآية فى وصف الكافرين؛ من هنا ركّز القرآن الكريم على مفهوم الألفة والمحبة.

ووفقاً لما قلناه، فإذا أردنا أن نسير مع هذا المبدأ القرآنى، فلا نطالب داخل المجتمع الإسلامى بتحالفات أو اتفاقات أو تفاهم أو عقود أو ... وإنما بما هو أعمق من ذلك وبما هو سببٌ لهذه الأمور جميعها، ألا وهو التآلف القلبى الذى يدفع المسلم لحبّ أخيه المسلم، لا لكرهه أو الحقد عليه أو التشفى منه أو الانتقام أو البغض أو التربّص أو ... فقط لأنّه مختلف معه فى المذهب أو القوميّة أو العشيرة أو اللغة أو ...

وفى تقديرى، فمبدأ الألفة من أهمّ المبادىء القرآنية فى علاقات المسلمين ببعضهم؛ ولست أدرى ماذا سنجيب لو سُئلنا: ما دام القرآن يؤلّف- بنعمة الهداية- القلوبَ، فكيف صار الحقد والضغينة والكره أساساً اليوم فى علاقات المسلمين ببعضهم؟! وكيف صارت نعمة التوالف والتآلف سبباً لنقمة التباغض والتعادى؟!

وقد نزلت الآيتان أو طبّقتا تطبيقاً بارزاً- على ما فى بعض التفاسير (۱)- فى الأوس والخزرج، بل قيل: إنّه مذهب أكثر المفسرين (۲)، لكنّهما لا تقفان عندهم- كما هو واضح- لعدم وجود خصوصية فى الرسالة التى تريد الآيتان أن تعطيها، ما دامت العلّة واحدة وهى الإسلام بحسب معطى الآية الأولى نفسها سيما بقرينة ضمّها إلى الآية الثانية، وما دام عموم المؤمنين يشمل الأنصار والمهاجرين و .. فقد كانت بينهم عداوات كبيرة جداً لا تخفى على أىّ مطلع على تاريخ العرب الجاهليين، لكنّ الله- مع ذلك- صيّرهم قلباً واحداً بنعمة الإيمان؛ والملفت أنّ الآية الأولى استخفّت بالدور المادى فى توليف القلوب فى حين أعطت القدرة للدور المعنوى وهو الدين، فإذا كانت كلّ أموال الدنيا لا- تستطيع أن تؤلّف القلوب؛ فذلك لأنّ عملية التأليف القلبى لا تقف عند حدود العلاقة الطيبة أو التحالف السياسى أو الاشتراك فى المصالح، بل تتعدّاه إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو أمر لا يمكن للعامل المادى عادةً أن يفعله؛ لهذا ركّزت الآية على أنّ الدين قادر على عملية التوحيد والتوليف أكثر من قدرة العناصر المادية على ذلك، وهذه نقطة مهمة؛ بل يمكن أن نضيف ما ذكره الفخر الرازى (۶۰۶ ه-) فى تفسيره من أنّ سبب عداوة العرب لبعضهم كان المال والمصالح المادية فألّف الإسلام بين قلوبهم لجعله القيم المعنوية هى المعايير فى الحياة، ثم لمّا عادت هذه المصالح إلى المسلمين بعد وفاة النبى عادوا للتصارع مرّةً جديدة (۳)، وهو ما تشير إليه التحليلات العرفانية لابن عربى (۶۳۸ ه-) فى تفسيره أيضاً (۴).

ولعلّ وقوع جملة تأليف القلوب بالإسلام فى سياق الآيات الحاثة والمتحدّثة عن نصر النبى وتقويته قبل هذه الآية (الأولى) وبعدها، فيه إشارة إلى الدور الذى يلعبه تأليف القلوب الإسلامية بالإسلام فى تحقيق العزّة والنصر والمنعة والقوّة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنّ الآية الثانية ركّزت مرّتين على وصف النعمة، وهى إشارة دالّة ومعبرة، من حيث إن الإسلام بتوحيده القلوب ونشر ثقافة الأخوّة قد ألقى نعمةً إلهيةً على الناس، وهذه النعمة سواء جعلناها الإسلام أم محمداً أم القرآن أم أىّ شىء آخر .. فهى فى نهاية المطاف ترجع إلى الدين الذى هو الظاهرة التى استجدّت فى الحياة العربية آنذاك، بحيث يتصوّر نسبة التوالف المستجدّ- بقرينة قوله: (فَأَصْبَحْتُم)- إليها.

والآية أيضاً واضحة فى أنّ التأليف كان مقدّمةً للأخوة، وهذا معناه أنّ الأخوة لا تعنى مجرّد العلاقات الطيبة أو المصالح المشتركة على أساس قبلى أو وطنى أو قومى أو عشائرى أو حتى دينى .. تصاحبها حالات تنافر قلبى فى واقع الأمر لو خلّى كلّ فريق ونفسه، كما هى حال أمّتنا اليوم فى غير موقع، بل تنتج من عملية توليف القلوب فى مرحلة أولى؛ ليعقبها تحقّق مفهوم الأخوة، فكأن التلازم

السببى أو تلازم السابق مع اللاحق كان شديداً حتى عبّرت الآية ب- (فَأَصْبَحْتُم) مستخدمةً الفاء الدالّة على العطف بلا تراخى.

وبتحليل صيغة الأمر فى مطلع النص (وَاذْكُرُوا) نفهم أنّ تذكّر هذه النعمة واجبٌ شرعى، بيد أنّه ليس مأخوذاً على نحو الموضوعية المستقلّة، بمعنى أنّ التذكّر هنا لا يهدف منه مجرّد التذكّر، وإنّما استشعار المنّة الإلهية؛ لأنّ الآية وردت فى سياق الامتنان الذى أعقب طلب الوحدة وعدم الفرقة، وهذا معناه أن هذا التذكر لتحوّل حالهم من التمزّق إلى التوافق إنّما يراد منه السعى دوماً لإبقائه ضمن المناخ الإسلامى، فعندما تقول لشخص: أحسن التصرّف فى مالك؛ وتعلل له ذلك بقولك: وتذكّر كيف كنت فقيراً فأعطيناك المال؛ فهذا معناه أنّ التذكّر هنا أخذ لكى يكون مقدّمةً للأمر الأوّل، وهو حسن التصرّف فى المال، وهنا الأمر كذلك، يكون التذكّر مقدّمةً لتحقيق الاعتصام بالحبل الإلهى وعدم التفرّق، فالجملة خبرية الروح عن واقعهم التاريخى، إنشائية الصياغة من حيث إرادتها الحفاظ على هذه النعمة.

ويمكن تعزيز هذا المبدأ بآية قرآنية أخرى ذات صلة، وهى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (۵)، فإنّ رفع الغلّ- وهو الحقد والضغينة والعداوة- درجة من الدرجات الأولى لبلورة الألفة والمحبة، بل هذا الدعاء بنفسه تعبير عن محبة وعطف وصدق مع المؤمنين، ولعلّه لذلك ختمت الآية بأوصاف الرأفة والرحمة فى البارى تعالى شأنه.

وهذا ما يجعلنا نطلّ على الآية الثالثة من آيات هذا المبدأ، تلك الآية التى تشيّد مبدأ الرحمة الإيمانية، فالمؤمنون فيما بينهم رحماء تحكم علاقاتهم الرحمة وليس المصالح، فهم يخافون على بعضهم ويشفقون على رجالهم ونسائهم، ويتحنّنون على بعضهم، فهذا هو معنى الرحمة التى تذكرها الآية، وهى تستدعى مساعدة بعضهم بعضاً فى الشدائد، والوقوف إلى جانب بعضهم (۶)، وتبدو هذه الرحمة بمظهر المذلّة أمام المؤمن والتواضع وخفض الجناح معه لا التكبّر والتعالى؛ قال تعالى: (أذلّةٌ على المؤمِنِينَ أعِزّةٌ عَلَى الكَافِرِيْن (۷)، فإنّ الآيتين تتشابهان فى التعبير والتركيب والغاية، وتتقاربان فى الفكرة والمضمون.

والعنصر البلاغى فى تعبير الآية أنّها جعلت الرحمة فى مقابل الشدّة مع أنّ الشدة لا تقابلها الرحمة، وهذا ناتجٌ- كما يقول التفتازانى (۷۹۲ ه-) (۸)- عن كون الرحمة مسبَّبةً عن اللين؛ فهذا اللين وتلك الطراوة القلبية هما اللذان ينتج عنهما أو تلازمهما الرحمة فى الوسط الإسلامى.

---

۱- انظر: تفسير أبى حمزة الثمالى: ۱۸۶؛ وتفسير القمى ۱۰۸: ۱، ۲۷۹؛ والتبيان ۵۴۶: ۲، و ۱۵۱: ۵؛ والكشاف ۴۵۱: ۱، و ۱۶۶: ۲- ۱۶۷؛ وجوامع الجامع ۳۵: ۲- ۳۶؛ ومجمع البيان ۳۵۷: ۲، و ۴۸۹: ۴؛ وجامع البيان ۴۵: ۴- ۴۶، و ۴۶: ۱۰- ۴۷؛ وتفسير ابن أبى حاتم ۱۷۲۷: ۵؛ والجصاص، أحكام القرآن ۹۱: ۳؛ والأصفى ۴۴۶: ۱؛ والصافى ۳۶۶: ۱؛ والميزان ۱۱۸: ۹؛ والأمثل ۶۱۸: ۲- ۶۱۹، و ۴۸۰: ۵ مع تركيزه على التعميم بعد ذلك؛ وتفسير السمرقندى ۳۰: ۲؛ وتفسير الثعلبى ۳۷۰: ۴؛ وتفسير الواحدى ۴۴۷: ۱؛ وتفسير البغوى ۲۶۰: ۲؛ والنحاس، معانى القرآن ۴۵۴: ۱- ۴۵۵؛ وتفسير النسفى ۷۲: ۲؛ وزاد المسير ۲۵۶: ۳؛ والتفسير الكبير ۱۸۹: ۱۵؛ وتفسير القرطبى ۴۲: ۸؛ والغرناطى الكلبى، التسهيل لعلوم التنزيل ۶۸: ۲؛ وتفسير الثعالبى ۱۵۱: ۳ و ..

۲- تفسير السمعانى ۲۷۶: ۲؛ وابن عطية الأندلسى، المحرر الوجيز ۵۴۸: ۲؛ وأبو حيان الأندلسى، تفسير البحر المحيط ۵۱۰: ۴؛ والشوكانى، فتح القدير ۳۲۲: ۲.

۳- الفخر الرازى، التفسير الكبير ۱۹۰: ۱۵.

۴- ابن عربى، تفسير القرآن الكريم ۲۸۲: ۱- ۲۸۳.

۵- الحشر: ۱۰.

۶- انظر مواقف المفسّرين من الآية وهى توجز بعض ما نقول فى: تفسير مقاتل بن سليمان ۷۹: ۲، و ۲۵۴: ۳، ۳۲۷؛ وجامع البيان ۱۴۱: ۲۶- ۱۴۲؛ والتبيان ۳۳۶: ۹؛ وتفسير السمرقندى ۳۰۴: ۳؛ وتفسير ابن زمنين ۲۵۸: ۴؛ والميزان ۲۹۹: ۱۸؛ وتفسير الثعلبى ۶۴: ۹؛ وتفسير الواحدى ۱۰۱۴: ۲؛ وتفسير السمعانى ۲۰۹: ۵؛ وتفسير البغوى ۲۰۶: ۴؛ والأمثل ۴۹۵: ۱۶، ۵۰۳؛ وتفسير النسفى ۴۵۹: ۱؛ وزاد المسير ۱۷۳: ۷؛ وتفسير القرطبى ۲۹۲: ۱۶- ۲۹۳؛ وتفسير البيضاوى ۲۰۹: ۵؛ وتفسير أبى السعود ۱۱۴: ۸؛ وروح المعانى ۱۲۳: ۲۶ و ..

۷- المائدة: ۵۴.

۸- سعد الدين التفتازانى، مختصر المعانى: ۲۶۶.

ص: ۶۵

۶- مبدأ الأخوّة الإسلامية

وهو مبدأ هام، تعطيه الآيات التالية:

۱- (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (۱).

۲- (.. واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ...) (۲).

۳- (ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...) (۳).

۴- (فَإِنْ تابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ونُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (۴).

۵- (ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ومَوالِيكُمْ ...) (۵).

۶- (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الأُنْثى بِالأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ ..) (۶).

۷- (.. ولا يَغْتَبْ بعْضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْه ..) (۷).

فهذه الآيات تقرّر مبدأ الأخوة الدينية مع اليتامى ومجهولى الوالد، ومع كلّ من دخل الإسلام وتاب إلى الله تعالى من الكفر والشرك، بل الآيتان الأخيرتان تأخذان هذا الأمر مفروغاً عنه، وتستند الأخيرة إليه للردع عن الغيبة وتشويه فعل صاحبها. ومبدأ الأخوّة يعنى تساوى المسلمين فيما بينهم، فليس أحدهم أباً لأحد ولا الآخر ابناً للأوّل، بل هم إخوة لكلّ واحدٍ منهم ما للآخر، وعلى كلّ واحد منهم ما على الآخر، وهذه هى نكتة الأخوّة التى تستبطن التساوى أيضاً فى المواقع والحقوق والواجبات من حيث المبدأ.

والدلالة الأهم فى هذه المجموعة من الآيات أنها تفيد الحصر بحسب الآية الأولى منها، فكلمة (إنما) تفيد الحصر عند الكثير من اللغويين وعلماء أصول الفقه الإسلامى، فقد حصرت المؤمنين- ولو على نحو المبالغة- بأن يكونوا إخوة، وكأنّه لا معنى لهم سوى أن يكونوا إخوة، وقد رتّبت على هذه الأخوة المجعولة وجوب إصلاح ذات بينهم عندما يقع بينهم تنازع أو اختلاف، فليس السعى للإصلاح لمصالح وقتية أو لأهداف مرحلية، بل لأنّ حالة الأخوّة هى الحالة الطبيعية التى يفترض أن تحكم المجتمع الإسلامى بحسب النظرية القرآنية، واللطيف أنّها عبّرت بالأخوين، وهذا يدلّ على أنّ المصلح أخٌ لكلّ طرف من طرفى التنازع، وهو ما يشير إلى أخوة طرفى التنازع أيضاً؛ لقضاء العادة بأنّ من أكون أخاً لهما يكونان أخوين لبعضهما بعضاً أيضاً، فهو من أوجز الكلام وألطفه كما يقول العلامة الطباطبائى (۱۴۱۲ ه-) (۸)، ويشير إلى تصوير بليغ للأمّة المسلمة على أنّها أسرة واحدة (۹).

وتعجبنى هنا عبارة الزمخشرى (۵۳۸ ه-) فى الكشاف: حيث يقول: «والمعنى ليس المؤمنون إلا إخوة وهم خلص لذلك متمحّضون قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم فى التماذج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولّد منه التقاطع ..» (۱۰).

والإيمان فى هذه الآية يقصد به الإسلام لا المعطى المذهبى الخاص كالتشيع الاثنا عشرى؛ لأنّ إطلاق عنوان المؤمن على المسلم الإمامى، حدث فيما بعد لا فى زمن الرسول، فليس حقيقةً شرعيّةً فى تلك الأزمنة كما هو واضح؛ فتشمل كلّ هذه الآيات مطلق طوائف المسلمين وانتماءاتهم.

التكفير وعمليات التفلّت من المبادئ الوحدوية القرآنية

هذه المبادئ التى ذكرناها، لا إشكال فيها وهى واضحة؛ لكنّ مشكلة المسلمين عبر الزمن- رغم علمهم بهذه المبادئ بشكل أو بآخر- أنهم لما كانوا يريدون التنازع مع فريق مسلم كانوا يستبقون ذلك بتكفيره؛ وبهذه العملية كان يتمّ التفلّت والتملّص من كل الخطابات القرآنية الداعية لوحدة الصفّ وألفة القلوب؛ لأنّك عندما تخرج جماعةً من الإسلام فأنت بذلك لا تعود مخاطباً بحقوق المسلم معهم؛ بل إنك سوف ترفض التقريب والوحدة مع هذه الجماعة؛ لأنّه تقريب بين المسلمين والكافرين لا بين المسلمين أنفسهم.

من هنا، كانت ظاهرة التكفير التى عرفها تاريخ الإسلام، واشتهرت بها جماعات معروفة عبر التاريخ الإسلامى كقدامى الخوارج

وغيرهم، أكبر إضعاف لمبادئ الوحدة الإسلامية، وهذا ما يستدعى من الفقهاء المسلمين دراسة جادّة لأصول الإسلام والكفر؛ حتى يتميّز الكافر من المسلم بدقة، ولا يُتسرّع فى عملية تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، والبحث فى هذه النقطة خارج عن هذه الدراسة.

لكنّنى- من باب الإشارة- يحلو لى هنا أن أنقل كلامين هامّين- بنظرى- لشخصيتين إسلاميتين شيعيتين بارزتين، تصدّرتا أهم مواقع المرجعية والفكر الشيعى فى القرن العشرين، ألا وهما: الإمام روح الله الخمينى (۱۴۱۰ ه-)، والشهيد السعيد محمد باقر الصدر (۱۴۰۰ ه-)، كلامين مدوّنين فى مصادر بحثهما الفقهى الداخلى، لا كلامين سياسيين، قد تمنعهما سياسيّتهما عن الدلالة والتعبير، يشيران إلى أنّ إنكار مبدأ إمامة أهل البيت:، وهو أكبر مبدأ فى المذهب الشيعى بعد الشهادتين، لا يخرج الإنسان عن الإسلام، فما ظنّك بعد هذا بسائر المبادئ والأفكار، حتى لو كان المنكر مخطئاً وغير مصيب.

---

۱- الحجرات: ۱۰.

۲- آل عمران: ۱۰۳.

۳- البقرة: ۲۲۰.

۴- التوبة: ۱۱.

۵- الأحزاب: ۵.

۶- البقرة: ۱۷۸.

۷- الحجرات: ۱۲.

۸- انظر: الميزان ۳۱۵: ۱۸.

۹- انظر: الشيرازى، الأمثل ۵۴۱: ۱۶.

۱۰- الكشاف ۵۶۵: ۳.

ص: ۶۶

النص الأول: يقول الإمام الخمينى فى كتاب الطهارة من مباحثه الفقهية ما نصّه: «إن الإمامة بالمعنى الذى عند الإمامية، ليست من ضروريات الدين، فإنّها [أى الضروريات] عبارة عن أمور واضحة بديهية عند جميع طبقات المسلمين، ولعلّ الضرورة عند كثيرٍ على خلافها، فضلًا عن كونها ضرورة، نعم، هى من أصول المذهب، ومنكرها خارج عنه، لا عن الإسلام» (۱).

النص الثانى: يقول الشهيد محمد باقر الصدر فى كتابه «بحوث فى شرح العروة الوثقى» ما لفظه: «... إن المراد بالضرورى الذى ينكره المخالف، إن كان هو نفس إمامة أهل البيت:، فمن الجلىّ أنّ هذه القضيّة لم تبلغ فى وضوحها إلى درجة الضرورة، ولو سلّم بلوغها- - حدوثاً-- تلك الدرجة فلا شك فى عدم استمرار وضوحها بتلك المثابة، لما اكتنفها من عوامل الغموض، وإن كان هو تدبير النبى وحكمة الشريعة على أساس افتراض إهمال النبى والشريعة للمسلمين بدون تعيين قائد أو شكل يتمّ بموجبه تعيين القائد يساوق عدم تدبير الرسول وعدم حكمة الشريعة، فإنّ هذه المساوقة، حيث إنّها تقوم على أساس فهم معمّق للموقف، فلا يمكن تحميل إنكار مثل هذا الضرورى على المخالف، لعدم التفاته إلى هذه المساوقة أو عدم إيمانه بها» (۲).

فإذن، إنكار السنّى مبدأ الإمامة الشيعى لا يصيّره كافراً، أو منكراً للبديهيات الواضحة، وإن اعتقد الشيعى أنَّ السنّى مخطئ فى اعتقاده، فهذا حقّه، لكن ذلك لا يعنى تكفيره لأخيه والقطيعة معه؛ ف- «ملاك الكفر والخروج من الإسلام هو الإنكار الصريح، لا الإنكار بالملازمة، والخلط بين العقيدة الصريحة والعقيدة الملازمة للعقيدة الصريحة من آفات المذاهب، ومن عوامل تراشق التهم بينها» (۳).

وإذا قدّمتُ هاتين الشخصيتين البارزتين شاهداً، فهناك الكثير من رجالات العلم الشيعى تشهد بهذه الحقيقة، ولربما صحّ قول العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين حينما قال: «الفصل الرابع [من كتاب الفصول المهمة]: فى يسير من نصوص أئمتنا «فى الحكم بإسلام أهل السنّة، وأنّهم كالشيعة فى كلّ أثرٍ يترتّب على مطلق المسلمين، وهذا فى غاية الوضوح من مذهبنا، لا يرتاب فيه ذو اعتدال منّا، ولذا لم نستقص ما ورد من هذا الباب، إذ ليس من الحكمة توضيح الواضحات ...» (۴).

وهكذا الحال فى الطرف الآخر، فإن عدم الاعتقاد بعدالة الصحابة، أو زوجات النبى ۹ أو بعض الخلفاء الأوائل لا يعنى كفراً، بل حتّى لو سلّمنا بسبّهم أو لعنهم، فهو على أقصى تقدير- وفقاً لنظريات الفريق الآخر- معصية كبيرة وجرم عظيم، لكنّ فرقاً واضحاً بين هذا العنوان وعنوان الكفر الموجب للقطيعة، والإخراج عن ربقة الإسلام؛ ذلك أنّ احتمال الخطأ فى الاجتهاد واردٌ، فلعلّ من فعل ذلك أخطأ فى اجتهاده، وما أكثر ما تأوّل السلف وأخطأوا دون حرجٍ عليهم فى ذلك، فأمر التكفير عظيم وخطره جسيم، كما يقول ذلك كلّه العلامة شرف الدين أيضاً (۵).

۷- مبدأ دفع البغى، وجوب الإصلاح ومجاهدة الفرقة الباغية

تكاد تتفق كلمات فقهاء المسلمين أنّ أهل البغى تجب مواجهتهم لتفتيت حركة معارضتهم، ولو كان ذلك موجباً لفتح الحرب معهم، وتعدّ هذه الحرب جهاداً فى سبيل الله.

والدليل القرآنى الذى أسّس هذا المبدأ هو قوله تعالى: (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (۶).

وتقريب الاستدلال بالآية أنه على تقدير وقوع مقاتلة بين طرفين مسلمين وشجار، يجب السعى فى البداية لحلّ النزاع بالصلح والوفاق، فإذا فشلت ألوان المصالحة، وبغت وظلمت إحدى الطائفتين الأخرى، وجب مقاتلة الفئة الباغية حتى ترضخ لأمر الله وحكمه، وهذا منطبق تماماً على التمرّد المسلّح ضدّ النظام الشرعى.

المعطيات الفقهية والقانونية لمبدأ مجاهدة البغاة

وهذه الآية:

۱- لايوجد فيها تخصيص بزمان الحضور حتى يقال: إنها خاصة بالخروج على المعصوم، كما يفهم من كلمات الفقهاء فى البغى (۷)،

بل عامة شاملة لتمام الأزمنة والأمكنة والجماعات، فليس فيها أىّ قيد بهذا الخصوص.

۲- بل إنّ هذه الآية وإن صحّ الاستناد إليها فى محاربة الخارجين عن النظام الشرعى، إلا أنّها غير خاصة بجهاد أهل البغى فى التعريف الفقهى السائد؛ لأنها لا تفرض الطائفة التى بُغى عليها هى الحاكم الشرعى- سواء كان الإمامَ المعصوم أم غيره- بل تطلق لكلّ طائفتين مسلمتين حصل اقتتال بينهما سواء كان هناك نظام شرعى بين المسلمين أم لا، وسواء كان أحد الطرفين المتقاتلين هو هذا النظام الشرعى أم لا؛ فالحروب الداخلية فى البلدان الإسلامية تشملها الآية، كما تشمل الحروب التى تقع اليوم بين الدول الإسلامية، حتى لو كانت الدولتان غير شرعيّتين فى نفسيهما من حيث شرعية نظام السلطة، بل تشمل حتى مقاتلة الأحزاب والقبائل والعشائر وأمثالها لبعضها، وهذا المعنى الأوسع هو ما يظهر من ابن البراج الطرابلسى (۴۸۱ ه-) (۸)، ومن بعض كلمات السيد الخوئى (۱۴۱۳ ه-) (۹)، ومن الشيخ محمد مهدى شمس الدين (۱۰).

وهذا ما يقود إلى ملاحظة، وهى أن أكثر الأبحاث الفقهية ركّزت فى الحروب الداخلية بين المسلمين على جهاد البغاة- بالاصطلاح الفقهى الخاص- مستندةً إلى هذه الآية الكريمة، دون أن تفتح عنواناً أوسع، تحت شعار الحرب الإسلامية- الإسلامية، أو الحروب الداخلية بين المسلمين، ربما لأن القضية فى الحروب الداخلية بين المسلمين فى القرون الأولى غلب عليها ثنائى: السلطة والمعارضة، وهذا ما يؤكّد ما قلناه من ضرورة تعميم العنوان؛ لأن هذه الآية العمدة هنا تصلح حكماً لما هو أبعد من فقه جهاد أهل البغى بالمعنى الفقهى المصطلح؛ سيما بقرينة أسباب النزول القادمة الإشارة إليها.

---

۱- روح الله الخمينى، كتاب الطهارة ۴۴۱: ۳.

۲- محمد باقر الصدر، بحوث فى شرح العروة الوثقى ۳۱۵: ۳.

۳- محمد واعظ زاده الخراسانى، الوحدة الإسلامية عناصرها وموانعها، مجلة رسالة التقريب ۱۱: ۱۵.

۴- عبدالحسين شرف الدين، الفصول المهمّة فى تأليف الأمّة: ۱۸.

۵- راجع حول ذلك: المصدر نفسه: ۴۴-- ۱۳۱؛ وحول موقف السلف من التكفير انظر أيضاً: المصدر نفسه: ۲۶- ۳۸.

۶- الحجرات: ۹.

۷- انظر: منتهى المطلب ۹۸۵: ۲؛ ومسالك الأفهام ۹۱: ۳؛ وجواهر الكلام ۳۲۲: ۲۱؛ ورياض المسائل ۴۵۶: ۷؛ وتفسير الأمثل ۵۳۸: ۱۶؛ والخوئى، منهاج الصالحين ۳۸۹: ۱؛ وفضل الله، كتاب الجهاد: ۴۱۷.

۸- المهذب ۳۲۵: ۱.

۹- وهو ظاهر كلامه فى منهاج الصالحين ۳۶۱: ۱؛ وإن كان تعريفه لأهل البغى عند البحث عن مقاتلتهم يدلّ على حصرهم بالخارجين على الإمام المعصوم، فانظر: المصدر نفسه ۳۸۹: ۱؛ وتابع الشيخُ الوحيد الخراسانى السيدَ الخوئى فى ذلك مستخدماً تعبيره عينه، فانظر له: منهاج الصالحين ۴۰۶: ۲- ۴۰۷.

۱۰- شمس الدين، فقه العنف المسلّح فى الإسلام: ۶۸.

ص: ۶۷

۳- إنّ الظاهر من هذه الآية وجوب مقاتلة الطائفة الباغية؛ لظهور صيغة الأمر فيها فى ذلك: (فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى)، كما أن منتهى مقاتلتهم هو ارتداعهم عما كانوا عليه وإقلاعهم عنه، وهذا ما يشهد عليه تعبير: (حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ)، فليس الهدف قتلهم، بل عودهم إلى الحقّ، وهذه نقطة مهمّة، تلمح إليها بعض الروايات الواردة فى حكم البغاة الذين ليس لهم فئة.

۴- إن الآية ظاهرة فى وجوب البدء بالطرق السلمية فى مواجهة الطرف الباغى، وأن مجرّد بغيه لا يبرّر خوض الحرب معه، فلابدّ من استنفاد تمام الطرق السلمية لوقف القتال، وإن فشلت الجهود، تمّ البدء بمحاربة الظالم من الطرفين، وقرينة ذلك أن أوّل الأوامر فى الآية بعد فرض الاقتتال هو: (فأصلحوا بينهما)، وهو ظاهر فى الترتيب والتقديم، وإعطاء الأولوية لمبدأ الإصلاح.

۵- الظاهر من الآية- بقرينة التعبير بالطائفة- أنها تتحدّث عن معركة بين جماعتين لا عن معركة فرد مسلم مع آخر مثله، وإن قيل بالتعميم لسبب أو لآخر، مما يجعلها خاصّة بموارد صراع الجماعات لا الأفراد، وهذا ما يجعلها أكثر التصاقاً بباب الجهاد منها بباب العقوبات وما شاكل، نعم روى عن مجاهد أن نزول آية البغى كان فى رجلين (۱)، لكنه خلاف الظاهر من الآية، كما هو واضح، ولعلّه أراد أنّ بداية الاختلاف كانت بين رجلين، كما ستأتى الإشارة لذلك- إن شاء الله تعالى- عند الحديث عن أسباب نزولها.

نعم الآية اللاحقة التى سبق الحديث عنها (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ...) تفيد فى إعطاء إطلاق لوجوب الصلح بين مطلق الأخوين دون اختصاص بالجماعتين المتقاتلتين، ففيها توسعة مقارنةً بآية البغى نفسها، وقد ألمح إلى هذا الأمر- فى الجملة- الفخر الرازى (۶۰۶ ه-) (۲).

۶- الظاهر أنّ المراد بالمؤمنين فى الآية مطلق المسلمين؛ لأن ظاهرها فى القرآن ذلك، وإطلاق وصف الإيمان والمؤمن على خصوص الشيعى الاثنى عشرى أمر لاحق- كما قلنا- إذا تمّ، ولهذا لا تختصّ الآية بمحاربة طوائف من المذهب الخاص، بل تعم تمام فرق المسلمين فيما بينهم.

وهذا ما نراه فى تمام الآيات القرآنية، مثل آية النهى عن غيبة المؤمن بقرينة جعل المؤمنين إخوةً فى آيات لاحقة، مما يجعل إخراج المخالف بحاجة إلى دليل أو إلى اعتباره كافراً من رأس.

وثمة بحث هنا وقع بينهم، وهو أن الشيعة تعتبر الخارج عن الإمام المعصوم كافراً، فيما تذهب الطوائف السنّية إلى اعتباره مسلماً مخطئاً فى فهمه واجتهاده، وطبقاً للتفسير السنّى لا مشكلة فى إطلاق وصف المؤمنين على الطائفتين معاً، لإمكان كون الإمام ۷ والخارجين عليه مؤمنين عندهم، أما عند مشهور الإمامية فلابدّ من افتراض- كما حصل عند بعضهم- أن توصيفهم بالمؤمنين كان بلحاظ حالة ما قبل البغى لا ما بعده، أو كان بناءً على ظاهرهم أو على ما يعتقدون هم فى أنفسهم (۳).

وهذه التأويلات غير صحيحة؛ وذلك:

أولًا: إنّ الآية- كما قلنا- لا تتحدّث عن البغى المصطلح فقط، بل عن مطلق صراعات المسلمين مع بعضهم، وعليه فإذا كان المراد من المؤمنين إطلاق الوصف بلحاظ ما كان، أو بلحاظ الظاهر، أو بلحاظ اعتقادهم، فيما لو كان الطرفان هما: السلطة الشرعية والمعارضة المتمرّدة، وإطلاقه على معناه الحقيقى فى سائر موارد البغى الأخرى، يكون من استعمال اللفظ وإرادة معنيين، وهو- بقطع النظر عن استحالته طبق ما بحثوه فى علم أصول الفقه- خلاف الظاهر عرفاً ولا قرينة عليه.

نعم، أصل الإطلاق بلحاظ ما كان لا مانع منه، كما يقال: لو ارتدّ مؤمن وجب قتله كما يقول الشيخ الطوسى (۴) وإن كان هناك فرق.

ثانياً: نحن فى غنى عن هذه التأويلات برفض التحديد الزمانى للآية كما قلنا، فحتى لو حصرنا الآية بالبغى على الإمام الشرعى، إلا أنّ تحديده بخصوص المعصوم لا إشارة فى الآية إليه، كما لا إشارة إلى زمان الحضور، ومعه يمكن تصوّر البغى المصطلح- وهو المعارضة المسلّحة- دون حاجة إلى افتراض كون إمام المسلمين معصوماً، كما فى مثل البناء على نظرية الولاية العامة للفقيه، ولا يقال بكفر الخارج على غير المعصوم، كما هو واضح.

ثالثاً: قد يتبنّى هنا رأى الإمام الخمينى فى النواصب (۵) وأنهم فرقة دينية، ومن ثم ليس كل من حارب ونصب العداء- ولو لسبب دنيوى- يكون كافراً، بل خصوص من نصبه اعتقاداً وإيماناً، بحيث كان نصبه العداء لأهل البيت جزءاً من عقيدته الدينية، لا لمصالح سياسية، من هنا فعائشة أم المؤمنين وكذا طلحة والزبير ومعاوية و ... لا يحكم بكفرهم من هذه الزاوية، لأنهم ما جعلوا نصبهم العداء عن عقيدة وديانة، بل- وفق العقيدة الشيعية- عن مصالح دنيوية أو رغبات مادية أو مواقف سياسية، فلا يحكم بكفر مثل هذا الشخص. وتفصيل هذه المباحث نتركه إلى موضعه.

رابعاً: إنّ الآية اللاحقة نفسها حكمت بأخوّة الجميع؛ ورتبت عليها- كما تقدّم- وجوب الإصلاح بينهم، وهذا معناه أنّها تلاحظ حالهم بعد الاقتتال، وتحكم بالأخوّة فى هذه الحال، وهو خُلْفُ فرض كفر هذا الفريق، إذ كان المناسب التعبير بالارتداد عن الدين، وهذا شاهد قوىّ على عدم كفر مطلق الباغى.

۷- الظاهر من الآية أن حالة البغى- كما يقول الشيخ الآصفى (۶)- حالة مسلّحة، وليست مطلق حالة اختلاف بين الجماعتين المؤمنتين، والشاهد على ذلك التعبير ب- «فقاتلوا» ولم يقل: «فاقتلوا» أو غير ذلك، فإنّه لو لم تكن هناك حالة منعة لدى الطرف الباغى لما صحّ التعبير بالمقاتلة، بل لعبّر عنه بإيقاع الجزاء عليه كالقتل، تماماً كالمحاربين الذين حكمت الآيات بلزوم قتلهم، وهذا ما يدخل البحث هنا فى إطار المعارضة المسلّحة للنظام الشرعى- عندما يكون الحديث عن انطباق مفهوم البغى على موضوع المعارضة- لا المعارضة السلمية وما شابهها.

---

۱- الصنعانى، تفسير القرآن ۲۳۰: ۳، ۲۳۲؛ والطبرى، جامع البيان ۹۲: ۱۸- ۹۳.

۲- التفسير الكبير ۱۲۹: ۲۸.

۳- النجفى، جواهرالكلام ۳۲۳: ۲۱؛ والآصفى، الجهاد: ۱۲۷.

۴- الطوسى، التبيان ۳۴۶: ۹.

۵- الإمام الخمينى، كتاب الطهارة ۴۵۷: ۳- ۴۵۸.

۶- الآصفى، الجهاد: ۱۲۸- ۱۲۹.

ص: ۶۸

وهـذا ما يجعل الشـروط الثلاثـة التى ذكرها بعضـهم مفهومة؛ حيث شـرطوا فى تحقق مفهوم البغى أن يكون الباغى متمرّداً على سـلطة الدولة، وقد ناقشنا هذا الكلام من حيث تخصيص البغى به، وأن يكون له قوّة تمنعه وتمكّنه وتحميه، وأن يمارس خروجاً مسلحّاً (۱).

وعليه فما ذكره بعض العلماء من شـمول الآيـة لمطلق الخلافات حتى غير القتالية (۲) غير واضـح، وربما يقصد ما يرجع لروح الآية من حيث مسألة الإصلاح، كما يلوح من كلامه.

۸- ورد فى الآية فرضان هما:

الفرض الأول: أن تقتتل طائفتان من المؤمنين، والحكم هنا هو المصالحة بينهما والوفاق.

الفرض الثانى: أن يحصـل بغى من إحـدى الطـائفتين على الأـخرى، فيجب المقاتلـة، وهو ظاهر- كما يقول الشـيخ الآصـفى (۳)- فى مشاركة الفريق المحايد المصـلح فى الحرب لصدّ البغى عن الطائفة التى معها الحق، وقد ذكر هنا أنه بعد الفيء يجب الإصـلاح أيضاً، فيكون المراد بالفيء الكفّ عن القتال والرجوع عنه، لكنّ الإصلاح اللاحق هذا شُرط فى الآية بالعدل، ولعلّه لكون الطرف المصلح قد شـارك فى القتـال هـذه المرّة بنفسه، فيترقب منه الخروج عن جـادة الحياد والموضوعيـة، وفى الآيـة قيم أخلاقيـة عاليـة فى التعامل مع الفريق الآخر المسلم الذى نختلف معه.

۹- ذهب فى سبب نزول الآية مذاهب أبرزها:

أ- إن الآيـة نزلت فى الأوس والخزرج، تقاتلا بالسـعف والنعال، وهذا هو المروىّ عن مجاهد وسـعيد بن جبير (۴)، والآية تحتمل هذا الافتراض؛ لأـن الأوس والخزرج كانوا مؤمنين فى المدينـة، والسورة- أى الحجرات- مدنيـة، ولعلّه إليه يشـير ما قيل من أنها نزلت فى قبيلتين من الأنصار (۵).

ب- إنهـا نزلت فى رهـط عبـدالله بن أبى سـلول من الخزرج ورهـط لعبـد الله بن رواحـة من الأـوس، وسـبب ذلـك أن النـبى ۹ وقف علىعبدالله بن أبىّ، فراث حمار رسول الله ۹، فأمسك عبدالله أنفه، وقال: إليك عنى، فقال عبدالله بن رواحة: لحمار رسول الله ۹ أطيب ريحاً منـك ومن أبيـك، فغضب قومه، وأعـان ابن رواحـة قومه، وتضـارب الفريقان (۶)، وهنـاك روايـة أخرى تشـبهها مع اختلافات خفيفة جاءت فى مصادر السيرة والحديث والتفسير (۷).

وقد تحفظ العلامة الطباطبائى فى الميزان على هذا السبب، وقال بأن الآية لا تنسـجم معه دون أن يبيّن مبرّر عدم الانسـجام (۸)، إلا أن الشـيخ الآصـفى الـذى وافقه بيّن ذلك أنّ الآية تضـفى صـفة الإيمان على المقتتلين، مع أن عبدالله بن أبىّ وجماعته كانوا منافقين، فلا يصحّ إطلاق لفظ الإيمان عليهم، حتى طبق المجازات التى سلف الحديث عنها (۹).

لكنّ هـذه الملاحظة غير واضـحة، ولعلّ سـببها دخول عبدالله بن أبىّ فى القصة- وهو المنافق المعروف- لكن الرواية لا تحكى عن أن الجماعـة التى وقفت معه كانوا منافقين أيضاً، إذ لعلّهم كانوا مؤمنين حرّكتهم العصبية القبلية معه لا غير، لا بغضاً برسول الله، تماماً كما توحيه بعض الأخبار المتقدّمة، ومن ثم وإن كان سبب الحرب شخصاً منافقاً إلا أنّ أطراف القتال كانوا من المسلمين.

والنتيجة التى نخرج بها من مطالعة الآية هى دلالتها على حكم جهاد أهل البغى بالمفهوم العام للبغى، وذلك ضـمن مسـلسل الخطوات والغايات التى طرحتها، فالاستدلال بهذه الآية على جهاد أهل البغى تام، كما هو تام على مبدأ الإصلاح بين المسلمين.

وانطلاقاً من ذلك كلّه، نعرف أنّ القرآن الكريم لم يؤسّـس لأىّ صـراع فى الداخل الإسلامى، إلا إذا صدق عليه عنوان البغى بالشكل الـذى بيّناه، هادفاً من ذلك حمايـة الفريق المظلوم فى الأمّة، أىّ فريقٍ كان، ورغبةً منه فى قلع مادّة الانقسام والتمزّق والتمرّد والتعدى، وهـذا المبـدأ عقلانـىّ لاـ يتعـارض مع الأـصول السابقـة التى أصّـلها القرآن نفسه، بـل يمكن الجمع بينه وبينهـا فى مثل مبادئ الرحمة الإيمانيـة والألفـة القلبيـة؛ بأنّ آيـة البغى طلبت مقاتلة البغاة، لكنّها لم تطلب الغلظة والحقد والكره لهم، فيمكن أن يريد القرآن محاربة البغاة رأفـةً بهم ومحبّـة، كالطبيب المجبر- حبّاً بالمريض وإرادة خير به- أن يخضـعه لعمليـة جراحية، ولعلّ فى سـيرة الإمام على ۷ فى

حرب الجمل وأسلوبه الرحيم فى التعامل مع أهل البصرة، وكذلك فى بعض خطب الإمام الحسين ٧ فى كربلاء .. ما يؤكّد إحساس الرحمة مع هؤلاء الذين يواجههم رغم ما فعلوه به وبأهل بيته، وهذا أشبه شىء بكلام ابن حزم الأندلسى- بعد ذكره آية: (رحماء بينهم) عند حديثه عن حدّ القذف-: «وقد أمر مع ذلك بإقامة الحدّ على من أمرنا برحمته» (۱۰).

هذه خلاصة موجزة ومدخل متواضع لقراءة أبرز أصول العلاقات الإسلامية- الإسلامية فى القرآن الكريم.

---

۱- محمد خير هيكل، الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية ۶۳: ۱.

۲- ناصر مكارم الشيرازى، الأمثل ۵۳۶: ۱۶.

۳- الآصفى، الجهاد: ۱۲۹.

۴- الطبرسى، مجمع البيان ۱۹۹: ۹؛ والأمثل ۵۳۵: ۱۶؛ والكاشانى، الأصفى ۱۱۸۲: ۲ - ۱۱۹۳؛ والصافى ۵۰: ۵، ۵۱۹: ۶؛ مؤسسة الهادى، وتفسير مجاهد ۶۰۶: ۲.

۵- انظر: التبيان ۳۴۶: ۹؛ والروانديى، فقه القرآن ۳۷۲: ۱؛ والأمثل ۵۳۴: ۱۶- ۵۳۵.

۶- الطبرسى، مجمع البيان ۱۹۹: ۹؛ وجوامع الجامع ۴۰۳: ۳.

۷- راجع القصة وقريب منها فى: الزمخشرى، الكشاف ۵۶۳: ۳؛ وتفسير مقاتل بن سليمان ۲۶۱: ۳؛ والمجموع ۱۹۶: ۱۹؛ وبحار الأنوار ۵۳: ۲۲ - ۵۴؛ ومسند ابن حنبل ۱۵۷: ۳؛ وصحيح البخارى ۱۶۶: ۳؛ وصحيح مسلم ۱۸۳: ۵؛ والسنن الكبرى ۱۷۲: ۸؛ وتفسير السمرقندى ۳۰۹: ۳- ۳۱۰؛ وتفسير الثعلبى ۷۸: ۹؛ والواحدى، أسباب النزول: ۲۶۳؛ وتفسير البغوى ۲۱۳: ۴؛ والسيوطى، الدر المنثور ۹۰: ۶؛ وسبل الهدى والرشاد ۴۱۹: ۳؛ والسيرة الحلبية ۲۵۰: ۲ و ..

۸- الطباطبائى، الميزان ۳۲۰: ۱۸.

۹- الآصفى، الجهاد: ۱۲۸، الهامش.

۱۰- ابن حزم، المحلّى ۲۹۵: ۱۱، ۳۴۵.

ص: ۶۹

ص: ۷۰

ص: ۷۱

ص: ۷۲

ص: ۷۳

ص: ۷۴

## الوحدة، قواعد ومعالم

سعيد المهاجر

قبل أن استعرض عدداً من القواعد التى أنشئ عليها مبدأ الوحدة فى الإسلام، لكى انتقل بعدها إلى ذكر معالم مهمة من معالم أعظم شعيرة عبادية إسلامية توفرت على البعدين المادى والمعنوى، ألا وهى فريضة الحج كمثال وحدوى عملى .. وفضيلة هذه الفريضة وعظمتها لم يختلف عليها اثنان من المؤمنين، لما تتركه من ثمار ومنافع فى حياتنا الدينية والدنيوية ولما أعد الله تعالى لمؤديها الأداء الأوفى من الأجر الجزيل والثواب الكبير ..

فقبل أن أقف عند قواعد الوحدة التى يحبها الله تعالى ورسوله الكريم ۹ والصالحون، وذكر المعالم، أذكر سطوراً عن عالم ما قبل البعثة، لأدخل مباشرة فيما أعدت السماء ورسولها المصطفى من أسس وأعمدة ومعالم لبناء وحدة الأمة المسلمة.

عالم ما قبل البعثة كان يتمثل فى أمة جاهلية فرقتها الحروب ومزقتها النزاعات وشتتتها العصبيات القبلية والعنصرية، وظلت سنين طويلة بين طغاة ومستضعفين، وبين ظالمين ومظلومين، وسادة وعبيد .. تطيح بهم حروب وغارات وغزوات وثارات مدمرة أنتجت اختلافاً قاتلًا وتمزقاً مخيفاً ونزاعا دامياً أربك وضعهم الاجتماعى بكل مفاصله ..

وفى عالم هكذا مظاهره وفى أمة هذه حياتها وهذه مسيرتها، شاء الله سبحانه وتعالى أن يبعث محمد بن عبد الله ۹ رسولًا .. وسراجاً:

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً) (۱)

ورحمة:

(وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ).

وجاءت بعثته نعمة ومنقذة أنعم الله بهما على البشرية:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (۲).

فتحولوا من أعداء متحاربين إلى إخوان متحابين، ومن قبائل متفرقين إلى صفوف متراصّين ضد أعدائهم:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْواناً) (۳).

وهنا تتجلى عبقرية الرسول ۹ فى إنقاذ هذه الأمة وتحويلها من أمة ممزقة إلى أمة موحدة تمهيداً لوحدة الإنسانية عبر إرسائه لقواعد توحيدهم بعد هدايتهم ..

---

۱- الأحزاب: ۴۵- ۴۶.

۲- آل‌عمران: ۱۰۳.

۳- الفتح: ۲۹.

ص: ۷۵

إن رسالة الإسلام الخالدة التى جاء بها نبى الرحمة محمد ۹ كانت رسالة رحمة ونعمة وإنقاذ وهداية لا لأهل مكة وما حواها، ولا للأمة التى عاشت زمن الرسالة السماوية، بل جاءت لكل الأمم والشعوب وفى كل الأزمنة، وراحت تؤدى مهمتها هذه من خلال مسارين:

- تخليص الأمة من العبادة المنحرفة من الكفر والشرك المتمثلة فى عبادة الأصنام والأوثان .. هذه العبادة التى هى السبب فى فرقتهم وتشتتهم .. ونقلها نقلة كبرى إلى عبادة الواحد الأحد، عبادة الله تعالى دون غيره، عبادة التوحيد الخالصة .. لتكون أمة حرة عزيزة أبية عصيّة على أعدائها ..

- بذل الجهود الكبيرة لإنقاذها من كل مظاهر الفرقة والتشتت والاختلاف، ثم تقويتها لتقف شامخة عالية صامدة أمام ما يحاك ضدها من مؤامرات ومخططات سيئة، غايتها تقويض أركانها وأسس تماسكها للإطاحة بها ..

كل هذا انطلاقاً من قاعدة التخلية ثم التحلية، تخليتها من أسباب الانحراف والنزاع والتخاصم ثم تحليتها عبر بنائها البناء المتين على أسس ثابتة رصينة ..

وبما أن الوحدة هى الإطار الحامى للأمة، فقد راح رسول الله ۹ يرسى دعائم الوحدة، يرسيها على قواعد صلبة وأرض متينة .. وكان توحيد العبادة عبادة الله تعالى وحده هو الأساس الأول والهدف الذى يصبو إليه رسول الله ۹ كما غيره من الرسل والأنبياء الذين سبقوه .. والقاعدة هى التوحيد بمعناه الروحى والعقدى والفكرى، فالتوحيد أى توحيد الله كان الأساس الأول لبناء الوحدة فى الأمة والأمة الواحدة، فلا وحدة بدون توحيد ولا توحيد بدون توحد ووحدة، فإذا وحدت الأمة ربها توحدت واتحدت، وإذا كفرت وأشركت تفرقت واختلفت، فالأخوة صنو الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۱)

والتفرق والاختلاف أخو الكفر:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ) (۲).

وهكذا نجد أن الإيمان والتوحيد أساس الوحدة، والكفر على عكس ذلك هوعلة الفرقة والتشتت بل هو هما .. إن الاعتصام بحبل الله وتوحيد الله كانا هما الأساس الذى أقام عليه رسول الله ۹ دعائم الوحدة، وكان الحجر الأساس لبناء هذه الوحدة هو ما دعا إليه ۹ الناس من الإذعان والخضوع لله موحدين لا مشركين ..

(وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) (۳).

(وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (۴).

فالناس كلهم أبناء آدم فهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، وهم من أصل واحد، ومن نفس واحدة هذا على مستوى الخلقة والنشأة.

وهم على مستوى العبادة يعبدون خالقهم الذى خلقهم وبارئهم الذى برأهم، وخلق كل ما حولهم وكل شىء دون أن يكون له شريك ومعين ..

إن سعادة الأمة ورفعتها لا تكون إلا عن طريق وحدتها والتئام شملها، كما أن شقاءها وتلاشى عظمتها وذهاب ريحها إنما ينشأ عن اختلاف الكلمة وتضارب الأفكار وتباين المقاصد، ومن أجل هذا أراد الرسول ۹ من المسلمين أن يقيموا وحدتهم الإسلامية على أساس يجعلهم متحدين متوافقين فى كل شىء: فى العقيدة والعبادة والاتجاه والمقصد واللغة والوطن والأخلاق والثقافة والزى والعادات والتقاليد والدفاع المشترك والتضامن والتكافل حتى تصبح الأمة يداً واحدة تحقيقًا لقول الرسول:

«المسلمون أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ولم تكن الوحدة التى دعا إليها النبى ۹ مجرد شعار رفعه ليجمع حوله قبيلته أو قومه أو مجرد نظرية قومية لتحقيق طموحات شخصية،

بـل كانت عقيـدة آمن بها ودعا إليها وأرسـى مبادئها بكل الوسائل، وهنا تتجلى عبقريته ۹ فى بناء الوحـدة، وإذا أردنا اليوم بناء وحدة إسلامية وإنسانية فلابد من تلمس خطى النبى ۹ فى هذا الاتجاه.

لقد كان التوحيد وإرساء العقيدة الصـحيحة هما الأساس الذى أقام عليه النبى ۹ صرح الوحدة، فوحدة العقيدة هى الحجر الأساس لبناء الوحدة، وهنا كان أول ما دعا إليه النبى ۹ هى كلمة التوحيد التى يدخل بها الفرد إلى الإسلام ومجتمع المسلمين، فكانت الشهادة هى الرابطة الأولى لجميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم «أشهد أن لا إله إلا الله» فالرب واحد والخالق واحد والمعبود واحد، والمبعوث لهم واحد

«أشهد أن محمداً رسول الله».

والرسالة واحدة

---

۱- الحجرات: ۱۰.

۲- آل‌عمران: ۱۰۰.

۳- النساء: ۳۶.

۴- المؤمنون: ۵۲.

ص: ۷۶

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) (۱).

(وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (۲).

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً) (۳).

فلا فرقة ولا تنازع ما دام هناك اعتصام بحبل الله ودين الله.

إذن، فلا تفرق ولا اختلاف أو هكذا ينبغي أو يجب أن يكون حال الأمة المسلمة وهي تحمل هذه المبادئ وتلك القيم والثروة العظيمة من المواقف التي تدعو لوحدتها وتماسكها ..

فكيف يتفرقون وكيف يتنازعون وكيف يتقاتلون؟

إن اختلاف الأمة وتفرقها وتناحرها إنما يكون عندما تخبو أنوار التوحيد في نفوس المسلمين، وحينما يتركوا الفكرة الواحدة والعقيدة الواحدة ويرحلوا إلى أفكار متضاربة وطرق مختلفة فتفرق بهم ..

لهذا إذا رأينا المسلمين اليوم متفرقين وأشتاتاً متباعدين فرّقتهم الأهواء والشهوات والتعصب البغيض نتألم ويداخلنا الأسى والأسف، لأن هذه الفرقة دليل وهن العقيدة في النفوس وضعف الإيمان في القلوب، كيف لأمة ربها واحد وعقيدتها واحدة، وقبلتها واحدة، ونبيها واحد، أن تختلف؟!

ولم تكن الدعوة إلى وحدة العقيدة هي فقط ما دعا إليه النبي ۹ فقد بعث ۹ والعرب يعتزون بعروبتهم إلى درجة التعصب البغيض والتفاخر بالأنساب والأصول، فحارب النبي ۹ هذه العصبية، وهذا التحزب؛ لأن التعصب من عوائق الوحدة وأرشد الناس إلى ضرورة عدم السخرية بالآخرين رجالًا ونساءً، ونهاهم عن اللمز والتنابز بالألقاب والظن والتجسس والغيبة، ودعاهم إلى التعارف وكان القرآن هو العلاج الرباني لتلك الأمراض:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ).

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (۴).

وبدأ الرسول بنفسه في تطبيق هذه المبادئ وتلك الأحكام، فصاحب الفقراء وتودّد إليهم وأمر بلالًا الحبشي أن يؤذن في الناس ويدعوهم إلى الصلاة، وقربه منه وولاه شؤون أموال الدولة، وعلى يده تجرى الجوائز للوفود من كبار القوم، وأتى بزيد بن حارثة أحد مواليه فضرب به عصبية قومه في الصميم إذ اختاره صهراً له، وزوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش، ثم ولاه قيادة جيش كان فيه الكثير من أكابر الصحابة وأعلام العرب، ثم ولى ابنه أسامة بعده قيادة الجيش، وهو شاب لم يتجاوز العشرين، وهكذا بمثل هذه الممارسات صهر النبي ۹ الجميع في بوتقة الإسلام ومحضن الإيمان.

ولم يكتف الرسول بهذا، بل عمل على غرس بذور الحب المتبادل في قلوب المسلمين وإحكام روابط الأخوة العامة فيما بينهم، ونهاهم عن كل ما من شأنه أن يولد الضغائن والعداء في النفوس أو يدعو إلى التحاسد.

وجاءت الأحاديث تؤكد هذه المعاني فقال ۹:

«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ولا يكذبه. حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

ويقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى

والسهر».

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ويقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء».

ويقول: «ألا أخبركم بشراركم؟

قالوا: بلى، قال: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العيب».

إن معنى الوحدة الذى أكدته آيات القرآن وأحاديث النبى ۹ ومارسه النبى ۹ فى حياته يبنى أمة واحدة متحدة على الفكرة الواحدة والشعيرة الواحدة والقبلة الواحدة والقيادة الواحدة، وحدة بناها على الأساس المتين الذى يجمع ولا يفرق، أساس التوحيد وإخلاص العبودية لله سبحانه وتعالى.

---

۱- آل‌عمران: ۱۹.

۲- الأنعام: ۱۵۳.

۳- آل‌عمران: ۱۰۳.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ۷۷

إن هذه الوحدة لهى المخرج مما يعانيه المسلمون اليوم من هوان وذلة، وما تفرق المسلمون اليوم إلا من بعد ما جاءتهم الأفكار الوضعية واتبعوا السبل وترك سبيل الله، فوجهوا سهامهم إلى صدور إخوانهم ونسوا وصية نبيهم فى حجة الوداع:

«لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ألم يحدث أن تقاتلت دول إسلامية سنين طويلة، واستنزفت قواها ودمرت ثرواتها وخربت اقتصادها؟ ألم يحدث أن كثيراً من المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض؟ إن لم يكن بالسلاح فبالكلمة والطعن والغمز واللمز والغيبة والنميمة والعصبية التى قال عنها النبى ۹:

«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

وقال عندما رأى بعض أتباعه يتحدثون عنها:

«دعوها فإنها منتنة».

إن كثيرين يدعون إلى العصبية إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال، وليس هذا من هدى الإسلام ومبادئه وقيمه ولا من تعاليم النبى ۹ وأخلاقه الذى أرسله الله رحمة للعالمين، وخلافاً لما دعا الله تعالى إليه من المحبة والتعارف والتآلف ..

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (۱).

وإذا كان هذا بين شعوب مسلمة وغير مسلمة فإنها بين المسلمين بعضهم بعضاً أوجب وآكد. إن التحديات التى تواجه المسلمين اليوم لتوجب عليهم وتفرض عليهم أن يتوحدوا، فالوحدة فريضة إسلامية ..

هذا باختصار شديد أهم الدعائم أو القواعد التى أقيمت عليها وحدة المسلمين، لننتقل إلى مثل عملى رائع لها نعيشه فى حياتنا كما عشناه فى ماضينا ونعيشه فى مستقبلنا حتى يحكم الله تعالى وهو خير الحاكمين:

إنه فريضة الحج المباركة!

فقد جاءت شعائر الإسلام لتؤكد معنى الوحدة، ففى الصلاة يتعلم المسلمون معنى الوحدة ومعنى الجماعة ومعنى الصف الواحد المتآلف المستوى، والاستقبال الواحد لهدف وحيد حيث يتجه المسلمون على مدار اليوم والليلة إلى قبلة واحدة، فالمسلمون فى الشمال والجنوب والشرق والغرب كلهم يتجهون إلى الكعبة:

(.. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ..) (۲).

وهكذا فى كل الواجبات العبادية وفى المستحبات وفى التوجه بالدعاء وفى دفن موتى المسلمين وفى ذبائحهم .. إنه التوجه الخالص نحو القبلة، الكعبة المباركة.

ثم كان الحج إلى بيت الله الحرام إلى المسجد الحرام إلى حيث الكعبة المباركة الجامعة، ليتخذ المسلمون منها ومن أم القرى مكة مكاناً لأداء عباداتهم ومناسكهم ومواطن لدعائهم ومناجاتهم .. وغدت سوقاً علمياً وتجارياً وميداناً لعقد مؤتمرهم سنوياً للتفاهم والتشاور وتبادل الرأى، وكل ما من شأنه أن يحكم روابط الأخوة والوحدة بين المسلمين ..

وما الأذان بالحج إلا دعوة صريحة للوحدة والتآلف والتعاون (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ) (۳).

وشرع لهم من مناسك الحج ما يجمعهم ولا يفرقهم ويجعلهم يتعارفون فى عدة أماكن: وهم يطوفون بالكعبة، وهم يسعون بين الصفا والمروة، وهم يتواجدون فى عرفات، ثم المزدلفة فمنى والجمرات، وفى أماكن أخرى للزيارة حيث أضرحة الشهداء والصالحين فى مكة والمدينة، وعلى رأسها الضريح الطاهر لرسول الله ۹ فى المدينة المنورة وأضرحة أئمة أهل البيت: فى البقيع .. وزيارة الآثار الإسلامية الأخرى .. كلها تدعوهم وتدعو الأمة للوحدة والتآزر والتآلف .. وما توحيد الزى بين المسلمين فى الحج، إلا وصفة أخرى

تلغى المزايا وتشعر بعظمة الأمة وتمام وحدتها ..

حقاً إنها الفريضة العبادية الوحدوية المباركة الكبيرة، والتظاهرة الإيمانية الحاشدة والتجمع النادر الرائع المتوفر على أطياف وألوان يوحدهم الهتاف الواحد ويجمعهم المنسك الواحد ويحدوهم الأمل الواحد، وتأخذ بأيديهم الغاية الواحدة وهى الانقياد إلى الخالق الواحد والالتزام بأوامره والابتعاد عن نواهيه وتوحيدهم ضد أعدائهم وشياطين الإنس والجن ..

ولعل من أهم أهداف الشريعة ووظائفها الموكلة إليها من قبل السماء إزاء الساحة المسلمة هو إدخال الأمة عملياً فى تجربة التوحيد والوحدة، توحيد الله تعالى ووحدة الصف، لأهميتهما وخطورة التخلّف عنهما، فجاءت فريضة الحج تجربة عملية وميداناً تطبيقياً لهما، غير مكتفية بمجرد الدعوة إلى التوحيد والوحدة وإلى مجرد الحث عليهما، وفلسفة هذا الأمر، أن الشرك وبالذات الخفى منه يمكن أن يتسرب إلى النفوس فى أى وقت فتفترق الطرق وتضل القلوب ويقع المحذور فى الساحة بعد أن فقدت منبع توحيدها وقوتها وسلامة موقفها ..

---

۱- الحجرات: ۱۳.

۲- البقرة: ۱۴۴.

۳- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۷۸

ولعل الآية المباركة: (وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (۱) تشير إلى مسألة الشرك الخفى (۲).

إذن دواعى الفرقة والاختلاف متوافرة وعلى الدوام فلا بد من استمرار مقاومة تلك الدواعى .. ومناسك الحج التى تتكرر سنوياً تعد أقوى عنصر مضاد وناف لأسباب ودواعى الابتعاد عن الدين وما يأتى تبعاً لذلك الابتعاد من فرقة وتشتت ..

فالمشاعر والمواقيت والمناسك كالطواف والسعى والإفاضتين تلغى أى مظهر من مظاهر الفرقة والتحزب المتأتية من فوارق الجنس واللون والمذهب والانتماء والمكانة السياسية والاجتماعية .. لتجعل منهم أناساً يعبدون الله تعالى ويخلصون فى عبادتهم وهم يقفون على صعيد واحد وهم على مستوى واحد، وتقف السماء منهم على مستوى واحد أيضاً، فلا تفرق بينهم فى عطائها وأجرها ورضاها ما داموا على مستوى واحد فى التقوى، وإن تمايزوا فيها تمايزت أجورهم وهم لا يظلمون.

ومن هنا نفهم مراد وهدف العديد من الروايات عن أهل البيت: التى جاءت تنص على عدم جواز تعطيل الكعبة عن الحج وتحث على وجوب إجبار الناس على الحج، ويحمل بعضها وعيداً لمن عطله:

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحجال، عن حماد، عن أبى عبد الله ۷ قال: «كان على صلوات الله عليه يقول لولده: يا بنى! انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناظروا».

وعنه، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن حنان بن سدير، عن أبيه قال: ذكرت لأبى جعفر ۷ البيت فقال: «لو عطلوه سنة واحدة لم يناظروا». وفى حديث آخر: لنزل عليهم العذاب.

وعن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن أبى المعزا، عن أبى بصير- يعنى المرادى-، عن أبى عبد الله ۷ قال: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة».

عن محمد بن على ما جيلويه، عن عمه محمد بن أبى القاسم، عن محمد بن على الهمدانى، عن على بن أبى حمزة، عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله ۷ يقول: «أما إنّ الناس لو تركوا حج هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا».

وعن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن ميمون، عن أبى عبد الله ۷ قال: «كان فى وصية أمير المؤمنين ۷ قال: لاتتركوا حج بيت ربكم فتهلكوا، وقال: من ترك الحج لحاجة من حوائج الدنيا لم تقض حتى ينظر إلى المحلقين».

محمد بن الحسين الرضى فى نهج البلاغة عن أمير المؤمنين ۷ فى وصيته للحسن والحسين:: «أُوصيكما بتقوى الله- إلى أن قال- والله الله فى بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا».

محمد بن على بن الحسين بن بابويه بأسانيده عن حفص بن البخترى وهشام بن سالم ومعاوية بن عمار وغيرهم، عن أبى عبد الله ۷ قال: «لو أنّ الناس تركوا الحج لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبى ۹ لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين» (۳).

وختاماً:

لا بد لى من أن أذكر بعض معالم التوحيد- وهى تتجلى فى جميع العبادات التى تعبدتنا السماء بها- فى فريضة الحج، التى تعد ركناً عبادياً مهماً من أركانِ الإسلام وهى ما يدور حولها كلامنا:

- وهذه المعالم أول ما تبدأ بالنية ويشترط فيها أن تكون خالصة لله عز وجل، وعندئذ تكون بعيدة عن الرياء والجاه انطلاقاً من الآية: (وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

ومن قول رسول الله ۹ الذى أطلقه فى بداية مناسكه:

«اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة».

- الإحرام، وهو معلم توحيدى ظاهر للجميع، فالكل فى لباس واحد عبارة عن قطعتين إزار ورداء أبيضين لا غير، حتى لا يتميز غنيهم

ولا سيدهم ولا زعيمهم ولا عالمهم عن غيرهم، كلهم جميعهم سواء، إنه مظهر عملى لتوحيدهم وإشعارهم بسواسيتهم ..

- التلبية، وهى كما قال النبى ۹:

«لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

وقد جاء صريحاً فى حديث جابر الأنصارى فى صفة حج النبى ۹ أنه قال: «فأهلّ بالتوحيد».

---

۱- يوسف: ۱۰۶.

۲- انظر: الشيخ جوادى آملى فى وجيزة فى أسرار الحج: ۱۲۹.

۳- انظر كتاب وسائل الشيعة، الحر العاملى رحمه الله تعالى ۲۰: ۱۱.

ص: ۷۹

وهذه التلبية النبوية فيها تحقيق التوحيد، حيث تجعل الله واحداً لا شريك له، بخلاف تلبية المشركين فى جاهليتهم حيث كانت تلبيتهم تتضمن الشرك بالله عز وجل إذ كانوا يقولون: «لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

- توحيد العبادة فى الحج، فقد أمرت الشريعة بالطواف بالبيت سبعة أشواط، انطلاقاً من قوله تعالى:

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

- ركعتا الطواف، فإنه يستحب للحاج أن يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة (قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ) وفى الثانية يقرأ سورة الإخلاص، لما تشتمل عليه هاتان السورتان من توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية، ففى السورة الأولى البراءة من دين المشركين وإفراد الله بالعبادة، وفى السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه ويخلص له العبادة، ويتبرأ من عبادة ما سواه من خلال هذا الدرس العملى العظيم.

ومن المعالم التوحيدية: السعى بين جبلى الصفا والمروة سبعة أشواط ذهاباً وإياباً، وهى بحق مسيرة إيمانية واضحة:

(إِنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ) (۱).

ويسن للساعى أن يقول فى بداية كل شوط كلمة التوحيد:

«لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ..» ويقرأ الآية: (إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ ..).

«الحج عرفة» كما ورد، والوقوف فى عرفات هذا الوقوف المهيب وفيه أعظم الذكر الذى يقال فى يوم عرفة:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

وقال رسول الله ۹:

«خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

فى هذا المجمع العظيم وفى هذا اليوم المبارك، يأتى هذا الإعلان الصريح لتوحيد العبادة من خلال النطق بهذه الكلمة وتكرارها؛ لأجل أن يستشعر الحاج مدلولها ويعمل بمقتضاها فيؤدى أعمال حجه خالصة لله من جميع شوائب الشرك.

وهكذا الوقوف فى المشعرالحرام وفى منى طيلة أيامها وعبر مناسكها، وما شرعه الله فى يوم العيد وأيام التشريق من ذكره وحده، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (۲).

وذكر الله فى هذه الأيام يتجلى فى الأعمال العظيمة التى تؤدى فى أيام منى، من الحلق أو التقصير وذبح الهدى ورمى الجمار الثلاث وأداء الصلوات فى هذه الأيام المباركة ..

قال تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ) (۳).

وقال تعالى: (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (۴).

ومن هنا يتعلم المسلم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله؛ لأن الذبح عبادة وإتيان العبادة لغير الله يعدّ شركاً، ولهذا قال جل علاه:

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ) (۵).

وكم يحمل هذا المشروع من بر للمحتاجين وإعانة للمستضعفين ومعروف موصول يسدى إليهم، وكم فى هذا العمل الواسع الضخم

من تأليف للقلوب، وتقريب للنفوس، وتطييب لها، قربت من الأماكن المقدسة أو بعدت عنها! ..

كل تلك من أصول ودعائم التوحيد الذى يستتبعه توحيد الطاقات والصفوف والمواقف، وكل هذه المعالم والمشاريع والأعمال التى تستتبعها الآثار الطيبة التى تتركها على الساحة المسلمة فى حاضرها ومستقبلها .. كلها جميعاً تعد مشاريع جميلة جليلة تثمر قلوباً زكية ترفض البغضاء والحقد .. ونفوساً أبية قادرة على البناء والتطور والتوحد ..

حقاً إن الحج جاء كما وصفته سيدة النساء الزهراء ۳ تشييداً للدين: «وجعل الحج تشييداً للدين ..» (۶).

---

۱- البقرة: ۱۵۸.

۲- البقرة: ۲۰۳.

۳- الحج: ۲۸.

۴- الحج: ۳۶- ۳۷.

۵- الكوثر: ۲.

۶- ابن طيفور: بلاغات النساء: ۲۸.

ص: ۸۰

حقاً إنها فريضة ربانية هادفة رائدة، مائدتها زاد دائم، وعطاؤها عطاء غير مجذوذ! ..

ص: ۸۱

## شيء مما قرأته عن الحج

حسن الحاج

هذه مجموعة قراءات عن الحج وحدةً وتآلفاً وآمالًا وأنشطة وآراء وأقوالا مما وفقنى ربى لقراءتها وإعادة صياغة بعضها أو تلخيصها لتكون أكثر مناسبةً وجمعاً ونفعاً، ونحن نطل على ضيافة مباركة فى أمكنة مباركة وأيام معدودة، وعبر مناسك مقدسة تضمّها فريضة ربانية دائمة يقوم فيها الناس بعبادة خالصة، عبادة ما أجملها وأعظمها وأطهرها! وقد ارتضتها السماء للناس وحددتها بمفاصل موقوتة .. إنها فريضة الحج تلك الرحلة المباركة، والمناسبة الميمونة، والسياحة المحمودة، والتجارة الرابحة .. حتى غدت ثمارها يانعة، فوائدها متعددة، بركاتها متنوعة، دروسها مفيدة، أسرارها بديعة، آدابها عظيمة، أخلاقها قويمة، قيمها جمة .. يحسن بالحاج أن يقف عليها، ويجمل به أن يأخذ بها، ليكون حجه كاملًا مبروراً، وسعيه مقبولًا مشكوراً، ونافعاً فى إرساء دعائم الوحدة بينهم .. هذه طاقة مما قرأت:

وجيزة تأريخية

فى قراءة تأريخ فريضة الحج يتبين لنا مدى الانحراف الذى أصاب سلوك الناس والافتراق والتنازع بينهم حينما انحرفت مسيرتهم عن المسيرة الحقة لمناسك الحج، والغاية التى كان الإسلام يهدف إليها وهو يعيد الناس إلى معرفة تلك المناسك وأدائها كما أرادها الله تعالى، والمتمثلة بوحدتهم ومنفعتهم وبقائهم .. وها نحن نشير إلى شيء من ذلك الانحراف .. والعلاج الذى أمر به الإسلام ليعود بالفريضة إلى وضعها الطبيعى، لكى يؤدى الحج دوره السليم فى تأثيره فى الناس تأثيراً إيجابياً يترك بصماته فى حياتهم بعيداً عن التجبر والتعالى عن الآخرين مهما كان وضعهم الاجتماعى .. وقد قرأت:

إن فريضة الحج تعود إلى عهد نبى الله إبراهيم الخليل ۷، فهو أول من بنى البيت على التحقيق، وأول من طاف به مع ولده إسماعيل ۸، وهما اللذان سألا ربهما سبحانه وتعالى أن يريهما أعمال الحج ومناسكه، قال تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

إذن تعبد الله تعالى ذرية إسماعيل بهذه المناسك وظلت باقية فى العرب إلى عهد الإسلام الحنيف، غير أن العرب لما نسوا التوحيد وداخلهم الشرك، وتبع ذلك تحريف وتغيير فى أعمال هذه العبادة، شأنهم فى ذلك شأن الأمم إذا فسدت سرى الفساد فى نواحى حياتهم، ودب فى كل شيء منها وضلت عقائهم ..

ثم جاء الإسلام ليعيدهم إلى منابع هذه التشريعات ومقاصدها حتى تتحقق لهم منافعها ومنها وحدتهم، وما يستحقونه من الثواب الجزيل حيث قال:

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ) (۱).

(فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً) (۲).

وكما تدل هاتان الآيتان دلالة واضحة على أن هذه العبادة كانت موجودة قبل الإسلام، تدل أن قريشاً كانت تقف فى الحج موقفاً دون موقف سائر العرب الحجاج الذى يقفونه، وكانت تفيض من مكان غير الذى يفيضون منه، وكل هذا كان ابتعاداً عن الأداء الصحيح للمناسك وتعالياً على الناس .. وبالتالى تفقد الشعيرة هدفها ويحل مكانه الفرقة والتشتت.

نعم، ما أن أقر الإسلام الحج، وتمكن من تطبيق مناسكه بعد سنة من فتح مكة (سنة ۸ هجرية) أى فى السنة التاسعة هجرية حتى أمر المسلمين بالعودة إلى أن يؤدوا مناسكهم بشكلها الصحيح وبالمساواة فى الموقف والإفاضة، فقال تعالى:

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ).

وحيث كانوا يجتمعون فى الحج بالموسم للفخر بالأحساب، وذكر شرف الآباء والأنساب، كانوا يذكرون أيامهم وأنسابهم تفاخراً بها .. فأمر الإسلام أتباعه أن يستبدلوا بذكر الآباء ذكر الله ذى الفضل والآلاء .. قال تعالى:

(فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً) (۳).

بواعث طيبة

وحتى يحقق الحج غاياته وأهمها توحيد الصفوف المؤمنة وتآلفها .. وحتى يتم كل هذا وغيره من قيم الحج ومنافعه لا بد من الالتفات ثم الالتزام بما يبعث لتحقيق ذلك، ومن تلك البواعث التى قرأتها وأعجبت بها:

أولًا: أن يكون الحاج حريصاً على اصطحاب الرفقة الطيبة التى تعينه على الخير إذا تذكر، وتذكره بالخير إذا نسى، والتى يستفيد من جراء صحبتها العلم النافع، والخلق الفاضل، وأن يرفق بهم، وأن يستشيرهم، وأن يحسن عشرته لهم .. وأن يقوم الإنسان على خدمتهم بلا منَّة ولا تباطؤ،

---

۱- البقرة: ۱۹۹.

۲- البقرة: ۲۰۰.

۳- انظر أسباب النزول للواحدى: الآيتان.

ص: ۸۲

وأن يشكرهم إذا قاموا بالخدمة، وأن يتحمل ما يصدر من الرفقة من جفاء وغلظة ونحو ذلك، وأن يرى أن لأصحابه عليه حقاً، ولا يرى لنفسه عليهم حقاً؛ فذلك من كريم الخلال ومن حميد الخصال، ومما ترفع به الدرجات، وتحط به السيئات ..

وأن يبتعد الحاج عن مشاجرة الأصحاب، ومخاصمتهم، فإن حصل شيء من ذلك فليبادر إلى الاعتذار، وإذا تعذر الاجتماع فالأولى أن يفترقا؛ لتسلم القلوب، ويتمكن كل واحد منهما من أداء مناسكه دونما تشوش أو قلق، وبعد ذلك تهدأ العاصفة، ويحصل الائتلاف.

وأن يحرص الحاج على ملاطفة أصحابه، وإدخال السرور عليهم خصوصاً الضعفة والنساء ..

وأن يحرص الحاج على الالتزام بالمواعيد، وأن يتلطف بالاعتذار إن حصل خطأ أو تأخير، أو خلل، وأن يتحمل ما يصدر منهم من عتاب إذا هم عاتبوا، وأن يتقبل العذر من غيره إذا هم أخطؤوا بتأخر أو خلل، فذلك دليل سمو النفس، وبُعد الهمة، وحسن المعاشرة، فالعاقل اللبيب الكريم هو من يتحمل أذى الناس، ولا يحمِّلهم أذاه .. وأن يلزم السكينة، ويستعمل الرفق معهم فقد ورد عن رسول الله ۹ أنه قال: «أيها الناس! عليكم بالسكينة».

وقال ۹ أيضاً: «إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

وعلى الحاج أن يحرص كل الحرص على راحة إخوانه الحجاج، وأن يبتعد عن كل ما فيه أذى لهم ويحذر أيضاً من أن يكون سبباً فى أذاهم، كأن يرفع صوته، أو أن يزاحمهم، أو يضيّق عليهم، أو نحو ذلك.

ومما يجمل به أيضاً أن يحب لإخوانه الحجاج ما يحبه لنفسه، وأن يكره لهم ما يكرهه لنفسه، فيتحمل أذاهم، ويصبر على بعض ما يصدر منهم من زحام، أو تصرفات مقصودة أو غير مقصودة؛ فالإنسان الكريم يصبر على أذى ضيوفه حرصاً على إكرامهم، فكيف بضيوف ربه؟! إن إكرامهم أولى ثم أولى، وإنه لدليل على إجلال الله وتوقيره، وإنه لدليل على كمال العقل، ومتانة الدين؛ لأنه لا أحسن من درء الإساءة بالإحسان.

وأن يحفظ لسانه وذلك بتجنب فضول الكلام، وسيئه، والبعد عن الغيبة والنميمة، والسخرية بالناس، وبالحذر من كثرة المزاح أو الإسفاف فيه، وبصيانة اللسان من السب والشتم.

ومن ذلك أن يحذر الحاج من المماحكة، وكثرة المماكسة، وأن يحذر من المخاصمة والجدال إلا إذا كان جدالًا لإحقاق الحق، وإبطال الباطل بالتى هى أحسن.

وعليه الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، كل ذلك حسب القدرة، والاستطاعة مع لزوم الرفق، واللين، والحكمة، والموعظة الحسنة، والرحمة بالمدعوين والتلطف بهم، والصبر على بعض ما يصدر منهم.

وإعانة الحجاج وذلك بقدر المستطاع، كأن يرشد ضالهم، ويعلّم جاهلهم، ونحو ذلك من الإعانات المتعددة.

والاستكثار من النفقة ليواسى المحتاجين، وليرفد إخوانه إذا احتاجوا، وليبادر إلى إعانتهم إذا شعر بأنهم فى حاجة ولو لم يطلبوا.

ثانياً: استشعار عظمة الزمان والمكان؛ فذلك يبعث الحاج لأداء نسكه بخضوع لله، وإجلاله له تعالى:

(ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (۱).

ثم إن ذلك يصبره على بعض ما يلقاه من نصب أو تعب أو أذى.

ثالثاً: على الحاج أن يغتنم وقته بما يقربه إلى الله تعالى من ذكر أو دعاء، وقراءة للقرآن، وذلك فى أى مكان من تلك البقاع المباركة، فذلك سبب لمضاعفة أجره، ولانشراح صدره، وإمداده بالقوة والطاقة كفرد، وبالتالى تعم هذه الصفات الجماعة المؤمنة.

حسرات وأمانى صادقة!

ها هى وفود الحجيج التوحيدية قد انطلقت .. وها هى جموع الحجيج الموحدة قد حزمت حقائبها، مهاجرة إلى الله تعالى فى رحلة

قدسية مباركة .. أفواج تلو أفواج تنسل من بين الأهل والأحباب موليةً وجهها شطر المسجد الحرام .. قد خلفوا الدنيا وراء ظهورهم، وانخلعوا عن زينتهم متهيئين للقاء الله تبارك وتعالى عبر ضيافة طيبة كريمة، ضيافة أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، إنهم ضيوف الرحمن!! وكلما طهرت هذه المجاميع، كلما اقتربت من مقاصد هذه الفريضة، وأولى مقاصدها هو توحيد الصف الإسلامى والساحة الإسلامية والأمة الإسلامية ..

وها أنا ذا قرأت:

تحت شعار جليل تنطق به جموع الموحدين، وقد راح يدوى فى فضاء ساحة الحج:

«لبيك اللهم لبيك» انطلقت القلوب محلقة فى سماء الطاعة، لتخفف من أثقال الدنيا .. وما أرق القلوب والأرواح حين تقتبس من أنوار الكعبة المشرفة قبسات وقبسات .. تنفعها وهى تشق طريقها نحو فضاءات الخير والثبات والتعاون والتوحد والتآزر ..

---

۱- الحج: ۳۲.

ص: ۸۳

صديقى العزيز .. أراك تنظر إليهم كاسف البال حزيناً، وقد حرمت من رفقتهم فى أطهر رحلات العمر .. وكأنى بك تتوق شوقاً لأن تزور بيت الله الحرام، لتتزود من معانيه الكبيرة وأنت تتحرك هنا وهناك داعياً إلى الخير والعطاء .. راغباً فى الثواب والأجر .. ولكن أنّى لشاب مثلى ومثلك أن يملك الزاد والراحلة، وهو ما زال فى أوائل حياته يصارع الدنيا وتصارعه ..

نعم .. أشعر بك صديقى .. وأقرأ ما بداخلك من حسرة وألم .. أرى الحزن بادياً على قسمات وجهك .. وأسمع زفرات الأسى تتصاعد من جوفك ..

كم أشفق عليك .. وأكبر فيك حرصك على اغتنام فرص الخير، والتعرض لنفحات المولى عز وجل ..

فهل تريد حقاً أن تنال شرف الحج إلى بيت الله الحرام؟!

وهل ترجو أن تنال أجر الحجيج وأنت قاعد فى مكانك؟!

إن أردت ذلك فاسمع منى تلك البشرى .. إنها لأمثالك ممن حبسهم عذر ضيق ذات اليد، ومنعهم عدم الاستطاعة من رفقة الوافدين على الرحمن تبارك وتعالى.

لما رجع رسول الرحمة ۹ من غزوة تبوك قال لأصحابه:

«إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم حبسهم العذر» أى شاركوك فى الأجر! إنها النية الصادقة، والعزم المخلص الأكيد .. فلئن كان العذر قد حبسنا، ولئن كان فقدان الزاد والراحلة قد أقعدنا فإن صدق النية مع الله عز وجل هى زادنا وهى رأس مالنا الذى لا ينضب ولا يبور .. ولئن كان الحجيج قد امتطوا رواحلهم، وسافروا بأبدانهم .. فهلم صديقى نسابقهم فى تلك الرحلة النورانية بأرواحنا وهممنا وقلوبنا .. أوما علمت أن الطريق إلى الله تعالى تقطع بالقلوب لا بالأبدان؟!

صديقى ... لئن عجزت عن بلوغ البيت المطهر .. فلا تنسى أن لله بين جنبيك بيتاً لو طهرته لأشرق ذلك البيت بنور ربه وانشرح .. ولئن حبست هذا العام عن الحج .. فارجع إلى جهاد نفسك لا يحبسنّك عنه الشيطان .. ولئن كان البيت الحرام بعيداً عنك .. فاقصد رب البيت الحرام .. فهو أقرب إليك من حبل الوريد .. وعش مع الحجيج بقلبك وروحك فى كل منسك من مناسك الحج.

فإذا أحرم الحجيج من الميقات .. فليحرم قلبك عن كل ما يغضب الله تعالى من حسد وحقد وغل ورياء، واخلع مع الحجيج ثياب الزور والغش والمعصية، وتحلّ بلباس التقوى وطاعة الرحمن (وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ).

وحين يطوف الحجيج بالبيت .. فليعرج قلبك وروحك لتطوف مع الملائكة الكرام حول البيت المعمور مستعلية على سفاسف الدنيا وحقارتها.

وحين يسعى الحجيج بين الصفا والمروة، لا يكفّ قلبك عن السعى على أمر الله تعالى، والقيام بحق عبوديته، متنقلًا من طاعة إلى طاعة ومن قربة إلى أخرى.

وحين يقف الحجيج على عرفات، رافعين أكف الضراعة إلى الله عز وجل، يصعد قلبك على أبواب السماء، ويخر ساجداً لله سجدة انكسار وفقر وتذلل، لا يرفع منها إلى يوم القيامة.

وحين يتزاحم الحجيج لرمى الجمرات .. يرمى قلبك كل ما علق به من وساوس الشيطان وهو أحبسه .. وتطرد روحك كل ما يطاردها من همزه ونفخه ونفثه.

صديقى الحبيب .. أراك الآن وقد تهلل وجهك، وانفرجت أساريرك .. وبرقت عيناك فرحة وسروراً، وكأنى بروحك قامت تسابق الحجيج فى أداء المناسك، وتزاحمهم فى كل مشعر من المشاعر .. كأنى بك هناك أتخيل شبحك بين الوافدين، أشعر بروحك تتجول فى الطرقات والميادين .. أتنسم عبير أنفاسك الطاهرة فى كل موقف من مواقف الزائرين.

نسأله تعالى أن يرزقنى وإياك حجة مبرورة إلى بيته الحرام، فلعلها ترفع الغل من قلوبنا، وتطهر نفوسنا، وتحسن أخلاقنا، وتجمعنا مع

إخوة لنا فی أجواء روحیة خالصة، وفی تظاهرة إیمانیة صادقة علی صعید واحد، تعطی صورة مشرقة لموقف موحد، وتحرک موحد، وشعار موحد، یکون مثلًا واعداً لوحدة أکبر بعیدة عن الفوارق الطبقیة واللونیة والإقلیمیة والعرقیة، کما هو حال الطائفین والقانتین والرکع السجود فی موسمنا المبارک هذا!

وثیقة أمن وسلام

الحج فریضة عبادیة، ووثیقة أمن، ومعاهدة سلام، تستفید الأمة منه، وتخرج منه بأکبر قدرٍ من الفوائد والمنافع التی تترک بصماتها القیمة علی مختلف نواحی حیاتنا، کما تنعکس آثارها ونتائجها علی سلوک وعلاقات الإنسان فرداً ومجتمعاً مع من حوله ..

ولعلّ من أبرز الأبعاد لفریضة الحج فی هذا الخصوص ما سجلته لکم من قراءة:

ص: ۸۴

إن على كل مسلم يأتى حاجاً أو معتمراً إلى هذه البقاع المقدسة أن يعظم حرمات الله وأن يعرف لهذه المشاعر حقها، فيخلص العبادة فيها لله وحده لا شريك له، وأن يعلم أنه بدخوله الديار المقدسة إنما يدخل فى معاهدة سلام مع الوجود كله؛ لأن الله تعالى أمر عباده بأن يكون حرمه أمناً، والمعنى أن من دخله كان آمناً على نفسه وعرضه وماله؛ وليس هذا فحسب، بل إن الحيوان والنبات وما فى حكمهما له مكان فى هذه المعاهدة الأمنية التى يؤكدها قوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) (۱).

وهذا فيه أكثر من بعد تربوى إنسانى يفرض على الحاج والمعتمر أن يكون فى رحلته إلى هذه الديار المقدسة عاقداً العزم على تعظيم حرمات الله تعالى، وعدم إيذاء من فيها من الكائنات، وما فيها من المكونات ..

لقد جاء الوعيد الشديد بالعذاب الأليم لمن يقترف الخروقات لأمن المقدسات، وما يترتب على عمله هذا من أضرار جسيمة للسلامة العامة، وهو ما جاء فى قوله تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) (۲)

وبتحقق الأمن والسلام تخلق أرضية مناسبة لتواد الحجاج وتحابهم تمهيداً لوحدتهم، التى من أهم عناصر انبثاقها، وبقائها الحب والصدق والأمن والسلام ..

حسن التعامل

الحج عبادة تربوية تعليمية تدخل الإنسان الحاج كشخص وكأمة. فى دورة أخلاقية رائعة ليربّى نفسه ويروضها على كيفية التعامل الواعى مع إخوته المؤمنين، وأيضاً مع نظرائه فى الإنسانية، وقد صنف الإمام على ۷ الناس الذين نعيش معهم صنفين حيث يقول: «.. فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق» (۳).

وقد قرأت لكم:

فى أيام الحج بُعد تربوى أخلاقى يفرض على الحاج والمعتمر والزائر أن يحسن التعامل مع إخوانه، وبالتالى مع من حوله ومع من يتعايش معهم، وأن يتخلّق معهم بالأخلاق الحسنة، وأن يحسن مصاحبتهم ومعايشتهم، وأن يتحمل ما قد يحصل منهم من أخطاء أو نحو ذلك، بأن يتعامل مع الموقف فى حدود وضوابط الأخوة الإيمانية التى جمعتهم جميعاً فى هذه البقاع الطاهرة ضيوفاً للرحمن فى حرم الله الآمن، يطلبون رحمته ويسألونه غفرانه ..

وبعد آخر وهو تربية الحاج على حب الخير للجميع انطلاقاً من مبدأ:

«أحب لأخيك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها».

محبة المسلم لأخيه المسلم هدف فيه ما فيه من السعادة للأمة .. والعمل الدؤوب على إتاحة الفرصة لآخرين من المسلمين الذين لم يسبق أن تيسرت لهم فرصة أداء مناسك الحج والعمرة والزيارة، والذين هم فى شوقٍ شديد وحاجة ماسة إلى مساهمة إخوانهم فى تحقيق هذا الأمل الذى تنشده أنفسهم، وتهفوا إليه أفئدتهم.

وهذا فيه بعد تربوى دينى اجتماعى يتمثل فى تحقيق انتماء الفرد المسلم إلى مجتمعه الإسلامى الذى يعيش فيه، ويتفاعل مع من فيه وما فيه، فيفرح لفرحهم ويتألم لألمهم، وينشط لمساعدتهم فى بناء ما يصبون إليه من آمال .. حقاً تتجلى الأخوة الإيمانية خصوصاً فى دائرة هذه الفريضة- فريضة الحج- عبر وسائل عديدة، منها تربية المسلم نفسه على حسن التعامل مع إخوانه الذين تربطه بهم رابطة الأخوة الإيمانية المتمثلة فى قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

الحج عبادة أمة

تتجدد فريضة الحج فى حياتنا الإسلامية حتى قيام الساعة، ومن قبل ذلك منذ أمر تعالى نبيه إبراهيم ٧ أن يؤذِّن فى الناس بالحج ..

وأمة الإسلام هى أمة الحج، فإذا كان الحج فرضاً على المسلم المستطيع:

(مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) مرةً فى العمر، فإنه فريضةٌ سنويةٌ على الأمة فى مجموعها العام، فهى أمةٌ تحج كل عام ..

وقد قرأت:

---

١- آل‌عمران: ٩٧.

٢- الحج: ٢٥.

٣- انظر: نهج‌البلاغه، مما كتبه لمالك الأشتر.

ص: ۸۵

هو مؤتمر المسلمين الشعبى الأول، ولعله المؤتمر الشعبى العالمى الأوحد الذى يتكرر فى سنواتنا الأخيرة بنفس العدد وحجم التجمع- بعد تحديد أعداد الحجاج سنوياً- وفى كيفية اللقاء وقدسيته، وهو مؤتمر شعبى حقيقى حاشد، تُخرج فيه الشعوب سفراءها الحجيج ليتلاقوا ويجتمعوا ويتعارفوا ويتآخوا تمسكاً بالآية الكريمة: (وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) (۱).

وهو مؤتمر عالمى موسع، لا- يقتصر على إقليم جغرافى دون إقليم، أو قارة دون قارة، يحضره سفراء الشعوب من كل قارات العالم ودوله، ويمتد التمثيل الشعبى فيه ما امتدت رقعة الإسلام فى كل بقاع الأرض، ولا يقتصر فى ذلك على العالم الإسلامى ودوله؛ إذ يلتقى فيه المسلم الأسترالى مع المسلم الأمريكى، وكذا المسلم الأوروبى مع المسلم الهندى والمسلم العربى .. فهو مؤتمر يتجاوز بطبيعته الآفاق السياسية؛ لأنه مؤتمر شعبى بقرار ربانى، ويتجاوز الحدود والفواصل الجغرافية، ويتجاوز كذلك الإطار الإقليمى للعالم الإسلامى.

فليس الحج عبادةً فرديةً يخرج فيها كل مسلم متجرداً إلى ربه يؤدى المناسك ثم يعود من حيث أتى، ولكنه عبادة جماعية واجتماعية كبرى، ومناسبة ضخمة للتجمع؛ من أجل هذا حدَّد له المولى- عزَّ وجل- أياماً وأوقاتاً معلومةً ومحددةً بكل دقة ليجتمع كل الحجيج فى لحظة واحدة فى صعيد واحد .. الأمر الذى يتحقق فى أجلِّ صورِه فى يوم الحج الأكبر عند الوقوف بعرفة؛ ولعل هذا الاجتماع الفريد المتجدد واحدٌ من تلك المنافع الكبرى للحج التى نكَّرها المولى- عز وجل- فى قوله تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) (۲)، لتشمل كل منفعة كبرى تعود على الأمة وعلى الحجاج فرادى وجماعات.

معادلة جميلة بين التوحيد والوحدة

موسم الحج موسم حاشد، ومؤتمر جامع، ومناسبةٌ مركزة واعية لإعلان التوحيد، هو موسم التوحيد الخالص، شعاره الخالد «لبيك لا شريك لك»، موسم تلتقى فيه الأرض قاطبةً بالسماء على التوحيد عبر ممثليها المحتشدين بالمشاعر المقدسة وعبر ذويهم المعلَّقة قلوبهم بتلك المشاعر، وبإخوانهم الذين سبقوهم إليها، ما أروعه من موسم .. وما أجملها من أيام تلك التى تنطلق فيها الألسنة من كل حدب وصوب تعلن كلمة التوحيد، وترتبط فيها القلوب بإله واحد، وتتطلع فيها العيون إلى السماوات العلى، وترتفع فيها الأكفُّ إلى خالق السماوات والأرض؛ طلباً للرضا والقبول، ليكون مؤتمر التوحيد الحاشد فى مكة مركز الأرض، بينما تنطلق أشعة شمس التوحيد منها إلى دائرة محيطها ألا وهو محيط الأرض كلها ..!! لتتعلم من ذلك كيف تتوحد صفوفها، وتتفق كلمتها، وتتعاضد أيديها ..

وهذه قراءتى

ويجب أن يكون موسم التوحيد الخالص هذا موسم التوحد، محققاً لمعادلة قرآنية:

(إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

لقد ربط الله تعالى بين وحدانيته وبين وحدة الأمة، فالأمة المسلمة أمة واحدة عمادها الأول توحيد الرب تعالى وإفراده بالعبادة، والأمة التى تجتمع على أسمى معنى تلتقى عليه الإنسانية، بل يلتقى عليه أقطاب الكون جميعاً .. من ملائكة وجن وإنس ودواب وشجر وحجر .. وهو معنى توحيد الله وإفراده بالعبادة:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (۳)

(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

هى أمة يجب أن توحدها عظمة الغاية وشرفها؛ امتثالًا لأمره تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا) (۴).

وأن تحقق معنى الأخوة الإنسانية الإسلامية تحقيقاً لقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (۵).

والوحدة والأخوة الإسلامية العالمية تتجلى فى أبرز صورها وأعظم مظاهرها فى فريضة الحج .. تتجلى بين الشعوب فى شعاب مكة والمدينة، ولو تآكلت أو بهتت صورتها على الصعيد السياسى والرسم.

فى موسم الحج نلمح معنىً من معانى قوله تعالى:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) (۶).

إن الألفة الإسلامية والرباط الإسلامى حقيقة حتمية خلقها المولى عز وجل الذى أمرُه بين الكاف والنون، حقيقة كونية ثابتة، مثلها مثل حقيقة الخلق والحياة والموت .. حقيقةٌ واقعةٌ لا تحتاج إلى قانون ولا إلى جهد بشرى .. انظر إلى تآخى المسلم مع المسلم فى موسم الحج، ثم انظر إلى السياسات العالمية، والأموال المتدفقة لفصم تلك العلاقة الحتمية الأبدية تجد نفسك تُردد قوله تعالى:

---

۱- الحجرات: ۱۳.

۲- الحج: ۲۸.

۳- الإسراء: ۴۴.

۴- آل‌عمران: ۱۰۳.

۵- الحجرات: ۱۰.

۶- الأنفال: ۶۳.

ص: ۸۶

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (۱).

هكذا ينبغى أن تكون

فى مناسك الحج ومواقفه حققت الأمة- وهى تؤدى تلك المناسك المباركة- وحدتها العاطفية ووحدتها العقائدية والأخلاقية وأخوّتها الإسلامية بفضل من الله عز وجل دون تعب منها ودون مشقة، فهل تستفيد الأمة من هذه النعمة الربانية الكبرى وتنطلق من هذه إلى وحدة أخرى ..؟

وقراءتى عن هذا:

هكذا ينبغى أن تكون الأمة أن تنطلق مما أنعم الله تعالى عليها من توحيد عقيدتها إلى أن تتوحد فى الأهداف العليا لحياتها وفى غاياتها الكبرى وإطارها العام؛ بحيث يؤمن الناظر إلى الأمة المسلمة على امتداد جغرافيتها واختلاف حدودها ولغاتها وألوانها .. أنه أمام أمة واحدة القصد والهدف والتوجه والمصير والمصلحة، لا يمكن ضرب وحدتها ولا تضاد مصالحها ولا اختلاف منهج التلقى الأول لديها ولا تحويل أصولها وثوابتها، ولا ضرب بعضها ببعض؛ لأنها تسير فى مسار واحد نحو هدف واحد وإن تعددت السبل وكثرت المنافذ واختلفت الوسائل والآليات ..

فهذا التعدد حاله حال النفرة إلى عرفة وهو نموذج رائع يعد هدفاً واحداً محدداً تتعدد له الأساليب وتكثر الطرق وتختلف الوسائل، فمن يأتى عرفات ماشياً ومن يأتيها راكباً، فالطرق إلى عرفة عديدة لكنها كلها تصب فى الموقف فى الهدف المراد ..

كما أن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تحقق وحدة الدولة والكيان تحت راية واحدة قبل أن تحقق وحدة الهدف ووحدة المصير ووحدة الشعور ووحدة الاقتصاد ووحدة الشعوب ووحدة المصالح ..

وما سقوط الدولة الإسلامية وتفرق شعوبها إلا بعد أن فقدت هدفها وتآكل النفوذ الروحى الذى يجمع المسلمين، ويوم تحقق الأمة وحدتها الفكرية ورباطها الروحى القائم- بعد وحدة العقيدة والشعور- على وحدة المصالح والمصير، تستطيع أن تحقق بذلك عودة القوامة الفكرية والاجتماعية للأمة، وهى أهم وأعمق بكثير من الخلافة السياسية الرمزية التى ترمز فى النهاية إلى وحدة الكيان الإسلامى ..

وهو دور تستطيع أن تنجزه الأمة من خلال شعوبها وعلمائها وكوادرها الفاعلة فى مختلف المجالات وإن اختلفت أهواء الساسة ومشاربهم .. وليس هناك مناسبة أضخم من موسم الحج لتحقيق هذا الأمل، فالأمة باعتبارها الكيان المدنى الذى يقابل السلطة أو ما يعرف فى العصر الحديث بمصطلح مؤسسات المجتمع المدنى، هى وحدها المؤهلة للقيام بهذا الدور ..

جديد القراءة

إن الحديث عن العبادة وعن الشعائر والمناسك وما يتعلّق بها غدا حديثاً ناقصاً وقد يكون مملًا لدى الكثيرين ... لأنه حديث توقف أو كاد عند عتبة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، أو تحت مظلّة الشكليات التى تقيم هيكل العبادة دون أن تبثّ الروح فيها فهو غدا حديثاً بلا روح ... ممّا أورث تصوراً خاطئاً عن العبادة يتلخص أنها- أى العبادة وما يتعلق بها- صارت أشبه ما يكون بالطقوس فى الأديان الاخرى ...

ومن هنا ينبغى إعادة قراءة هذه العبادات والشعائر، قراءة تستوحى معانيها الجميلة، وأهدافها التربوية، وأبعادها النفسية، ومفرداتها العملية، ووظيفتها التربوية والاجتماعية والسياسية والتنظيمية ... وأصبحت ضرورة يلح الواقع الإسلامى بل الإنسانى عليها ..

وقد قرأت لكم:

(وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا).

التعارف بشكله الواسع والمتصف بالديمومة سنوياً لم يكن ليقع لولا التزام المسلمين بهذه الشعائر، ولولا تلبيتهم لنداء السماء المبارك لأداء فريضة الحج؛ ذلك أنّ فی تعارف الشعوب الإسلامية وتبادلها الآراء وطرحها لمشاكلها ما يقرب شقّة الخلاف إن كان هناك خلاف، وإذا انعدم الخلاف، عمّ التفاهم، ووحدت الغايات، واتحدت المناهج.

إن النهوض بالشخصية المسلمة الواعية بما تتركه من آثار فی النفس الإنسانية، وبالمجتمع الإسلامی بما تمليه من قواعد تنظيمية وتكافلية وتضامنية، أمر مطلوب وملح ... فمعرفتها بالصورة المقنعة المتوازنة بين الطرح المتكرّر والمفرط لشكلياتها ... وبين الجانب الغائب ما وراء هذه الشكليات جدير بأن يعزّز المسير فی اتجاه الوعی الإسلامی النهضوی المتوازن والمتكامل.

ومما يؤكد هذه القراءة وضرورتها أنها تمثّل قراءة وفهماً لركن أساسی من أركان الإسلام، إذ إن الحج يعد ثورة موظّفة لمعنى يتجلّى من وراء تقنينها بالسلوكيات والشكليات والرمزيات ... ثورة ضد التقليد الذی يسير عليه الإنسان بجميع أشكاله ليعيش نمطاً جديداً من الحياة فی أيام، فحمل من إيحاءاتها ما يثقل وزنه فی سلوكه ووجدانه ...

فمثلًا عبر هذه الممارسة يتأكد عنده الرغبة الجادة فی فهم واع لمن حوله من أجناس البشر تمهيداً للتفاهم معهم فبناء أواصر المحبة والمودة كأسس لوحدة الكلمة والموقف، وكتعبير محسوس عن هذا الاندماج بغيره من إخوانه تخليه الواعی الممنهج عن اللباس والطيب وأسباب الزينة وملذّات الدنيا ...

---

۱- الأنفال: ۳۶.

ص: ۸۷

ولیس رداءً وإزاراً أبیضین غیر مخیطین یمثّلان الاستسلام لله طواعیة، قبل الاستسلام له کراهیة عند الموت فی لباس شبیه ...

إقبال علی الله بفتح صفحة جدیدة من العمل محفوفة بالأمل الذی لا یلغی من حسبانه ساعة الموت، الذی هو صفحة جدیدة أیضاً ولکن من حساب قدیم ...

والمناسک التالیة لهذه الخطوة تأکید لها، وتسدید لمستقبلها المنشود فی حیاة جدیدة منتظمة قائمة علی منهج الله، وتکرس فی نفس صاحبها روح الخیر والبذل والعطاء من خلال ما یغدقه الحاج فی سبیل هذه الفریضة ومناسکها، وتعود علی النظام والجدیة والمسؤولیة فی الحیاة بالتزامه بنظام دقیق شامل لجمیع شؤون الفرد لباساً وطعاماً وجسداً وزماناً ومکاناً ومجتمعاً ...، إنّها «حرکة شمولیة ذات أبعاد تربویة حقیقیة، استعملت فیها أسالیب الحسبة والتجریدیة والممارسات التجریبیة بکل ما تعنی من عمق فی قدرة الحج علی التغییر بطریقة تخلو من کل السلبیات فی العملیة التربویة علی العموم ... فالحج فریضة متعددة الجوانب والاطر: إجتماعیة، تربویة، سیاسیة، علمیة، عقلیة، وجدانیة، بدنیة، فنیة ..».

إن الحج تدریب عملی للمسلم علی المبادئ الإنسانیة العلیا التی جاء بها الإسلام، فقد أراد دین الله أن لا تکون تعالیمه ومبادؤه مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعبادته وشعائره ربطاً وثیقاً، حتی تکون سلوکاً تطبیقیاً فی حیاة المسلم وفی علاقته مع الآخرین .. یتضح ذلک من خلال کل أنشطة وفعالیات هذه الفریضة، بدءاً بالإحرام ونیته مروراً وانتهاءاً بالمناسک الأخری ..

إذن، الحج ثورة علی ما اعتاده الناس القادمون لأداء هذه الفریضة، کما أنه ترسیخ لقیم التواضع والمحبة والمساواة والتعاون، وهذه کلها أعمدة الوحدة بینهم باعتبارهم شریحة واسعة جمعتها هذه المواقف والمناسک، وبالتالی یسجلون لأنفسهم أنهم النموذج لتعاون أکبر وتآلف أوسع فی الإطار الإنسانی الأشمل ..

لمکة وللحج والحاج کلمة

وفی ختام هذه القراءات المنتقاة والمختصرة، أری من الضروری أن اختم هذه بقراءة أخیرة لمشهد الحج ومهامه وآفاقه المأمول تحققها أو علی الأقل الإعلان عنها بشکل صریح وواضح ومسموع من قبل جمیع من فی الأرض، خصوصاً ونحن فی عصر یکاد یکون العالم قریة واحدة بفضل وسائل الاتصالات التی دخلت کل بیت، بل ولا تترک شاردة ولا واردة إلا ووضعت یدها علیها صورة وصوتاً ..

دعوا مکة تقول کلمتها، ودعوا الحج یقول کلمته، ودعوا الحاج یقول کلمته ومن هو أکثر جدارة من مکة مکاناً، ومن الحج مناسک وأهدافاً، ومن الحاج نفسه الکادح من أجل الله تعالی وثوابه ومغفرته ورضوانه .. أن ینطق بکلمة؟! وهذه قراءتی الأخیرة أرجو أن أکون موفقاً فیها وفی قراءاتی التی خلت:

ومن أجدر من مکة أن تکون لها هذه الکلمة کل عام، وهی التی تحتضن أعظم وأقدم وأخلد مؤتمر سنوی عالمی، یتوافد إلیه الناس من کل جنس وعرق ولون؛ رجالًا وعلی کل ضامر یأتین من کل فج عمیق، منذ أذّن فیهم بالحج إلیها أبو الأنبیاء إبراهیم (لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَیَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ) (۱).

ومن غیرها أولی وهی تضم (وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَهُدیً لِلْعالَمِینَ* فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ) جعله الله حراماً لیکون للناس قیاماً: (جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ) (۲).

ولیکون لهم مثابة وأمناً (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً) (۳) یقیمون فیه مؤتمرهم السنوی، مخبتین إلی الله، متحدین تحت لواء أصلهم الإنسانی الواحد، متبرئین من کل ما یمکن أن یفرق بینهم من لون أو عرق أو لسان أو مال، أو لباس، أو ریاش؟! ومن غیر المسلم الحاج یملک خطاباً إنسانیاً شاملًا، مرتکزاً إلی قیم ربانیةٍ تهفو إلیه الفطر الإنسانیة السلیمة، لا یصدر عن شخصٍ مهما علت مکانته الدینیة أو السیاسیة أو الاجتماعیة، ولا عن هیئة أو حزب أو سلطة مهما کانت صفتها محلیة أو إقلیمیة أو دولیة، إنما یصدر عن

مؤتمر شعبی عالمی عریق راسخ لا یخضع لشیء من مؤثرات الزمان والمکان؟ وهل یحتشد ملیونا مسلم کل عام فی مکة، یهرعون إلیها من کل أنحاء الأرض یتکبدون لها المشاق والمتاعب والنفقات، لمجرد أداء طقوس تخصهم، بمعزل عن القضایا الإنسانیة الکبری؟! أهکذا کان حج رسول‌الله ۹ یوم خطب الناس فحرم دماءهم وأموالهم، ووضع عنهم ربا الجاهلیة، وأوصاهم بالنساء خیراً، فتناولت خطبته أخطر جوانب حیاتهم التشریعیة والاقتصادیة والاجتماعیة؟ (۴)

ألیس فی تجاهل المشکلات التی تعانی منها البشریة- ما کان منها متعلقاً مباشرة بالمسلمین، وما لم یکن له بهم علاقة مباشرة- بعداً عن مقاصد الحج التی قدم الله تعالی فیها شهود المنافع علی ذکر اسمه: (لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَیَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ) ونکوصاً عن أداء المهمة التی أناطها الله تعالی بالمسلمین، إذ جعلهم أمة وسطاً وأشهد علیهم الرسول ۹ لیکونوا بدورهم شهداء علی الناس: (وَکَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَیَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً) (۵).

ثم هل تضاءلت المعانی الکبیرة للحج، والمثل العلیا التی ینطوی علیها، والرموز السامیة الرفیعة التی یحفل بها، لتقتصر علی خبر عابر عن فریضة الحج وانعقادها لا- یحرک فی المشهد الدولی ساکناً، ولا یبلغ رسالة الإسلام جاهلًا، ولا یصحح من ضلالات الإعلام العالمی خطأً، ولا- یحقق للإسلام والمسلمین فی المحافل الدولیة حضوراً؟ وتتوالی مواسم الحج عاماً بعد عام، وتنفتح الثقافات الإنسانیة علی بعضها إثر ثورة الاتصالات العارمة التی أخذت تغمر العالم بالمعلومات، وتضعنا علی تماس مباشر مع جمیع الثقافات .. فیکبر السؤال: ألم یأنِ أن یکون لنا منبر نبلغ منه رسالتنا ونوضح قضیتنا، ونصحح المفاهیم المغلوطة عن دیننا؟ وهل غیر الحج ذی القیم الکثیرة والمبادئ العالیة والأهداف الکبیرة التی هی

---

۱- الحج: ۲۸.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- البقرة: ۱۲۵.

۴- انظر خطبة رسول الله ۹ فی السیرة النبویة ۲۵: ۴؛ حجة الوداع وفی غیرها من المصادر.

۵- البقرة: ۱۴۳.

ص: ۸۸

بمتناول العديد من الحجاج المفكرين والقادرين والناشطين، كما أنها متيسرة بشكل أو بآخر للكثيرين من المسلمين الحجاج وحسب مستوياتهم .. يصلح لأن يكون هذا المنبر؟ آن أوان تبليغ رسالة الإسلام إلى العالم أجمع- من أسلم نفسه منه لله ومن لم يسلم- وأن ندوة الحج هى المنبر، وأن موضوعها السنوى المتخذ- بشيء من التطوير- هو الرسالة. لا شك أن تحقيق هذا الحلم الطموح تعترضه صعوبات جمة.

فالناس المخاطبون، تختلف ألسنتهم وألوانهم وأمزجتهم ودياناتهم، ومستوياتهم العلمية، واهتماماتهم الثقافية، وخصائصهم البيئية .. ولكن الداعية المسلم الواعى نفسه وبمؤسساته العلمية المتطورة والقدرات الواعدة يمتلك أكثر أنواع الخطاب قدرة على النفاذ إلى قلوب جميع الناس، واستنهاض فِطَرهم السليمة، للقيام بسعى إنسانى مشترك من أجل إقامة العدل ورفع الظلم وتحرير الإنسان من ربقة شهواته وأثرته، انطلاقاً من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى أناطه الله تعالى بخير أمة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) (۱).

وبهذا وبغيره نعرف أى منبر نرتقيه، وأى مناسبة نعيشها ونستقى منها معارفنا .. وأى جمهور نخاطب، وأى عدد يمكن أن نبلغه رسالة الحج بالبلاغ المباشر الحى عن طريق الفضائيات، وبالبلاغ المنقول فى الأثير عبر أجهزة الإعلام المتنوعة مكتوبة ومرئية ..

وعن طريق الحجاج العائدين وهم كثر إلى أوطانهم وأهاليهم أيضاً، فالحجاج قادرون على أن يكونوا مبلغين ناجحين لرسالة الحج ولرسالة الإسلام لأسرهم وأبناء بلدتهم وقبائلهم «فرب مبلَّغ أوعى من سامع ..» وعلينا أن لا نستهين بأى جهد مهما صغر ..

ولعرفنا بعد ذلك أى تفريط بحق منبر الحج نرتكبه فى عدم توظيفه التوظيف الأمثل والأجدى .. وأى مسؤولية نتحملها جراء تقصيرنا فى تبليغ رسالة الله تعالى إلى الإنسانية الظمأى إليها، التى لم تكن فى يوم من الأيام أحوج إليها من أيامها هذه التى تغرق فيها فى بحر الأنانية المادية الشهوانية وضلالاتها، التى ابتعدت بها عن طريق الله تعالى، وأبطأت بها عن وتيرة الكدح الإنسانى المرسوم للإنسان فى سعيه للتحرر من الفساد وسفك الدماء

(يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (۲).

ونتحملها كذلك كتماناً للشهادة التى ائتُمنا عليها

(وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) (۳).

ونتحملها صمتاً مطبقاً إزاء الحملات الإعلامية المغرضة التى يشنها أعداء الإسلام عليه، يلبسون بها الحق بالباطل، ويستهدفون تشويه تعاليمه السمحة، وطمس حقائقه الناصعة:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ) (۴).

(كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ) مظهر الحج نموذجاً!

إن الحجّ إذا ما أداه الحاج المؤمن كما هو مرسوم له من قبل السماء وكما هو الحج الإبراهيمى الصحيح، فلا نستغرب إذا ما استعنت بهذا التشبيه الرائع الوارد فى الآية المباركة: (كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ).

فأقول: إنه يمكن أن يستفاد منه فى وصف المؤمنين وهم فى مواقف الحج وساحته بما يحملونه من قيم السماء بأن يكونوا كما هم فى ميادين جهادهم لأعدائهم، وكما ينبغى أن يكونوا فى ساحات القتال بنياناً مرصوصاً، بنياناً متيناً بقيمه ومبادئه أن يكونوا- هكذا- صافين أنفسهم متضامنين متكافلين متماسكين محكمين فى أخلاقهم ومواقفهم وآرائهم وأهدافهم كأنهم قطعة واحدة فقط لا اثنتين أو أكثر، لا فرجة فيها تخترق، ولا ثغرة فيها تستغل من قبل الآخرين أو تعطى صورة سيئة لهذا المشهد، وهو يعيش معناه العبادى الواسع .. إنه بنيان أخلاقى دقيق نظيف لأمناء منهج السماء فى الأرض ينأى هذا البنيان المبارك بنفسه عن عصبيات عديدة عصبية اللون وعصبية الجنس وعصبية القبيلة والعشيرة والنسب وعصبية المال والجاه .. ويعد هذا حلقة من حلقات التربية الصالحة السليمة للحجاج،

وهم يمثلون أمتهم الأوسع والأكبر فى كل موسم حـج، ففريضة الحج تجربتهم التى من خلالها يمارسون عملياً ذلك البنيان ويتدربون عليه، والحج كما نعلم دورة تدريبية لكل معانى الدين ومفاهيم الحياة ...

لعلى أكون موفقاً فى اختيارى واقتباسـى عنواناً من الآية الكريمة الرابعة من سورة الصف- التى سميت السورة بالصف انطلاقاً من الآية المـذكورة وتأكيـداً على أهمية الصف المتماسك- لوصف ما هو مطلوب ويهدف إليه من قبل مناسك الحج ذات المظاهر الوحدوية العديدة، وهى ما أكثرها وأعظمها مظاهر الوحدة فى موسم الحج وهى تتجلى فى كل مواقيته ومناسكه وأنشطته ..

فإضافـة إلى أن موسم الحج بحد ذاته أيامه رائعة جميلة وملتقى تعارفى جليل نافع فهو يبنى هيبة له فى النفوس، وجلالة له فى القلوب، ويشـكل مسـيرة نادرة قلّ مثيلها بل انعـدم، ويترك مظهراً رائعاً للحجيـج وهم يقفون تلك المواقف المهيبـة، وقـد اتحدوا مكاناً وزماناً ولباساً .. وهم يتحركون جميعاً من ميقات إلى آخر، ومن منسك إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، ومن أثر الى آخرفالمشاعر والمواضع كلها هدف لوحدة المشاعر وهدف

---

۱- البقرة: ۱۱۰.

۲- الانشقاق: ۶.

۳- البقرة: ۲۸۳.

۴- الصف: ۸.

ص: ۸۹

للتوحيد. وقبل أن نستعرض ما فى هذا الموسم وهذه الفريضة مما يتيسر لنا من مظاهر وعوامل توحيد الصف، لا بد من كلمة أضيفها إلى ما ذكرت:

إن مما لا ريب فيه أن الاجتماع والاتفاق توحيد للصف وسبيل إلى القوة والبقاء، وأن التفرق والاختلاف تمزيق للصف وطريق إلى الضعف والانهزام، ولا خلاف فى أنه ما ارتفعت أمة من الأمم وعلت رايتها إلا بتوحيد صفوفها وتوحيد جهودها والتعاون والتلاحم بين أفرادها ..

وهنا نحاول أن نلقى أضواء على فريضة الحج، وهى- وكما نراها- خير دليل على وحدة الصف المؤمن، الذى يظهر لنا وهو يؤدى مناسك الحج المتعددة وكأنه فعلًا بنيان مرصوص لا تجد فيه خللًا ولا شائبة ولا نقصاً، ما أروعه من كيان متماسك متين، وما أجله من جمع هائل تباركه العقول، وتهابه النفوس، وتهتز له المشاعر والعواطف فخراً واعتزازاً ..

تعال معى أخى المؤمن! حتى نرى ما يحمله الحج من معان جميلة استحق معها أن يحتل المكانة الأكبر والمنزلة الأعظم دينياً وأمنياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ... ليؤسس رصانة فى المواقف، وثباتاً فى المبادئ، وعظمة فى المظاهر الموحدة ..

فالحج بداية (نموذج) يعد مبدءاً عظيماً يدور حول إطاعة الله سبحانه وتعالى والرسول ۹ لأن هذه الطاعة هى أساس كل خير للأمة، وبداية كل خير، وأول الخير هو وحدتها .. والآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة تدعو إلى تلك الطاعة، وتحذر هذه النصوص من الاختلاف والتنازع، لأن هذه الأمراض إن وقعت تنخر كيان الأمة وتجعله هشيماً متفتتاً، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (۱).

وفى صحيح مسلم عن أبى مسعود رضى الله عنه أنه قال:

«كان رسول الله ۹ يمسح مناكبنا فى الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

والحج يشكل فى كل عام موسماً عبادياً عظيماً، تتجسد فيه تلك الطاعة لله سبحانه وتعالى ورسوله ۹ عبادة وأخلاقاً وسيرة، وتنبثق بسببها وحدة المسلمين وقوتهم فى أحسن مظاهرها وأبهى حللها، حيث تذوب الفوارق، وتتلاشى الحواجز، ويجتمع المسلمون فى مشهد رائع أخاذ، يبعث على السرور، ويسعد النفوس، ويبهج الأرواح والقلوب.

والحج كما صر ح القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، إلى جانب كونه عبادة وتقرباً إلى الله سبحانه، وإلى كون العبادة ظاهرة واضحة تحيط أجواءه وساحاته ومعالمه، فإنه لا يلغى ولا يقلّل ما يتضمنه من منافع اجتماعية وفوائد ثقافية، واقتصادية، وسياسية، وتربوية، تساهم فى بناء المجتمع الإسلامى، وتزيد فى وعيه وتوجيهه، وتساهم فى حل مشاكله، وتنشيط مسيرته .. بل على العكس يوجدها وينميها ويدعو إليها ويحث عليه ..

والحج يذكرنا بمن سار على تلك البطاح المباركة من أنبياء الله تعالى ورسله صلوات الله تعالى عليهم، ويذكرنا بعباده الصالحين وبالشهداء؛ ويتذكر الصحابة الغرّ المنتجبين رضى الله عنهم، وما لاقوه من البلاء فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف. فيشعر كل منا بأنه امتداد لتلك السلسلة المباركة، وذلك الركب الميمون. ويتذكر أن هذا البيت الذى يطوف حوله، والمسعى الذى يسعى فيه، والمعالم الأخرى ما كانت لتصل إليه لولا إرادة الله عز وجل وجهود الأنبياء والأئمة والشهداء والصالحين ..

والحج موسماً وفريضة هو ذلك النموذج الفذ، والذى يعد مظهر وحدة المسلمين وقوتهم، فهم يشهدون فى موسم الحج أروع مظاهر المساواة والتواضع والأخوة الإنسانية، عبر إلغاء كل ما من شأنه التميز والطبقية والتعالى، وعبر خلع أسباب الظهور الاجتماعى كالأزياء مثلًا ثم الظهور باللباس العبادى الموحد، حيث يحس الجميع أنهم بلا فوارق وبالتالى يحسون بوحدتهم وبالأخوة والمساواة ..

والحج تظاهرة إيمانية رائعة تشترك فيها صنوف متعددة من الأجناس والفئات والطبقات والقوميات على موعد واحد، وفى أرض واحدة، يرددون هتافاً واحداً، ويمارسون شعاراً واحداً، ويتجهون لغاية واحدة، وهى الإعلان عن العبودية والولاء لله وحده، والتحرر من

كل آثار الشرك والجاهلية، بطريقة جماعية حركية، تؤثر فى النفس، وتشبع المشاعر والأحاسيس بالإيمان وآثاره، وبمداليل التوحيد وثمارها ..

والحج يستشعر فيه المسلمون وحدة البشر ووحدة الأرض، فتنهار بينهم الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع الإقليمية والقومية والعنصرية .. فهم يأتون من كل فج عميق، من كل طريق بعيد ومكان ناء، يقطعون آلاف الأميال، ويخترقون كل الحواجز والحدود والبحار والمحيطات، ويجتازون كل الموانع التى صنعها الأعداء على أرض الله سبحانه وتعالى، استجابة لنداء العقيدة، وتلبية لهتاف الإيمان، وتلبية لدعوة شيخ الأنبياء إبراهيم ٧ الحية الباقية الخالدة ..

والحج يلتقى فيه المسلمون بمؤتمرهم الكبير، فيتذاكرون فى شؤونهم، ويتشاورون فى أمور حياتهم وعقيدتهم، ويتبادلون الخبرات والتجارب والآراء والعادات الحسنة، ويتعرف بعضهم على مشاكل بعض، ويطلع بعضهم على رأى بعض، ويتعرف بعضهم على أخبار بعضهم الآخر، فيزداد الوعى، وتنمو المعرفة، وتشحذ الهمم من أجل الإصلاح والتغيير والاهتمام بشؤون الأمة والعقيدة، فتخطط المشاريع، ويفكر فى الأعمال، وتؤسس المراكز الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويستعين بعضهم ببعض، وكأنهم جسد واحد، وروح واحدة، وكيان واحد ..

فللحج إذن وقت محدد، ومكان معين، ومناسك وإن تعددت فهى واحدة، وزى موحد ونداء واحد، يجتمع فيه المسلمون ليؤدوا فيه مناسكهم، وقد تحدث عن هذا القرآن الكريم:

---

١- الأنفال: ۴۶.

ص: ۹۰

(أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ) (۱).

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ).

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

هکذا إذن حددت الآیات زمناً وعینت مکاناً لهذه الفریضة المبارکة، وهما یشکلان وغیرهما مظهراً مهماً من مظاهر الوحدة، فتوحید الزمن والموضع من توحید الهدف.

کما أن الکل مطالب بأداء مناسک الحج من أماکن محددة بدءاً بالإحرام من المواقیت المعروفة من غیر تجاوز، والطواف بالبیت المحدد دون غیره، والسعی بین الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ثم المزدلفة والمبیت بمنی لیلتین أو ثلاثاً لأداء أعمالها من الذبح والحلق أو التقصیر ورمی الجمار ...

لا فقط إذن الظرف الزمنی محدد والظرف المکانی معین والمواقیت، بل حتی المناسک والأنشطة التی یکلف بها الحجاج هی الأخری محددة، فکلهم یقومون بنفس الأعمال مما یجسد ویعمق المساواة بینهم، تمهیداً لبناء الأخوة والمحبة، ویجعل الوحدة بینهم متجددة فی کل ساعة وفی کل مکان وفی کل عمل یقومون به ویؤدونه، وتعیش معهم فی کل خطوة یخطونها وفی کل ساعة یقضونها .. وبالتالی جمیع هذا یعد دلیلًا علی الترغیب الملح، والتشجیع فی توحید الصفوف وتحقیق ما فی الوحدة من قوة وصلابة ..

الحج- کما هو واضح من وظائفه ومهامه وأهدافه- یفسح المجال ویعطی الفرصة ویهیؤها للمسلمین لمواساة بعضهم بعضاً من خلال لقاءاتهم المتکررة، وتقارب آمالهم وآلامهم وهذا مقوم مهم لقوتهم ووحدتهم .. وهذا أیضاً من مظاهر هذه الفریضة المبارکة.

الحج یعد موسماً کبیراً واعیاً رائداً واعداً لاجتماع العلماء والمفکرین والدعاة إلی الله والمصلحین، وهم أهل الذکر والفکر وهم القادرون علی التشاور بینهم، لأنهم الأجدر فی البحث بشأن هموم الدین ومشاکل الأمة والعمل علی إیجاد حلول لها وجمع شملها، والبحث فی الوسائل والأسالیب المعینة علی ذلک ..

والحج موسم لاجتماع الأغنیاء بالفقراء، والعمل علی مواساتهم والتعرف علی آلامهم وحاجاتهم ثم التخفیف عنهم، مما یجسد مبدأ التضامن والتلاحم بین أفراد هذه الأمة المرحومة ...

الحج تواجد واعد فی تلک البقاع المبارکة لأیام وإن کانت قلیلة، ویعد اختباراً لآمال الأمة وإرادتها وبوتقة لأنشطتها ولما یشغل بالها، حیث یتطلعون جمیعاً إلی عهد زاهر تتظافر فیه جهودهم، لیشکلوا وحدة شاملة، ترفعهم فوق الأمم، وتعید لهم تلک الریادة والسیادة التی ضاعت من أیدیهم بسبب الفرقة والنزاع، ویتم الله تعالی وعده لهذه الأمة بالاستخلاف الموعود ..

والله غالب علی أمره، وهو یتولی الصالحین یقول سبحانه وتعالی فی محکم کتابه العزیز:

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) (۲).

انطلاقاً من برکات هذا البیت الأول والمعمور ومن هداه ومن خصائصه وآیاته البینات الأخری:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً).

والحج تتحقق فیه وحدة العبادة ووحدة الأخوة الإسلامیة بکل معانیها ومظاهر هذا واضحة جلیة: فالرب واحد، والقبلة واحدة، والمشاعر واحدة، واللباس واحد، والمناسک واحدة، والزمان واحد، والمکان واحد، کل شیء یتسم بالوحدة ویؤشر علیه. فکل هذه المظاهر تجتمع فی الحج، وهی مدعاة للإحساس بوحدة الشعور، وموجبة للتآخی، والتعارف، والتعاون علی مصالح الدین والدنیا، کیف لا یکون کذلک والکعبة هی الجامعة وهی عنوان التوحید، عنوان الدین، عنوان الإسلام، وهی کما جاء فی صحیح أبی بصیر، عن أبی عبد الله ۷ أنه قال:

«لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة».

فالكعبة تمثل العنوان الخارجي للإسلام فما دامت الكعبة المشرفة قائمة يؤمها المسلمون في جموع كبيرة في حجهم، ويطوفون بها ويعظمونها ويتوجهون إليها في عبادتهم فالدين قائم.

كما أن الكعبة أول مظاهر الوحدة فهي إضافة إلى أنها قبلة المسلمين التي يتوجه إليها في كل يوم خمس مرات أكثر من مليار مسلم، تلخص عنوان دعوة الرسل إلى توحيد الله ووحدة المسلمين أي كلمة التوحيد ووحدة الكلمة ووحدة الموقف، وحتى تظهر هذه المشابهة بين الكعبة المشرفة ودعوة الرسل هو أن الكعبة كانت ولا تزال أهم العوامل لقيام الناس في توحيد الله وتعظيمه وعبادته ..

ففي الحج يجتمع المسلمون من أقطار الأرض حول الكعبة، حول البيت العتيق، الذي يتجهون إليه- كما قلنا- كل يوم خمس مرات، بل في كل فرض ومستحب ودعاء، البيت الذي يقصدونه بقلوبهم وأفئدتهم من خلال صلواتهم وهم في بلادهم الشاسعة البعيدة، هم الآن يجتمعون حوله ويرى

---

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- النور: ۵۵.

ص: ۹۱

بعضهم بعضاً، يتصافحون، ويتشاورون، ويتحابون، خلعوا تلك الملابس المختلفة والمتباينة من على أجسادهم، ووحدوا لباسهم، ليجتمع بياض الثياب مع بياض القلوب، فهو صفاء فى صفاء، صفاء فى ظواهرهم وصفاء فى بواطنهم ..

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الفريضة فيها من المعانى الروحية التى لا تعطيها أو لا تتأتى لعبادة أخرى- وهى أيضاً من أسمى مظاهر هذه الفريضة- وأن تقديس تلك الأماكن المعظمة والاهتمام بها والتواجد فيها والاستزادة من معانيها ومضامينها له الأثر البالغ فى تربية الحجاج وتطهيرهم وتوعيتهم .. وعلى رأس تلك الأماكن الشريفة، الكعبة المعظمة زادها الله شرفاً، فهى أول بيوت العبادة التى وضعها الله لعبادته:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ) (۱).

بعد أن بوأه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم ۷:

(وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (۲).

والله تعالى هو ربه:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ* الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (۳).

وهو صاحب هذا البيت دون غيره، وهى أى الكعبة أصل الأرض، كما فى رواية عن أهل البيت::

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا لَهُ رَبٌّ وَسُكَّانٌ يَسْكُنُونَهُ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّهُ لَا رَبَّ لَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ وَهُوَ الْحُرُّ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ قَبْلَ الْأَرْضِ ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِ فَدَحَاهَا مِنْ تَحْتِهِ».

«عَنْ أَبَانِ بْنِ عُثْمَانَ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِى جَعْفَرٍ ۷ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ سُمِّىَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ؟ قَالَ: هُوَ بَيْتٌ حُرٌّ عَتِيقٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَمْلِكْهُ أَحَدٌ».

وقد راحت الأحاديث المباركة تبين أهمية الكعبة المشرفة وأنها أحبّ البقاع إليه تعالى، وراحت تربط الناس بالكعبة وتشدهم إليها عن طريق بيان ما للإنسان المرتبط بها بأى نوع من الارتباط، سواء فى الطواف أو فى غيره من الثواب العظيم، وقوة دافعة لثبات الموقف وتوحيد الصفوف. كما راحت هذه الروايات وغيرها عن أهل البيت: تؤكد بكل وضوح أن الترابط بينهم وبينها وثيق، ولا يمكن الفصل بينهما.

عَنْ زُرَارَةَ، قَالَ: كُنْتُ قَاعِداً إِلَى جَنْبِ أَبِى جَعْفَرٍ ۷ وَهُوَ مُحْتَبٍ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا عِبَادَةٌ. فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَجِيلَةَ يُقَالُ لَهُ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ لِأَبِى جَعْفَرٍ ۷: إِنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْكَعْبَةَ تَسْجُدُ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِى كُلِّ غَدَاةٍ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ۷: فَمَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ؟

فَقَالَ: صَدَقَ الْقَوْلُ مَا قَالَ كَعْبٌ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ۷: كَذَبْتَ وكَذَبَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَعَكَ. وَغَضِبَ ۷.

قَالَ زُرَارَةُ: مَا رَأَيْتُهُ اسْتَقْبَلَ أَحَداً بِقَوْلٍ كَذَبْتَ غَيْرَهُ.

قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بُقْعَةً فِى الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْكَعْبَةِ وَلَا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا لَهَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فِى كِتَابِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ لِلْحَجِّ شَوَّالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَشَهْرٌ مُفْرَدٌ لِلْعُمْرَةِ رَجَبٌ».

فى الصحيح عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ ۷ قَالَ:

«أَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَكَّةُ وَمَا تُرْبَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تُرْبَتِهَا وَلَا حَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حَجَرِهَا وَلَا شَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ شَجَرِهَا وَلَا جَبَلٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَالِهَا وَلَا مَاءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ مَائِهَا».

وفى النظر إليها جاء فى الصحيح عَنْ حَرِيزٍ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ ۷ قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْإِمَامِ عِبَادَةٌ». وَقَالَ: «مَنْ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ».

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ۹ قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ حُبّاً لَهَا يَهْدِمُ الْخَطَايَا هَدْماً».

ورُوِىَ أَنَّ «النَّظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى الْمُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَالنَّظَرَ إِلَى آلِ مُحَمَّدٍ عليهم السلام عِبَادَةٌ».

وجاء فى الصحيح عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِى عَبْدِ اللهِ ۷ قَالَ:

---

۱- آل‌عمران: ۹۶.

۲- الحج: ۲۶.

۳- قریش: ۳- ۴.

ص: ۹۲

«إِنَّ اللهَ تَبارَکَ وتَعالَی جَعَلَ حَوْلَ الْکَعْبَةِ عِشْرِینَ ومِائَةَ رَحْمَةٍ مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِینَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّینَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِینَ».

وعن الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ أَبِی عَبْدِاللهِ ۷ قَالَ: قَالَ أَمِیرُ الْمُؤْمِنِینَ ۷:

«إِذَا خَرَجْتُمْ حُجَّاجاً إِلَی بَیْتِ اللهِ فَأَکْثِرُوا النَّظَرَ إِلَی بَیْتِ اللهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ وَعِشْرِینَ رَحْمَةً عِنْدَ بَیْتِهِ الْحَرَامِ سِتُّونَ لِلطَّائِفِینَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّینَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِینَ».

وعَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ الْخَزَّازِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ ۷ قَالَ:

«إِنَّ لِلْکَعْبَةِ لَلَحْظَةً فِی کُلِّ یَوْمٍ یُغْفَرُ لِمَنْ طَافَ بِهَا أَوْ حَنَّ قَلْبُهُ إِلَیْهَا أَوْ حَبَسَهُ عَنْهَا عُذْرٌ».

وفی الترابط بینها وبین أهل البیت: ولما لهذا الترابط والصلة من جذب للناس نحوها من أهمیة ووقع علی النفوس وما یستحقه من الثواب جاء فی الخبر عَنْ عَلِیِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِیزِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ ۷ قَالَ:

«مَنْ نَظَرَ إِلَی الْکَعْبَةِ بِمَعْرِفَةٍ فَعَرَفَ مِنْ حَقِّنَا وَحُرْمَتِنَا مِثْلَ الَّذِی عَرَفَ مِنْ حَقِّهَا وَحُرْمَتِهَا غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَکَفَاهُ هَمَّ الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ».

هذا، وإن للحج أسراراً بدیعة، وحکماً متنوعة، وبرکاتٍ متعددة، ومنافع مشهودة، سواء علی مستوی الأفراد أو علی مستوی الأمة، قال الله تبارک وتعالی فی محکم التنزیل: (وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَعَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ) (۱).

الحج میدان فسیح یتدرب فیه الحاج عملیاً علی اکتساب الأخلاق الجمیلة والآداب الحمیدة علی الحلم، والصبر، والمداراة، وکظم الغیظ من جراء ما یلقی من الزحام، والتعب، والنصب سواء فی الطریق إلی الحج، أو فی الطواف، أو فی السعی، أو فی رمی الجمار، أو غیرها من المناسک؛ فیتحمل الحاج ما یلقاه من ذلک؛ لعلمه بأن الحج أیام معدودة، ولخوفه من فساد حجه إذا هو أطلق لنفسه نوازع الشر، ولإدراکه بأن الحجاج ضیوف الرحمن؛ فإکرامهم، والصبر علی ما یصدر من بعضهم دلیل علی إجلال الله عز وجل.

فإذا تحمل الحاج تلک المشاق فی أیام الحج صار ذلک دافعاً لأن یتخلق بالأخلاق الجمیلة بقیة عمره.

والحج یذکر أصحابه ومریده بالآخرة؛ فازدحام الناس وهم یموج بعضهم فی بعض، وهم فی صعید واحد، وبلباس واحد، وقد حسروا عن رؤوسهم، وتجردوا من ثیابهم، ولبسوا الأردیة والأزر، وتجردوا من ملذات الدنیا، ومتعها، تذکر یوم حشرهم علی ربه؛ فیبعثهم ذلک إلی الاستعداد للآخرة، ویقودهم إلی استصغار متاع الحیاة الدنیا، ویرفعهم عن الاستغراق فیها، ویکبر بهمتهم ویترکوا کل ما یدعو إلی السوء والبغضاء وحب الأنا .. فیقترب کل واحد منهم من محبة إخوانه الآخرین ویستغرق بعضهم فی مودة بعضهم الآخر ویتم الاطلاع علی مشاکلهم وحاجیاتهم، وهذا مدعاة لحب الوحدة وتقویة الصف المسلم والساحة المؤمنة ..

والحج یعد تجمعاً بشریاً ضخماً، یستقطب الملایین من المسلمین، من مختلف الأقطار والأمصار، فهو ینتج حرکة بشریة هائلة، یتبعها تحرک اقتصادی ومالی ضخم، عن طریق النقل، والاستهلاک، وحمل البضائع وتبادل النقود، وشراء الأضاحی والحاجیات ومستلزمات الحج والإقامة والسفر والتنقل، فینتفع العدید من المسلمین بذلک، ویشهد مجتمعهم حرکة اقتصادیة وتجاریة ومالیة نشطة یکون هذا سبباً فی تعارفهم وتآلفهم وتعاونهم.

الحج مدرسة یتعلم فیها الحاج، یتعلم الکرم، والبذل، والإیثار، والبر، والرحمة، وذلک من خلال ما یراه من المواقف النبیلة الرائعة التی تجسد هذه المعانی؛ فهذا سخی یجود بالإنفاق علی المساکین، وذاک کریم بخلقه یعفو عمن أساء إلیه، وأخطأ فی حقه، وذاک رحیم یعطف علی المساکین ویتلطف بهم، وذاک حلیم یصبر علی ما یلقاه من أذی، وذاک برّ بوالد ه یحمله علی عاتقه، وذاک یحوط أمه العجوز بلطفه ورعایته.

بل ویکتسب الإنسان الحاج الأخلاق الجمیلة عند رؤیته من لا یدرکون معنی الحج، وهم الذین یغضبون لأدنی سبب، وتطیش أحلامهم عند أتفه الأمور، کیف یکون اکتسابه؟ بتجنبه ما هم علیه من خلق لا یلیق بآداب وأخلاق هذا الموسم .. فإذا رأی العاقل

البصیر سوء فعال هؤلاء انبعث إلی ترک الغضب، وتجافی عن مرذول الأخلاق، ونأی عمّا هم علیه.

إذن، الحج إعداد وتربیة لسلوک الفرد ونوازعه بل هو إعداد وتربیة لسلوک الجماعة ونوازعها، وبالتالی إعداد وتربیة لسلوک الأمة ونوازعها، ففیه تتعود کل هذه المفاصل بدءاً بالفرد الحاج مروراً بالجماعة الحاجة فالأمة الحاجة، الصبر وتحمل المشاق وحسن الخلق بدءاً باللطف والتواضع واللین وحسن المحادثة مروراً بالکرم والتعاطف والتراحم، وانتهاءاً بالامتناع عن الکذب والغیبة والجدال والخصومة والتکبر وغیر ذلک.

والحج دورة میدانیة یتعود الإنسان الحاج- فرداً کان أو جماعة أو أمة- الألفة والتعارف عن طریق السفر والاختلاط فتنمو لدیه الروح الاجتماعیة وتتهذب عنده الملکات الأخلاقیة، کل هذا وهو یشارک فی کل الممارسات التربویة، ویساهم فی التفاعل البشری الرائع، الذی یشهده فی الحج فی حضره وفی سفره، فی سکنه وإقامته وفی ترحاله وبأرقی درجات الالتزام والاستقامة السلوکیة.

وقد تحدث الإمام جعفر الصادق ۷ عن منافع الحج وفوائده، بإجابته البلیغة عن سؤال أحد أصحابه، وهو هشام بن الحکم، فقد سأله: ما العلة التی من أجلها کلف الله سبحانه وتعالی العباد بالحج والطواف بالبیت؟

---

۱- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۹۳

فقال ۷: «إن الله خلق الخلق ... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فی الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال، ولتعرف آثار رسول الله ۹ وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى» (۱).

وقول الإمام على بن موسى الرضا ۷ يتطابق مع تعليل الإمام الصادق ۷ وتحليله لمنافع الحج وآثاره الاجتماعية التى يجنيها الفرد والمجتمع حين قال: «إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عز وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد، تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، مع ما فيه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً فی الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلل، مع ما فی ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من فی شرق الأرض وغربها، ومن فی البرّ والبحر ممن يحجّ وممن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف فی المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه، ونقل أخبار الأئمة: إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عزّ وجل: (فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)» (۲).

لقد شاء الله تعالى أن يكون الحج محراباً للعبادة ... ومدرسة للتربية والتوجيه، وموسماً للمنفعة وتحقيق المصالح الاجتماعية .. وساحة مباركة لتوحيد الصفوف المؤمنة والأمة المؤمنة، بما ذكرناه مما فهمناه وعرفناه وقرأناه عنه .. لتنال بذلك حب الله تعالى ورضاه، ولتحقق ما تصبو إليه من خير عميم، وكرامة وعز لا يضام .. وهكذا هو الحج وهكذا هی مظاهره وهكذا هی معانيه ومفاهيمه وأبعاده وآثاره وعطاءاته ... (... وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (۳).

إنه بحق خير فريضة وأعظم ميدان وأصدق ساحة تطبيقية لمبدأ التعارف الجميل الذى صدعت به الآية الكريمة:

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) (۴).

---

۱- راجع: وسائل الشيعة.

۲- وسائل‌الشيعة ۷: ۸.

۳- التوبة: ۷۲.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ۹۴

ص: ۹۵

## الحج رحلة حضارية وحدوية طيبة!

محمد سليمان

إن الرحلة إلى البقاع المقدسة- مكة والمدينة- رحلة ذات آثار طيبة فى حياتنا سواء على المستوى الفردى أم الاجتماعى، ووحدة الأمة المسلمة وهى الأهم، وهو ما نجده فى كل ما حملته هذه المقالة من مميزات الرحلة للحج وفى الأبعاد والحكم .. ولهذا تعد من أشرف وأنفع الرحلات، التى يقوم بها الإنسان المؤمن منذ أن راح أذان سيدنا نبى الله إبراهيم ۷ يدوى فى الآفاق قبل أربعة آلاف سنة تقل قليلًا أو تزيد وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فهى رحلة الإجابة والتلبية و التزود بالتقوى فهى زاد الإنسان وهو يغادر بيته وأهله وأتباعه وما يملكه من سلطان ومال وعمل حيث فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ليؤدى خير الأعمال وأنبل الأنشطة وأعظم المناسك وأشرفها فى أطيب الأماكن وأقدس البقاع وأحبها على الله تعالى لهذا تعبد الناس بها لحكم قد ندرك شيئاً منها ويغيب الكثير الكثير منها، والله أعلم بالذى تحمله من حكم وأبعاد وصفات ..

إن الرحلات تتسم بالاستمرار لأنها حركة، والإنسان لا يكفّ عن الحركة؛ لأن التوقف عن الحركة يعنى التأخر أو توقف الحياة أو الموت.

فالإنسان ليس كتلة جامدة كالجبال والمدن، فله حركة تتم بشكل طبيعى لا إرادة له فيها (مواليد ووفيات)، أو تتم بشكل يخططه الإنسان بنفسه أى

ص: ۹۶

حركة إرادية تتمثل بسعيه الدؤوب فى مناكب الأرض والضرب فيها سواء أكان هذا الإنسان فرداً أم جماعة، أم أسرة أم كياناً، أم حزباً ودولة وأمة .. وهذه الحركة هى ما تعرف بالرحلة عند الجغرافيين من أجل الاستكشافات هنا وهناك فى المعمورة أو زيارة مقدس أو عزيز، أو طلب العلم، والرزق والتجارة، وللراحة والاستجمام، وأسبابها عديدة كما أن هذه الحركة التى سميتها رحلة قد تكون داخلية، بين مدن الدولة الواحدة، أوتكون خارجية لدول أخرى، وقد تكون هذه الرحلة فردية أو جماعية، وقد تكون دائمة أو مؤقتة، موسمية أو يومية، وأيضاً قد يكون الإنسان مجبراً عليها أو تتم باختياره وإرادته ..

ثم إن حركة المواليد والوفيات إذا كانت تعمل على توزيع السكان فإن الرحلات بأنواعها المختلفة تؤدى لإعادة هذا التوزيع. المهم أن الرحلات لها منافع كثيرة قد لا يمكن الإلمام بها .. ومن أفضل هذه الرحلات وأعظمها بركة وخيراً لدنيا الإنسان ولآخرته هى الرحلة التى أنعم الله تعالى بها على الناس والتى تتمثل فى الانطلاق نحو بيته المبارك والمواقف المشرفة عرفة والمزدلفة ومنى .. وحيث الأضرحة المباركة لرسول الرحمة محمد ۹ ولأهل بيته سلام الله عليهم، والصالحين من الصحابة والشهداء رضوان الله تعالى عليهم .. حقاً إنها رحلة مباركة طيبة لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ.

وإننا إنما اخترنا التسمية انطلاقاً من الرحلات العديدة التى قام بها العديد من العلماء الذين دوّنوا ما رأوه فى رحلاتهم عبر العالم، ومن ذلك رحلتهم إلى الديار المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونكتفى بذكر أسماء بعضها ... وقبل ذلك وقبل التعرض لبعض مميزاتها وحكمها وأبعادها المقترنة بها أو ذكرت لها .. هذا معناها فى اللغة:

الرحلة فى اللغة

الرحلة لغة: من رحل عن المكان رحلًا ورحيلًا وترحالًا، ورحلة: سار ومضى ... والرحلة بتشديد الراء وكسرها: الارتحال جمعها رحل بكسر الراء وفتح الحاء وفى التنزيل العزيز: رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ. والرحلة بضم الراء وتشديدها: ما يرتحل إليه، ويقال: الكعبة رحلة المسلمين، وأنتم رحلتى، وعالم رحلة: يرتحل إليه من الآفاق، كل هذا بضم الراء من رحلة، ...

والترحال والارتحال: انتقال أناس من مكان إلى مكان آخر ...

الأول: مميزات رحلة الحج

كما قلنا، إن الرحلة إلى الحج تفترق كثيراً عن باقى الرحلات الأخرى، لأنها رحلة عبادة بالمعنى الأوسع للعبادة، رحلة إلى الله سبحانه وتعالى أى للحصول على رضاه ورحمته ومغفرته وعفوه، لهذا حظيت رحلة الحج بمميزات كثيرة، فبماذا تمتاز رحلة الحج؟

الرحلة الأعظم: إن الحج مما لا شك فيه يعد رحلة من أعظم الرحلات بل وأنبلها وأشرفها، فهى رحلة ربانية تعد أساس قوام مصالح الناس فى الأرض بل فى الدنيا والآخرة جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ (۱)، ولا بد من الإشارة إلى موسمية العمرة فى شهرى رجب ورمضان المباركين- وإن جاز أداؤها فى باقى الأشهر- كحركة سكانية ربانية لا تقل فى أهميتها واتساعها عن الحج نفسه ..

الحركة الأصدق: ليس الحج حركة اعتباطية، بل هى حركة منتظمة تسجلها جموع كثيرة من أماكن هى الأخرى كثيرة، قريبة من مكة أى داخل بلد الحرمين مكة والمدينة أو بعيدة من أطراف مترامية من فجاج وطرق بعيدة، عبّر القرآن عنها: مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ تأتى إلى البقاع المقدسة يدفعها الشوق والود والصدق والإخلاص فى النوايا لأداء مناسك الحج والعمرة غير مبالية هذه النفوس بما تلاقيه من أتعاب وآلام وجوع وعطش خصوصاً فى تلك الأزمنة التى انعدمت فيها وسائل النقل المريحة المتوفرة فى زماننا هذا ..

حتى ورد أن أحدهم وهو محمد بن ياسين قال: قال لى شيخ فى الطواف: من أين أنت؟

فقلت: من خراسان، قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. قلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب فاكتهلت: قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة. فقال:

زر من هويت وإن شطت بك الدار

وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد عن زيارته

إن المحب لمن يهواه زوار (۲)

إذن، الدوافع والنوايا تلعب دوراً مهماً فى هذه الرحلة، فتجعلها رحلة ربانية بحق وبها يمتاز الحج وأيضاً العمرة عن الرحلات والهجرات السكانية العادية الجغرافية فى الدوافع .. فلا يوجد شىء يحرك الناس إلى الحج إلا الدوافع الدينية والروحية البحتة، فأشواق الروح وعامل الجذب الدينى هو الذى يدفع بالمسلمين من كل بقاع المعمورة إلى البقاع المقدسة وهدفهم:

... وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ...

---

۱- المائدة: ۹۷.

۲- انظر تفسير وبيان مفردات القرآن: ۳۳۵ إعداد الدكتور محمد حسن الحمصى.

ص: ۹۷

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱).

إن صدق النية ونزاهتها من كل شائبة أو شرك فى هذه الرحلة العبادية فى أن تكون خالصة لوجه الله تعالى فى مناسك الحج سبب أدعى للقبول وأرجى للأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى القائل:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (۲).

و قال الرسول ۹:

«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...».

القدوم المختلف: ويختلف القدوم إلى الحج عن الرحلات الأخرى بطبيعة الناس القادمين لأداء فريضة الحج من حيث العمر ومن حيث السلامة والصحة والقابليات ..، فهو حركة سكانية تمتاز بتقارب نسبة الذكور والإناث، لأن أفواج الحجيج لا تكون من الذكور وحدهم كما هو شأن حركات السكان غالباً بدافع العمل أو لأغراض معرفية أو سياسية واقتصادية وتجارية .. بل يشترك فى الحج الذكور والإناث معاً. كما أن التركيب العمرى للحاج لا يكون من الشباب وفئات السن المتوسطة القادرة على العمل والإنتاج كما هو شأن الرحلة العادية، بل تشمل حركة الحجاج الشباب والشيوخ والكهول، وبعض العجزة غير القادرين الذين يتمنون لو انتهت بهم رحلة الحياة فى الأراضى المقدسة، ويفدون على الله تعالى بلباس إحرامهم .. هذه هى أمنية عباد الله الصالحين، وكم استشهد على الطريق من الحجيج فى عصر كان الحاج يودعه أهله وفى حسابهم ألا يعود من هذه الرحلة.

فريضة العمر: واجب على كل مسلم يمتلك الاستطاعة من الزاد والراحلة أن يرتحل إلى مهبط الوحى ومواقع النبوة، ويعيش فترة من عمره فى إطارين محددين وهما الزمان والمكان كانا وعاء لحركة الإسلام الأولى، حيث بدأت الخطوات من غار حراء وامتدت حتى تبلغ الناس كافة. والمسلمون عموماً مطالبون بين وقت وآخر بالعودة إلى المنابع الأولى للمراجعة والتصويب، وللتأكد من صحة اتجاه المسير الذى هم عليه. إن وفود الحجيج السنوية وهى تأتى من شتى أنحاء العالم الإسلامى إلى موطن الدعوة الأولى، والعيش على الأرض التى بزغ فيها فجر الإسلام تتواصل مع الجذور التاريخية الممتدة للنبوة، وتتجاوز حواجز التاريخ والجغرافيا لتشرف على خط التوحيد، بدءاً من إبراهيم ۷ الذى أمره الله سبحانه ببناء البيت وتطهيره من الشرك والوثنية، ومناداة الناس إلى الحج.

الرحلة الأنفع: ولا يمنع الإسلام الحجاج من التجارة فى الحج والاستفادة من هذا التجمع البشرى لممارسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة؛ حيث يمكن للحجاج أن يمارسوا التجارة مع إخوانهم القادمين من شتى بقاع الأرض: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ

الممارسة التطبيقية: وهذا يعنى أن الإسلام فرض على المسلمين وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (۳). ممارسة هذه الرحلة عملياً ولو مرة واحدة فى العمر، ليطبق أحكام السفر الفقهية، ويمارس المسلم خلالها تجارب متعددة، ويعايش أصنافاً من البشر ويتعرف عليهم ويتعارف معهم فيصقل خبرته وتجاربه، ويكتسب علماً ومعرفة، وهو فى الطريق لأداء ركن الإسلام الخامس الحج إلى بيت الله الحرام.

والمتأمل فى إحصائيات الحجيج لا يجد قارة فى العالم إلا وقدم منها عدد من الحجاج من أقوام شتى، مهما بعدت المسافات أو طال زمن الرحلة، وغلت أثمانها وتكاليفها، فيتحقق الهدف الأسمى بين الناس ألا وهو التعارف بين الحضارات، وهو مصطلح قرآنى جميل لا الصراع بين الحضارات ولا الحوار بين الحضارات كما يعبر عنه، إنه التعارف بين الحضارات وما أجمله من مصطلح، وخير مصداق له وميدان له هو الحج ميدان عملى للتعارف بين المسلمين، يتعلم فيه المؤمنون كيف تكون الانطلاقة نحو التعرف على حضارة الآخر المختلف والتعارف معها .. انطلاقاً من الآية الكريمة:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۴).

إن لهذه الرحلة المباركة وهذه الهجرة إلى الله تعالى أبعاداً ومقاصد عديدة ثمينة ينبغى للإنسان المؤمن التعرف عليها، ووعيها وعياً نافعاً ليستثمرها فى حياته الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية .. ليخرج من الحج وقد ملئت روحه إيماناً وتقوى ومعرفة واطلاعاً ...

الثانى: الأبعاد

البعد التأريخى للحج

من المعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام سبق ظهور الإسلام بحوالى خمسة وعشرين قرناً، حين فرض على إبراهيم ٧ بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بإقامة قواعد البيت وتطهيره من رجس الأوثان، قال الله تعالى:

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (۵).

وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (۶).

---

۱- البقرة: ۱۹۸.

۲- البقرة: ۱۹۶.

۳- آل‌عمران: ۹۷.

۴- الحجرات: ۱۳.

۵- الحج: ۲۶.

۶- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۹۸

فجاءت فريضة الحج بعد إقامة البيت، قال الله تعالى مخاطباً نبيه إبراهيم ۷:

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۱)

فراح الحنيفيون يتوارثون تلبية ذلك النداء، وأداء ذلك الفرض العظيم وبقى البيت طاهراً حتى جاء عمرو بن لحى الخزاعى، فدنّس طهر البيت بالأوثان، ودخلت الشوائب على عقيدة التوحيد، ومع ذلك ظل العرب يؤدون الحج، ويعظمون البيت برغم ما تسرب إلى المناسك من مظاهر الوثنية؛ وأشرق فجر الإسلام ومكث النبى ۹ ثلاثة عشر عاماً يقرر التوحيد ويحارب الشرك فى العصر المكى ..

إنه حقاً تقرير واتباع لملة ابراهيم ۹ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۲).

وواصل دعوته بعد هجرته ۹ إلى يثرب التى سماها «المدينة المنورة برسول الرحمة ۹ وبدينه السماوى الحنيف، ثم نصره الله تعالى على أعدائه المشركين، فتم فتح مكة فى العام الثامن للهجرة، وأعيد التوحيد الخالص إلى رحاب البيت العتيق، ليبقى هذا البيت كما أراده إبراهيم- بل أرادته السماء- مباركاً وهدى للعالمين، مثابة للناس وأمناً، ثم قبلة ومصلى .. وفى حجة الوداع يعلن النبى ۹ عالمية الإسلام فى عرفات عام ۱۰ هجرية.

وها قد مضى على الحج قرابة خمسة عشر قرناً من عمر الإسلام تضاف إلى عمر فريضة الحج فى بعدها الزمنى، لتشكل عمراً مباركاً مديداً لها لا يقل عن أربعين قرناً، وفى طول هذه المدة قطعت الملايين من الحجاج الأرض من كل فج عميق إلى مكة المكرمة رجالًا وركباناً على الإبل والخيل والسفن والبواخر فالسيارات و الطائرات، وبشتى الوسائل المتاحة فى رحلة سنوية موسمية تحتضن فيها أم القرى أبناء الإسلام فترة من أعمارهم، يستشعرون فيها عظمة العقيدة الإسلامية، وعالمية الدين الحنيف، ودفء الأخوة الإسلامية، وقيم التواضع والمساواة والبذل والصبر والتطهر والوفاء، والتزود من معانى التطواف بأقدس البقاع وأحبها إليه تعالى .. يسألون الله تعالى رضاه ومغفرته، وهم يؤدون ما أمروا به من مناسك فى هذه الرحلة المفروضة على المسلمين مرة واحدة فى العمر فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ تخصص من عمر كل مؤمن مستطيع وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يقضيها فى جوار ربه، متعبداً بشعائر مباركة فرضها عليه فى بيته المبارك ذى الآيات المباركة وفيما حوله من مشاعر مباركة أيضاً:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ...

وهدفهم الكبير يحدوهم: .. لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وأيضاً لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ..

البعد الحضارى للحج:

فى ذلك المؤتمر العالمى الجامع بأرض المناسك، حيث يشكل أروع مجتمع بشرى من كل جنس ولون، يجمعهم التوحيد فى وئام ومحبة، ثم يفترقون وأعينهم تفيض من الدمع بعد أن تكونت علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية بينهم، تنبض بها شرايين الأمة، وتناقلتها دروب الحجيج التى امتلأت عبر التاريخ، وكان لها أثر لا- يمكن إغفاله فى حياة المسلمين، وقد اكتسبوا منافع معرفية وحضارية لا- حصر لها، يشهد لها ما تركه المسلمون من تراث جغرافى وتاريخى وعمرانى فى ميادين المعرفة، فنشأ سجل معرفى أحدث مصاهرة بين البيئات والحضارات حتى برز العديد من الرحالة الذين أغنوا بما كتبوه المكتبات الثقافية وميادين المعرفة.

ففى الشرق من العالم الإسلامى برز من الرحالة الباحثين:

اليعقوبى، والمسعودى وناصر خسرو، وأبو إسحاق الحربى و ابن حوقل، وياقوت الحموى، والخوارزمى، والبيرونى، وابن خرداذبة وابن رستة ...

وفى الغرب: ابن جبير، وابن بطوطة، والبكرى، والإدريسى، والتجيبى، وابن رشيد الأندلسى، والمقريزى، والجزائرى، وأبو القاسم الزيانى.

وفى الجنوب: الهمدانى، وعرام بن الأصبع و الينبعى.

وفى الشمال: المقدسى عبدالغنى النابلسى، وابن فضلان.

هذا على مستوى الرحلات وأما اللقاءات بين علماء الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب والثقافة فى أرض المناسك وعلى دروب الحج فلا يستطيع أحد من الناس الإحاطة بها، فقد تبودلت أفكار وآراء، وكتبت إجازات وبحوث ومؤلفات كانت تشكل ثقافات متنوعة تهب على كل ديار المسلمين فى عصر ما قبل ظهور الطباعة.

إن الحج باب من أبواب ينفر إليه كل عام طائفة ممن يحمل هموم المسلمين تنقل صورة الواقع الحقيقى للأمة المسلمة بالرؤية المباشرة بعيداً عن صور الزيف والتضليل الإعلامى والسياسى. فعلى الرغم من تباين النظرة السياسية، والتفرق والتمزق خلف الحدود جعلت المسلمين شيعاً وأحزاباً، يؤكد لقاء الحج سنوياً أن العقيدة أقوى من السياسات، وأن ما يجمع المسلمين كشعوب أكثر من فلسفات الفرقة التى تبتكرها أباطيل السياسة، وتلافيف متاهاتها المظلمة.

---

۱- الحج: ۲۷.

۲- البقرة: ۱۳۵.

ص: ۹۹

إن الحج رحلة باتجاه قراءة السيرة والتاريخ، وعودة للتزود من المنبع الأصلى، ومشاهدة لأرض النبوة، ورصد لحركة الدعوة عن قرب، واستعادة للتألق التاريخى لنقاط الارتكاز التى قام عليها المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية مما ينشط الذاكرة ويحددها، ويعيد الفاعلية للجوانب الضامرة من عاطفة الإنسان وفكره بعد رحلة زمنية بعيدة.

إننا نسمع اليوم عن مجموعات من المؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع والأديان، يحاولون التوغل فى العمق التاريخى، ويستحضرون الظروف والملابسات التى رافقت الأحداث، وذلك لتخليص المسار الحضارى مما علق به؛ فى محاولة للوصول إلى الحقيقة، وبعث الأمجاد، وشحذ الهمم من خلال العيش فى نفس الظروف التاريخية. فهناك عدد من الرحالة الأوروبيين يحاولون السير على نفس الطريق الذى سارت عليه الحملات الصليبية، ويلبسون لباس تلك الفترة، كما نسمع عن آخرين يشدون الرحال لاقتفاء آثار المكتشفين الجغرافيين، وما ذلك إلا ليتوفر للفكرة التى يعيشها الإنسان الظروف التى نبتت وترعرعت فيها تلك الفكرة.

ولكن هذه العودة إلى الماضى وإن كانت ضرورية فيجب أن تقدر بقدرها؛ فإذا كان التشبث بالتاريخ واللجوء إليه للوقوف أمام العواصف التى تحاول اقتلاع الجذور ضرورياً، فلا يعنى ذلك الغياب فى الماضى على حساب الحاضر والمستقبل، لأن تلك الغيبوبة تصبح موتاً مع وقف الدفن وإساءة للماضى نفسه، وحكم عليه بالعجز وعدم الصلاحية لإفادة الحاضر وتشكيل المستقبل، وتلك هى الأزمة المستعصية التى وقع فيها أولئك الذين أسقطوا الحاضر والمستقبل، فانسحبوا من الساحة نهائياً يعيشون على ذكريات الماضى وأمجاده وانتصاراته، مع إصرار شديد على تأكيد الوجود التاريخى من الحضور المعاصر.

إن المسلم عندما يتهيأ لأداء فريضة الحج ينبغى أن يعرف أن أول الحج الفهم- فهم موقع الحج من الدين- ودراسة أعمال الحج ودراسة أسرارها ورموزها حتى يشعر بالشوق والعزم وإزالة الموانع واتخاذ أسباب السفر. والمتأمل فى أعمال الحج يشعر بالحكم العظيمة فيه ..

قال ابن دقيق العيد فى شأن أعمال الحج وأسراره: «وفى ذلك من الحكم تذكر الوقائع الماضية للسلف الكرام، وفى تذكرها مصالح دينية، إذ يتبين فى أثناء كثير منها ما كانوا عليه من امتثال أمر الله تعالى، والمبادرة إليه، وبذل النفس فى ذلك، وبهذه النكتة يظهر لك أن كثيراً من الأعمال التى وقعت فى الحج، ويقال فيها: إنها تعبدية فقط ليست كما قيل، ألا ترى أنا إذا فعلناها وتذكرنا أسبابها حصل لنا من ذلك تذكر الأولين، وما كانوا عليه من احتمال المشاق فى امتثال أمر الله فكان هذا التذكر بامتثالنا على مثل ذلك، ومقرر فى أنفسنا تعظيم الأولين، وذلك معنى معقول، مثاله:

السعى بين الصفا والمروة، إذا فعلناه وتذكرنا أن سببه قصة هاجر مع ابنها، وترك الخليل لهما فى ذلك المكان الموحش، منفردين منقطعى أسباب الحياة بالكلية، مع ما أظهره الله تعالى لهما من الكرامة، والآية فى إخراج الماء لهما، كان فى ذلك مصالح عظيمة، أى فى التذكر لتلك الحال،

وكذلك رمى الجمار إذا فعلناه وتذكرنا أن سببه رمى إبليس بالجمار فى هذه المواضع عند إرادة الخليل ذبح ولده، يحصل من ذلك مصالح عظيمة فى النفع فى الدين» (۱).

البعد الوحدوى لرحلة الحج

قلنا: إن البعد الوحدوى نجده فى كل أبعاد هذه الرحلة ومميزاتها وهى تصوغ الإنسان المؤمن روحياً وسلوكياً وأخلاقياً، فتجعل منه قاعدة لوحدة مجتمعه ثم أمته، ومع هذا جعلت هذه المقالة هذا البعد بعداً مستقلًا لفائدته ولتوضيحه بمقطع مختصر:

إن اجتماع الحجيج من أرجاء المعمورة وهم يهللون بالتوحيد، تجمعهم عقيدة واحدة وشريعة واحدة، أضاف الحج إليهم رابطة ثالثة حسية ملموسة هى وحدة الأرض والوطن أرض الوحى والموطن لأمة الإسلام قاطبة، فالمسلمون مهما تباعدت أقطارهم وتباينت ألسنتهم وألوانهم هم أمة واحدة تجمعهم رابطة الدين والعقيدة، وهم الأمة الوسط فى موقعها الجغرافى وفى بعدها الروحى والدينى،

وهذه الوحدة كافية للتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب المسلمين فى ألسنتها وألوانها وعاداتها لتجعل من المسلمين أمة واحدة تتجانس مناهجها وخططها وطرق تفكيرها، لتكون الأمة الأقوى والأرغد عيشاً والأتم عزة ومنعة، قال الله تعالى:

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۲).

ففى الحج يكتسح المسلم فرديته الضيقة ينتقل إلى رحاب الإسلام التى تغطى الكرة الأرضية، مستشعراً الأخوة الإسلامية وهى تجمع الكل فى أسرة واحدة وبيت واحد ومجتمع واحد يشد بعضه بعضاً، ويتيقن الحاج أن الحج هو الخطوة الأولى لبناء الوحدة الإسلامية على أساس الدين والعقيدة متجاوزين الحدود الجغرافية والقومية والإقليمية، والذى ينظر من أعلى إلى صعيد عرفات إلى تلك الجموع الهادرة تعلن التوحيد والتلبية والتكبير، لا يتخيل للحظة واحدة أن مثل هذه الأمة قد تهزم وتضعف وتذل وتكون تابعاً لغيرها من الأمم.

فالحج أرغم كل مسلم فى الأرض على التفكير فى قوة أمته ووحدتها وخيراتها وقدراتها قال الله تعالى:

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ (۳).

البعد الفردى لرحلة الحج:

إن الحج له آثاره القيمة على الفرد المسلم، وهو ما نذكره هنا وفى الفقرة الآتية فقرة حكم الحج، الإصلاح الفردى:

---

۱- حامد بن محمد العبادى، من حكم الشريعة وأسرارها: ۱۷۰- ۱۷۱.

۲- الأنبياء: ۹۲.

۳- الحج: ۲۸.

ص: ۱۰۰

إن الحج رحلة باتجاه الماضى على مستوى النفس للقيام بالمراجعة والمحاسبة، واستعراض الأخطاء وجوانب التقصير حيث يتاح للسلوك والعقل والفكر التوبة من المعاصى، وقطع العهد عن البيت العتيق ليولد المسلم من جديد، ويدع الماضى بكل ما فيه ويتجه إلى المستقبل نقياً من الذنوب، قال ۹:

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». حتى قيل بهذا الخصوص: «إن الطواف بعكس عقارب الساعة لعله اتجاه إلى الماضى لمحو الآثار وتعفيتها، وطمس معالم الذنوب السابقة فى النفس البشرية. إن الحج رحلة باتجاه الماضى على مستوى النفس ومحاسبتها ..

إن المسلم الذى يدرك الحج بأنه طاعة وامتثال لله وفهم لهذه الحكم إنما يدفعه الشوق والعزم لأداء هذه الفريضة لثقته المسبقة بأن أول مكاسبه هو التطهر من ذنوبه السالفة وسيرجع من رحلته إلى الحج وكأنه ولد من جديد،

قال ۹: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» «والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة».

يرجع المسلم بعد الحج بعيداً عن موبقات الرجس وهواجس الإثم، وتقوم نفسه اللوامة بإحصاء سيئاته والتوجه مباشرة إلى الله عز وجل بطلب المغفرة والعفو؛ وذلك لأنه فى موسم الحج وصل بيت الله تائباً، وكلما وصل مشعراً من مشاعر الحج دب دبيب إيمانه، فصدع بالتلبية والتكبير وصمم بنفسه على التوبة النصوح والعهد القاطع ألا يعود إلى المعصية.

موقف عرفة وازدحام الناس فيه أعظم مشاهد الحج ومناسكه، ففى ذلك الموقف بازدحام الخلق فيه، وارتفاع أصواتهم، واختلاف لغاتهم مع اتحاد لباسهم وزيهم، يتذكر المسلم عرصات القيامة ووقوف الأمم مع أنبيائهم، واتباع كل أمة نبيها، طامعين فى شفاعتهم، متحيرين بين الرد والقبول، أمم متعددة الألوان والألسنة جاؤوا من كل فج عميق، يبتهلون إلى الله عز وجل شعثاً غبراً، تجردت قلوبهم وأجسامهم من زينة الدنيا، وامتدت أعناقهم وأيديهم، وشخصت أبصارهم إلى خالقهم العظيم سبحانه الذى تجلى عليهم فى ذلك الموقف، يباهى بهم ملائكته ويشهدهم أنه جل شأنه غفر لأهل الموقف.

فى هذا الجو الروحى الذى لا يمكن أن تكون السماء الأقرب إلى الأرض فى موضع سواه، تنكشف الهواجس عن صاحب النفس اللوامة شيئاً فشيئاً فيحس بنسيم منعش يداعب صفحة وجهه، ويدب إلى رئتيه فينشرح صدره، فإذا آنس ذلك من نفسه أحس أن طوراً ثقيلًا كان يجثم على صدره، راح يتزحزح شيئاً فشيئاً، ومع مواصلة التفرغ والخشية يتخفف الحاج من أوزاره وأثقاله ليرجع كيوم ولدته أمه حتى إذا انشرح وثب من مكانه ظافراً منتصراً فقد هزم إبليس وجنده، وهزم أشباح المعصية فى حياته، ويلح فى الدعاء موقناً بالآية الكريمة، قال الله تعالى: أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (۱).

فيشعر الحاج بالراحة النفسية التى عجزت نظريات الطب وعلم النفس عن منحها للعصاة المذنبين فلا عجب أن نسمع دعوات علماء الاجتماع والصحة النفسية إلى توظيف العبادات- وعلى رأسها الحج- لمقاومة الانحرافات السلوكية، وسائر أنواع الإدمان من خلال إيجاد نوع من العلاج النفسى والاجتماعى ذى الوجهة الإسلامية، بعد النجاح الكبير الذى لاحظه علماء النفس والاجتماع للعبادات الإسلامية فى مجال التهذيب والإصلاح والتقويم.

ومما يكتسبه الحاج فى رحلته الروحية إلى الحج زيادة إيمانه بنبيه ۹ حيث يرى بعينيه هذه البقاع الطاهرة التى سار عليها النبى ۹ فكانت مسرحاً لجهاده فى نشر الدعوة، فيتذكر عند الصفا صعوده ۹ عليها داعياً قومه عندما أذن الله له بالجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من السرية والكتمان، ويذكر عند العقبة اجتماعه بالأنصار فى بيعة العقبة الأولى والثانية، ويرى جبل النور وقد ارتفع عليه (حراء) بشمم وسمو يستقبل أول نزول الوحى بالقرآن الكريم، وعندما يرى عرفات يتذكر حجة الوداع وجموع الصحابة رضى الله عنهم تأتم بالنبى ۹ فى مناسكهم، وهم يستمعون إلى حجة الوداع، حيث خطب النبى ۹ أبلغ خطبة حفظت حقوق الإنسان وكرامته قبل أن تعرفها الشعوب الغربية بألف عام.

إن التأمل فى غار حراء وصعوبة الارتقاء إليه فى جو لاهب من الحر والريح الجافة، لتؤكد للناس عبر القرون أن النبى ۹ كان مؤيداً بعناية رب العالمين، عندما ينقطع فى الغار لا يعبأ بالوحشة والانفراد، ولا يتسلل إلى نفسه الشريفة خوف، مما يجعل انقطاعه ۹ بالغار معجزة مستقلة تؤكد صدقه ۹ وصبره على تلقى هذا الأمر العظيم من الوحى والنبوة والتبليغ.

إن أبلغ آثار الحج فى نفس المؤمن التائب هو ولادته الجديدة بعد عودته الخاشعة، نظيفاً من الذنوب والآثام، يستأنف حياة جديدة من الاستقامة والسمو، فيحاسب نفسه فى خواطره الصامتة إذا حدثه الشيطان بسوء قائلًا:

لقد حججت البيت فحافظ على طهرك ونقائك، ولا تدرى أتعيش لعام قادم أو لا تعيش؟! وفرصة الحج ثانية قد لا تعود فاحذر الخطيئة والإثم، ويقف الحج فاصلًا منيعاً بين الماضى والحاضر المشرق، ويدفع الحاج دفعاً كيلا ينكص على عقبيه ويحافظ على السلوك المستقيم.

وتساعد نظرة المجتمع إليه بعد عودته على المزيد من التقوى والإستقامة، فالحرص على السمعة والمروءة ليس رياء، بل هو مبالغة فى التقوى والحرص على الطهر والنقاء، إن نظرة المجتمع فى إيجابيتها لا تقل أهمية عن الوازع الداخلى عند المسلم فى تقوية حس المراقبة والمحاسبة.

إن الحج تطهير للنفس، وغرس لبذور الفضيلة والاستقامة، وصلة قوية بمنابع الإسلام الأولى، ستظل ذكرياتها محفورة فى الذاكرة تؤجج الشوق إلى تكرار الحج والعمرة عدة مرات، وإذا حالت بعض الموانع دون تكرار الرحلة سيكون العزاء الشافى هو الثبات على العهد والتزام السبيل المستقيم.

الثالث: حِكَم الحج

---

۱- غافر: ۶۰.

ص: ۱۰۱

أما حكمة أو حكم فرض الحج، وما قصده الشارع بهذا التكليف من مصالح، وما الذى يجنيه المسلمون كل عام من احتمال هذه المشقات البدنية والمالية، فهذه موضوعات لا يكثر التساؤل عنها، ولا تلقى من الحجاج العناية التى تلقاها أحكام المناسك، مع أن الشارع الحكيم ما قصد بفرض الحج، ولا بأى فرض فرضه، مجرد هيكله الظاهرى وصورته المادية، وإنما قصد الهيكل والروح والصورة والمعنى، وأراد بالعبادات وبالفرائض أن تكون وسائل لمقاصد ومصالح، والواجب على المسلمين أن يقوموا بالوسائل وأن يحققوا المقاصد، التى فرض الحج من أجلها ويجنوا ثماره ومنافعه وخيره وعطاءه السخى، وكلها جاءت لتحقق مصالح الإنسان وإلا فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۱).

إن الناظر فى آيات القرآن وسنن الرسول ۹ يتجلى له أن الشارع الحكيم، ما فرض على كل مكلف من المسلمين والمسلمات أن يحج البيت الحرام مرة فى عمره إلا لتحقيق مصالح اجتماعية لشعوب المسلمين وجماعاتهم، وأيضاً لتحقيق مصالح فردية للحاج نفسه. فالحج من حيث ما قصد الشارع به من مصالح له ناحيتان ولا يكون أداء هذه الفريضة كاملًا إلّا إذا عمل المسلمون على تحقيق هاذين الناحيتين:

۱- الإصلاح الاجتماعى

فقد أرشد الله سبحانه إليها بقوله: وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ‌اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى مارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ.

فقوله سبحانه: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ بيان لأن المقصود من الحج وفود المسلمين من الرجال والنساء إلى مكان واحد هو الكعبة، أن يشاهدوا ما فيه نفع لهم وخيرهم ومصلحتهم، وقد أطلق سبحانه «منافع لهم» ليدل على المقصود كل ما فيه نفع لهم فى دينهم ودنياهم، فى العلم أو فى التجارة، أو فى السياسة، أو فى الاقتصاد، أو فى كل ناحية من نواحى النفع والإصلاح، ومن أظهرها وأهمها تقوية وحدتهم وأخوتهم، ووضع خطط تعاونهم وتناصرهم.

وذلك أن الأساس الذى بنى عليه الإسلام دعوته، والشعار الذى جعله عَلم المسلمين وعنوانهم هو وحدة المسلمين وتآخيهم وتضامنهم وتناصرهم، وتغليب جامعتهم الإسلامية على ما بينهم من فروق فى الجنسية أو القومية أو اللغة أو الإقليم، ولهذا نطقت نصوص القرآن والسنّة بأن المؤمنين إخوة، وبأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وبأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وقرر علماء المسلمين أن دار المسلمين دار واحدة، وإن اختلفت ملوكهم وجيوشهم ولغاتهم وأجناسهم، وأنه لا يتحقق بين مسلم ومسلم اختلاف فى الدار، وإن تباينت التبعية السياسية وتباعدت الأقطار.

ومن أجل هذا شرع الله من العبادات وفرض من الفرائض ما يقوى هذه الوحدة، ويغذى هذه الأخوة، ويمكن المسلمين من جنى ثمار وحدتهم وأخوتهم، فسن الجماعة فى الصلوات الخمس فى كل يوم؛ ليتعارف أهل المنطقة الواحدة، وفرض الجمعة فى كل أسبوع ليتعارف أهل المناطق فى البلد الواحد، وفرض الحج مرة فى العمر ليجتمع المسلمون من مختلف الأقطار مرة فى كل عام حول بيت الله الحرام وفى مهد الإسلام ومهبط الوحى، ليتذكروا مبدأ أمرهم، وما سادت به دولتهم ودعوتهم، ويتدارسوا شؤونهم .. ويقف كل شعب على حال سائر الشعوب، وبهذا التعارف والتفاهم يضعون الخطط لمبادلاتهم التجارية والصناعية والعملية، ولتناصرهم وتعاونهم على من يعتدى عليهم أو على مصالحهم.

وقد ورد فى حديث عن الإمام جعفر الصادق ۷ فيما حدّث به هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبدالله جعفر الصادق ۷ فقلت له:

ما العلّة التى من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟

فقال: «إنّ الله خلق الخلق ...- إلى أن قال- وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع

من الشرق والغرب ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمّال ولتعرف آثار رسول الله ۹ وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى، ولو كان كل قوم إنما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا على ذلك، فذلك علّة الحج».

وعن الفضل بن شاذان عن الإمام على الرضا ۷ قال: «إنما أُمروا بالحج لعلّة الوفادة إلى الله عزوجل، وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الأنفس] عن اللذات شاخصاً فى الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر، ممّن يحج وممّن لم يحج، من بين تاجر وجالب وبائع ومشتر وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقُّه ونقل أخبار الأئمة إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عزّوجل: فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ و لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ».

يقول العلامة السيد فضل الله: إننا نستوحى من هذين الحديثين، أن الإسلام أراد للحج أن يكون ملتقىً للمسلمين جميعاً فى شرق الأرض وغربها، من أجل تحقيق التعارف والتواصل بينهم، وتحصيل المنافع الاقتصادية والاجتماعية لمن حجّ ولمن لم يحج، وتبادل التجارب والخبرات المتنوّعة، التى يملكها كل فريق من خلال أوضاعه العامة والخاصة، وتسهيل حركة الدعوة إلى الله بالانطلاق من موسم الحج للاتصال بكل المناطق الإسلاميّة التى تتمثّلُ بأفرادها، الذين يقصدون بيت الله الحرام لأداء الفريضة فيما يتعلّمونه من ثقافة الإسلام وشريعته، وفيما يتعاونون فيه من مشاريع وأعمال وخطط على أساس المصلحة الإسلاميّة العليا، لينطلق العمل الإسلامى من قاعدة مركزيّة واسعة، فى أجواء الإسلام التاريخية التى

---

۱- النمل: ۴۰.

ص: ۱۰۲

شهدت مولد الدعوة وعاشت حركيتها، وحقّقتْ أهدافها الكبيرة فى جهادها المرير الصعب، فيكون التحرك فى الخط من موقع الفكرة والجوّ والخبرة المتبادلة والمعاناة الحاضرة.

وهكذا يعيش الناس فيما يقصدونه من مزارات أجواء الإسلام الأولى، التى يعيشون معها الإحساس بالانتماء الروحى والعملى لهذا التاريخ، مما يوحى لهم بأن الإسلام الذى ينتمون إليه يمتدّ إلى تلك الجذور العميقة الطارئة فى أعماق الزمن، وبأن عليهم أن يعطوا هذا التاريخ امتداداً من خلال جهادهم ومعاناتهم ... (۱).

فهذا الحج هو مؤتمر إسلامى سنوى ينعقد بدعوة إلهية، وتلتقى فيه وفود الأمم الإسلامية وممثلوها، فى أطهر مكان بأصفى نفوس مؤيدين بمعونة الله؛ ليرسموا خطة تعاون المسلمين، ويقرروا ما يحقق آمالهم، ويعالج أمراضهم، ويوحد كلمتهم.

ولو عنى المسلمون بهذا المؤتمر الإلهى السنوى، وأوفد كل شعب إسلامى إليه بعوثاً من خيرة ما عنده من علماء السياسة والصناعة والتجارة وسائر شؤون الدين والدنيا، وكان هناك عمل على تنظيم اجتماعات لهذه البعوث المختلفة، وتيسير السبيل لتعارفهم وتباحثهم؛ لكان للمسلمين فى كل عام صوت إصلاحى إجماعى، يُسمع دويه فى العالم، ويترقبه المسلمون كل عام بآذان صاغية، وقلوب واعية.

ولكن مما يؤسف أن ألوف المسلمين بمكة بالمسجد الحرام يستقبلون قبلة واحدة، ويؤمهم إمام واحد، ويؤمنون بإله واحد، ولكن لا تفاهم بينهم ولا- تعارف، ولا- تبادل الحديث فى شأن دينى أو دنيوى، وهم فى مكان واحد يلتقون، وكأنهم لا تجمعهم جامعة، ولا تربطهم أخوة؛ لأن كل واحد منهم لا يفهم لغة أخيه، ولا يستطيع مبادلته أى حديث. ولهذا أرى واجباً على كل شعب إسلامى أن يجعل اللغة العربية مادة أساسية فى مدارسه يتعلمها الناشؤون، وينشؤون على النطق بها والكتابة بها، فهى اللغة التى اختارتها السماء ونزل بها الكتاب المبين القرآن الكريم، وهذه أول خطوة لتفاهم المسلمين وتعارفهم، واستثمار وحدتهم وأخوتهم ..

لا- بد من الانتفاع بهذا المؤتمر الإسلامى السنوى الذى ينعقد بدعوة من الله، وتهرع إليه الوفود بإيمان وإخلاص ابتغاء مرضاة الله، فلتكن وجهة المسلمين أن ينتفعوا كل عام بقرارات هذا المؤتمر، ونتائج جهود هؤلاء البعوث وصفاء نفوسهم حول الكعبة وفى مهد الإسلام ومهبط الوحى بالقرآن.

۲- الإصلاح الفردى

فقد أرشد إلى هذا رسول الله ۹ بقوله: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وبقوله: «إذا لقيت الحاج فسلِّم عليه وصافحه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له». فكما أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن من الخطايا، والزكاة طهرة للمزكى من الشحّ والحرص والقسوة والأنانية، والصوم طهرة للصائم من الاسترسال فى الشهوات واتباع النفس الأمارة بالسوء، فالحج طهرة للحاج من ذنوبه وآثامه، يغسل نفسه، ويزيل ما ران على قلبه، ويجعله دائماً على ذكر من ربه، وذلك أن الشارع الحكيم شرع كل نسك من مناسك الحج بمثابة طور من أطوار التطهير للنفس من ذنوبها وآثامها، حتى إذا أتم الحاج مناسك حجه مرت نفسه بعدة أطوار تطهيرية، فينتهى حجه، وقد غسل نفسه، وطهر قلبه، وعفا الله عنه وغفر له.

فأول ما يبدأ به الحاج: الإحرام، وهذا أول درس رياضى تهذيبى لنفس الحاج، فإن الحاج إذا تجرّد من ثيابه ورأى نفسه عارى الرأس شبه الحافى، ورأى الملوك والسوقة والأغنياء والفقراء والمخدومين وخادميهم بزى واحد هانت فى عينيه مظاهر الدنيا، وتذكر مبدأه ومعاده، وآمن بأن العظمة لله وحده، وإذ ذاك يذكر معاصيه وسيئاته، ويضرع إلى ربه، ويلهج لسانه: لبيك اللهم لبيك!.

فإذا وصل بهذه الحال إلى مكة، وصل بنفس خاشعة ضارعة باكية آسفة، فيجد الضالة التى ينشدها، والفرصة التى يغنمها وهى الكعبة، فيطوف بها داعياً مستغفراً، مهللًا مكبراً، مؤمناً بأنه فى أكرم مكان عند الله، فيه تقبل التوبة وتغفر الذنوب.

وإذا انتقل من الطواف بالكعبة إلى السعى بين الصفا والمروة، كرر دعاءه واستغفاره. وإذا وقف بعرفات، وذكر وقفة الرسول ۹ بحجة

الوداع يخطب خطبة الوداع، وواجه جبل الرحمة .. هنالك تفيض العين بالدمع، وينبض القلب بالتوبة، ويلهج اللسان بالاستغفار، واعتقد أنه نال رضا ربه، وخرج من ذنوبه، وانتصر على هواجس نفسه، ووساوس الشيطان، فيرمز لهذا الانتصار برمى الجمرات، ويعود من مناسك الحج، وقد ألقى أوزاره، واعتقد أن الله قد غفر له.

هذه المعانى الروحية والرياضة التهذيبية لمناسك الحج تقتضى من كل حاج أن يفكر فيها، وأن يعمل على تحقيقها، فإن الشارع الحكيم ما شرط الإحرام لمجرد أن يكشف الإنسان رأسه، وأن يتجرد من ثيابه، وما فرض الطواف لمجرد أن يدور بأحجار، ويتمسح بأستار، وما أوجب السعى بين الصفا والمروة لمجرد أن يجرى عدة أميال، ولا فرض الوقوف بعرفة لرحلة جبلية، وإنما شرع هذا سبحانه لإصلاح نفسى، ورياضة تهذيبية.

وعلى الحجيج أن يتركوا كل ما يلهيهم ويبعدهم عن التفكير فى حكمة تشريع الحج وما يراد فيه من إصلاح النفوس، وليعلم الجميع أن الله سبحانه ما قصد بأية عبادة من العبادات مجرد صورها وأشكالها، وإنما قصد حكمها وروحها وآثارها فى إصلاح الأفراد والجماعات والمؤسسات والكيانات والأمة بكاملها ..

الرابع: البُعد التذكيرى

---

۱- انظر: مجلة ميقات الحج ۲۷: ۱- ۲۸.

ص: ۱۰۳

من منافع الحج أنه خير مذكّر للإنسان الحاج، فهو يزيح عنه الغشاوة، ويفتح عينيه على ما لم يستطع معرفته وهو بعيد عن دائرة مناسك هذه الفريضة، فكلما قرب منها وكلما عاش أجواءها وتذوق طعمها، تركت فى نفسه بصماتها، وراحت تفتح له آفاقها ليستفيد منها ويعيش ذكراها وهو يؤدى مناسكها بصدق وإخلاص .. ولهذا تراها تذكّره فيتذكر:

۱- يتذكر بسفره إلى الحج سفره إلى الله والدار الآخرة، وكما أن فى السفر فراق الأحبة والأهل والأولاد والوطن؛ فإن السفر إلى الدار الآخرة كذلك.

۲- فكما أن الإنسان فى سفره الدنيوى يستعد له بإعداد الزاد .. فالسفر إلى الدار الآخرة كذلك وهو أعظم منه بمراحل يحتاج إلى الزاد الأعظم والأكثر نفعاً؛ لأن أمام الإنسان النزع والموت والقبر والحشر والحساب والميزان والصراط ثم الجنة أو النار، وكل هذه يحتاج إلى العدة .. وأسعد إنسان هو الذى ينجو من عذاب يومئذ ولا ينجو إلا إذا أحسن زاده وأتقن عمله فهو رفيقه الوحيد فى رحلته هذه.

۳- الذاهب فى هذا السفر يتزود من الزاد الذى يبلّغه إلى الديار المقدسة، فليتذكر أن سفره إلى ربه ينبغى أن يكون معه من الزاد ما يبلّغه مأمنه، وفى هذا يقول الله تعالى: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى (۱).

۴- ودخوله لبيت الله الحرام الذى جعله الله أمناً للناس يتذكر به العبد الأمن يوم القيامة، وأنه لا يحصله الإنسان إلا بكد وتعب، وأعظم ما يؤمن الإنسان يوم القيامة التوحيد وترك الشرك بالله، وفى هذا يقول الله تعالى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (۲).

۵- وفى طوافه يتذكر أباه إبراهيم ۷، وأنه بنى البيت ليكون مثابة للناس وأمناً، وأنه دعاهم للحج لهذا البيت، فجاء نبينا محمد ۹ ودعا الناس لهذا البيت أيضاً، وكذا كان يحج إليه موسى ويونس وعيسى:، فكان هذا البيت شعاراً لهؤلاء الأنبياء وملتقىً لهم، وكيف لا وقد أمر الله تعالى إبراهيم ۷ ببنائه وتعظيمه.

۶- وإذا لبس المحرم ثوبى إحرامه فلا يذكر إلا كفنه الذى سيكفن به، وهذا يدعوه إلى التخلص من المعاصى والذنوب، وكما تجرد من ثيابه فعليه أن يتجرد من الذنوب، وكما لبس ثوبين أبيضين نظيفين فكذا ينبغى أن يكون قلبه وأن تكون جوارحه بيضاء لا يشوبها سواد الإثم والمعصية.

۷- وإذا قال فى الميقات: «لبيك اللهم لبيك»، فهو يعنى أنه قد استجاب لربه تعالى، فما باله باقٍ على ذنوب وآثام لم يستجب لربّه فى تركها ويقول بلسان الحال: «لبيك اللهم لبيك» يعنى: استجبت لنهيك لى عنها وهذا أوان تركها؟

۸- وتركه للمحظورات أثناء إحرامه، واشتغاله بالتلبية والذكر يذكره بحال المسلم الذى ينبغى أن يكون عليه، وفيه تربية له وتعويد للنفس على ذلك، فهو يروض نفسه ويربيها على ترك مباحات فى الأصل لكن الله حرمها عليه ها هنا، فكيف أن يتعدى على محرمات حرمها الله عليه فى كل زمان ومكان؟!

۹- وتقبيله للحجر الأسود- وهو أول ما يبدأ به من المناسك- يربى الزائر على تعظيم السنّة، وأن لا يتعدى على شرع الله بعقله القاصر، ويعلم أن ما شرع الله للناس فيه الحكمة والخير، ويربى نفسه على عبوديته لربه تعالى ..

۱۰- وشربه لماء زمزم يذكره بنعمة الله تعالى على الناس بهذا الماء المبارك والذى شرب منه ملايين الناس على مدى دهور طويلة ولم ينضب، ويحثه على الدعاء عند شربه، وقد نسب إلى النبى ۹ قوله: «إن ماء زمزم لما شرب له».

۱۱- السعى بين الصفا والمروة يذكره بما تحملته هاجر أم إسماعيل وزوجة نبى الله إبراهيم الخليل ۷ من الابتلاء، وكيف أنها كانت تتردد بين الصفا والمروة بحثاً عن مغيث يخلصها مما هى فيه من محنة وخاصة فى شربة ماء لولدها الصغير- إسماعيل-، حتى أورثتنا هذا الإرث العظيم.

إنه ركن من أركان الحج «السعى بين الصفا والمروة» فإذا صبرت هذه المرأة على هذا الابتلاء ولجأت لربها فيه فأن يفعل المرء ذلك أولى وأحرى له، فالرجل يتذكر جهاد المرأة وصبرها فيخفف عليه ما هو فيه، والمرأة تتذكر من هو من بنات جنسها فتهون عليها مصائبها.

۱۲- الوقوف بعرفة يذكر الحاج بازدحام الخلائق يوم المحشر، وأنه إن كان الحاج ينصب ويتعب من ازدحام آلاف، فكيف بازدحام الخلائق حفاة عراة فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۳)؟!

۱۳- رمى الجمار يعوّد المسلم على الطاعة المجردة ولو لم يدرك فائدة الرمى وحكمته، ولو لم يستطع ربط الأحكام بعللها، وفى هذا إظهار للعبودية المحضة لله تعالى.

۱۴- ذبح الهدى يذكره بالحادثة العظيمة فى تنفيذ أبينا إبراهيم لأمر الله تعالى بذبح ولده البكر إسماعيل بعد أن شبّ وصار معيناً له، وأنه لا مكان للعاطفة التى تخالف أمر الله ونهيه، ويعلمه كذلك الاستجابة لما أمر الله بقول الذبيح إسماعيل: يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۴).

۱۵- فإذا ما تحلل من إحرامه وحلَّ له ما حرمه الله عليه، رباه ذلك على عاقبة الصبر، وأن مع العسر يسراً، وأن عاقبة المستجيب لأمر الله الفرح والسرور، وهذه فرحة لا يشعر بها إلا من ذاق حلاوة الطاعة، كالفرحة التى يشعرها الصائم عند فطره، أو القائم فى آخر الليل بعد صلاته.

---

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الأنعام: ۸۱.

۳- المعارج: ۴.

۴- الصافات: ۱۰۲.

ص: ۱۰۴

۱۶- وإذا انتهى من مناسك الحج وجاء به على ما شرع الله وأحب، وأكمل مناسكه، رجا ربه أن يغفر له ذنوبه كلها، كما وعد بذلك النبى ۹ بقوله:

«مَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

ودعاه ذلك ليفتح صفحة جديدة فى حياته خالية من الآثام والذنوب.

۱۷- وإذا رجع إلى أهله وبنيه وفرح بلقائهم، ذكّره ذلك بالفرح الأكبر بلقائهم فى جنة الله تعالى، وعرفه ذلك بأن الخسارة هى خسارة النفس والأهل يوم القيامة، كما قال تعالى:

قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱).

---

۱- الزمر: ۱۵.

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹